الجامعة الاسلامية
المدينة المنورة
مكتبة الدراسات العليا
الرقم الاساس
الرقم العام

٩٢٨
أ ٤٤
مكتبة الدراسات العليا

جامعة الملك عبد العزيز
كلية التربية والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التربوية
فرع الأدب

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد:

عائض سعد الحارثي

الجامعة الاسلامية
مكتبة الدراسات العليا
الرقم العام ٢٠

إشراف:

الأستاذ الدكتور محمد نبيه حجاب

١٣٩٧هـ/١٣٩٨
١٩٧٧م/١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمـــة

كنت كثيرا ما أقرأ وأسمع عن شهرة أبى بكر الخوارزمى فى عالم الأدب .. فلا تكاد تذكر الرسائل الاخوانيـــة الا ويذكر علمها الخوارزمى .. ولا يأتى ذكر المناظرات الا وتكون مناظرة الخوارزمى وبديع الزمـان أول مايتبادر الى الذهـن .

حتى قرأت فى مجلة الأزهر مانصه : " ومن العجب أن يكتب الكاتبون مـن اخواننا رسـائل متفرقة فى أدباء هم أقل شأنا من أبى بكر ، ويهملون أبا بكـر الخوارزمى ، فلا يكتب عنه كاتب من المحدثين .

وقد أغفله حسـاده ومناجزوه ، ليظل فى التاريخ مجهولا وفى عالمهم الأدب مغمورا " (١)

فعجبت بدورى لإغفال الدارسين لأديب يعد من أكبر أدباء القرن الرابع الهجـرى .. أسهم فى الأدب شعره ونثره وألف فى النقد والأنساب والأشـال وكانت له المكانة الأولى لدى الولاة والوزراء فى عصره ..

فلما أشـرت على أستاذى الدكتور محمد نبيه حجاب بهذا الموضوع ، زاد عزمى مضاء واصرارا على اتخاذه موضوعا لرسالتى هذه التى أتقدم بها للماجستير، مع علمى أنه موضوع بكر لم يخدم ولم يعن به ، الا من خلال تلك الترجمات الـتى تقتصر على تاريخ ولادته ووفاته ونتف من شعره ونثره .

ولم يقلل من عزمى صعوبة جمع مادته وتفرقها فى المصادر المختلفة وخاصـة المخطوط منهـا ، بل ذلك مادفعنى أكثر للمضى فى دراسة هذا الموضـوع .. لأنى الرجل الذى ساهم فى اغناء تراثنا .. بعض حقه من الوفاء ، وقد ظننت -

---

(١) مجلة الأزهر جزء ٣ السنة الرابعة والثلاثون .

ـعند ما بدأت البحث ـ أن المصادر التى يمكن الرجوع اليها فى هذا الموضـــوع قلية ومتنوعة عن حياة الخوارزمى وأدبه لما طار له من الشهرة والذكر.

ولكنى حين رجوعى لتلك المصادر لم أفز بكثير من التفاصيل التى توضـــح ماغمض من حياتـه وماضاع من أدبه . فأكثرها يكتفى بذكر اسمه ، ونســـبه وشهرته وشيء من أبياته السـائرة .

وأكثر من كتب عنه هو تلميذه الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر الذى أمدنـــى بطائفة من شعره ، ولكنه بخل علينا فى ترجمته لحياته بالمعلومات الوافية عنهـــا فقد اقتصر على معلومات لاتغنى الباحث كثيرا مع أن كل من ترجم للخوارزمى يستمد كل معلوماته منها . .

وقد تناولت بعض المراجع الحديثة حياة الخوارزمى وأدبه ولكن أكثرهـــا أوكلها قام على تكرار ماذكره السابقون ، وقد أهملت تلك المراجع مؤلفات الخوارزمى وبعضها أضاف اليه كتبا ليست له وأغفل ماهو له .

وكأن الظلم الذى لحق الخوارزمى فى حياته لا زال يلاحقه بعد مماته بتجاهلـه واهمال أدبه . وقد اقتضتنى طبيعة البحث أن أجعل له تمهيدا عن نشوء الأوطان السياسية فى العصر العباسى الثانى ، وذلك أن التجزء الذى أصاب الخلافـــة الاسلامية فى القرن الرابع ، كان له أثره على مسار الأدب وازدهاره كما كان لـه أثره فى تعدد مراكز الثقافة فى البلاد الاسلامية فى هذا العصر.

وقد كان الخوارزمى كثير التجوال بين تلك المراكز ، كثير الاحتكاك ، والصدام ـأحيانا ـ مع وزرائها وولاة الأمر فيها . ولم أغفل الحالتين الاجتماعية والاقتصادية من حيث أن نتاج الأديب هو ثمرة التفاعل بينه وبين بيئته ومجتمعه .

وجعلت للبحث ثلاثة أبواب :

عقدت الباب الأول - الذى يعتبر تمهيدا للأبواب الأخرى - للحديث عن عصره الأدبى وقسمته الى فصلين تناولت فى الفصل الأول بيئات الأدب فى عصره ، واقتصرت فى حديثى منهـا على بيئة فارس وخراسان ، وبيئة العراق ، وبيئة الشام ، حيث اقتصرت رحلات الخوارزمى على تلك البيئات .

وأفردت الفصل الثانى لظاهرة المناظرات العلمية والأدبية فى العصر العباسى الثانى ، حيث كانت تلك المناظرات سمة العصر البارزة التى عمت شتى العلوم . ولأن الخوارزمى يعد علما من أعلامها .. وقد كانت نهاية حياته نتيجة لغلبة أحد خصومه عليه فى احدى تلك المناظرات ، وقد اقتضانى بحثى فى هذه الظاهرة التى لم يعالجها أحد من الدارسين أن أبين جذورها من العصر الجاهلى وصورا بالعصر الاسلامى وما بعده .

وتناولت فى الباب الثانى حياته العامة ، وقسمته الى فصلين .. درست فى الفصل الأول أصله ونسبه ومولده ووطنه ووفاته ، وثقافته وأساتذته وتلاميذه .

واستعرضت فى الفصل الثانى :

رحلاته الأدبية ، وصلاته بالأمراء والوزراء والكتاب فى مختلف الأقاليم .

أما الباب الثالث ، وهو بيت القصيد فجعلته لدراسة أدبه وأسلوبه ، وقسمته خمسة فصول .

تناولت فى الفصل الأول :

مصادر أدبه المطبوع منها والمخطوط .

وجعلت الفصل الثانى لدراسة نثره من خلال رسائله الموجودة فى ديوانه .

ولم يفتنى أن أشفعها بتلك الرسائل التى عثرت عليها مما لم يحوه الديوان .. ومقدمة كتابه الأمثال التى هى بمثقال أشبه .

كذلك شفعتها بالمناظرة التى دارت بينه وبين بديع الزمان ثم ختمت الفصل بخصائص نثره الفنية ومدرسته الأدبية .

أما الفصل الثالث ، فقد أفردته لشعره بأغراضه المختلفة وخصائصه الفنية . وإذ كان له نظرات فى النقد فقد أفردت لها الفصل الرابع .

وأخيرا أبرزت مكانته الأدبية من خلال موازنته بغيره من أدباء عصره فى الفصل الخامس والأخير ، وفى الخاتمة لخصت مادرسته فى هذه الأبواب والفصول . وقد عولت فى دراستى هذه .. على رسائله ومقدمة كتابه الأمثال ، وغيرهما من آثاره الأدبية .

كما استقيت الكثير من شعره ونظراته فى النقد من كتب الثعالبى المخطوط منها والمطبوع ، كما أمدتنى المخطوطات الأخرى بطائفة من منظومه ومنثوره ككتاب العتبى ومخطوطة رسائل بديع الزمان وغيرها ، وقد اقتضانى البحث عن مؤلفات الخوارزمى والتحقق من نسبتها اليه الجهد الكثير ... فقد طوفت فى كثير من البلدان للبحث عن كتبه المخطوطة .. وبخاصة ماذكره بروكلمان من وجود مقامات له فى مكتبة بايزيد بتركيا .. وقد تبين لي أن تلك المقامات هي مقامات بديع الزمان .

كما تبين لى أيضا أن كتاب الأمثال المولدة المنسوب للثعالبى هو للخوارزمى كما استطعت الكشف عن أسماء بعض كتبه المفقودة والتى لم يشر اليها أحد ممن ترجم له كشرح ديوان المتنبى وكتاب الأنساب .. ورجحت أن بعض الكتب التى لا تزال مخطوطة ومنسوبة للثعالبى هي للخوارزمى .

وبدراستى لجوانب حياة الخوارزمى وجمع شتات أدبه من مظانه وتتبعى لمؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمفقودة ونفي ماانتسب اليه من كتب غيره .. أرجو أن أكون بذلك كله قد وفيت الرجل بعض حقه وخرجت بدراسة عنه ان كنت لا أدعى لها

الكمال ، فانى أرجو أن تكون قارئتـــه - اذ الكمال لله وحـــده - .

وبعد ، فان من حق الوفاء عليّ أن أذكر لأســتاذى الدكتور محمد نبيـــه حجـاب مابذله فى ســبيل انجاح هذا الموضوع من جهد وتعب كبيرين .. كمـــا أرجو أن تغنى كلمة الشــكر زميلى الفاضل عبدالرحمن العثيمين لما قدمه لي مـــن عـــون كريم .

أســأل الله التوفيق والســـداد .. هو مولاى عليه توكلت واليه أنيب .،،

=======

XXXXX

*

تمهيـــــد

" نشأة الأوطان السياسية في العصر العباسي الثاني "

ولد أبو بكر الخوارزمي ونشـأ في عصر عرف في التاريخ (بعصر الدويـــلات) ويعنون به العصر الذى انفصل فيه كثـير من الأقاليم والنواحى عن الدولة الاسلاميـة ولم يعد يربطهم بخليفة بغداد سـوى التبعية الاسمية ، فكل دولة رئيسها وجيشها وخزانتها الماليـة المستقلة عن الدولة .

ولعل من متطلبات البحث ، بل من تمامه وكماله أن ألقى بعض الضوء على نشـأة هذه الأوطـان السياسـية . . . وذلك ان الخوارزمي -أديب نيسابور- كان دائم الترحال ، تارة في طلـب العلم ، وطورا في طلب العطاء . . متوخيا في ذلك الايجـاز ما أمكن . .

اتسعت الفتوحات الاسلامية شرقا وغربا ، وبلغت أقصى اتساعها في القرن الثاني الهجـرى . . وقد اكتسـحت هذه الفتوح أكبر امبراطوريتين عرفتا في التاريـــخ القديم ، هما امبراطورية فارس وامبراطورية الروم ، فضمت بذلك مناطق كثيرة الى جسم الدولة الاسلامية ، فدخل الناس في دين الله أفواجا من كل الأجنـــاس ، وكلها تدين بدين واحد هو الاسلام ، وتأتمر بأمر خليفة واحد هو خليفة رســول الله صلى الله عليه وسـلم ، فتوحد شعور هذه الأجناس وأصبحوا كأنهم اخـوة في أسـرة واحدة ، لايفرق بينهم الجنس ولا يميّز بينهم اللون ، بفضل تعاليـم الدين الاسلامي الحق ، واستطاعت الحضـارة الاسلامية خلال تلك القـــرون ان تنتظم عدة ثقافات فارسـية ويونانية وهندية وتهضمها وتتمثلها . . وتطبعهـا بطابـع اسلامي يصلح لكل من ينتمي للاسلام ،

كل ذلك بسـبب ما أودعه الله في هذا الدين الكريـم من صفـات العموم التي تصلح لكل زمان ومكان .

وبقيت الدولة الاسلامية قوية متماسكة حتى جاء العباسيون - ومجيؤهم في الواقع كان بفضل الخراسانيين - فبدأ العباسيون يعتمدون على الفرس دون العرب - اعترافا بفضلهم عليهم ... ومن ثم أخذ النفوذ الفارسي يتزايد في البلاط العباسي ، والواقع أن هذا النفوذ كان ضعيفا أمام حزم الخلفاء الأقوياء . وحين حاول البرامكة أن يقيموا دولة داخل الدولة بطش بهم الرشيد بطشته المشهورة فلم تقم لهم بعدها قائمة .. ثم استعاد الفرس بعض نفوذهم بعد أن انتصروا للمأمون على أخيه الأمين .. وذلك أنهم أخواله .

ولما ولي المعتصم - وأمه تركية - أو جس منهم خيفة فاعتمد على الترك ، فأخذ نفوذ هؤلاء الأتراك يزداد يوما بعد يوم ، في حين كان نفوذ الفرس يتراجع الى الوراء ، وظهر نفوذ الأتراك قويا منذ عهد المتوكل = ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ، فاستبدوا بأمور الدولة وطغى سلطانهم على سلطان الخليفة وانتهى بهم الأمر أن تآمروا على المتوكل وقتلوه سنة ٢٤٧ هـ .(١)

والحقيقة أن الخلفاء أنفسهم ضعفوا منذ هذا العهد ومالوا الى الدعة .. وضعف الدين في نفوسهم فرفهوا في الملذات وأحاطوا أنفسهم بعشرات الآلاف من الخدم والجواري والخصيان وجعلوا من الدنيا جنة لهم .(٢)

وظل الأمر للأتراك ، والحال تزيد سوءا والخلافة تفقد هيبتها في نفوس الناس(٣) حتى كر الفرس عليها ثانية بعد أن رأوا ما آلت اليه البلاد من فوضى ، فاقتحم

---

(١) أنظر تاريخ أبي الفداء ٢/ ١٧ وما بعدها ، وانظر كثيرا من التفاصيل في ذلك معالم الشعر وأعلامه ص ٨ وما بعدها .
(٢) أنظر ما يرويه أبو الفداء في ذلك في تاريخه ٦ / ٧٣ وما بعدها .
(٣) أنظر تفصيل أدوار الضعف الذي مرت به الخلافة . نفس المرجع ٦ / ٧٨ وما بعدها .

البويهيون بغداد سنة ٣٣٤هـ ، وكان ذلك بداية انحسار النفوذ التركي وبدء عصر عباسي جديد هو عصر الدويلات . فرغم أن الدولة العباسية بدأ التفكك فيها قبل مجيء البويهيين لبغداد فان مجيء البويهيين قضى على البقية الباقية وأحدث في الخلافة مالم يسبق به .

فباستيلائهم على بغداد بدأ طور جديد من أطوار ضعف الخلافة العباسية ، يقول ابن الأثير : " وازداد أمر الخلافة ادبارا ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة ، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشيء ، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، انما كان له كاتب يدبر اقطاعه وكانت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد " (١)

وقد آلت الخلافة في عهد بني بويه الى حال جعل العلويين الذين أفنوا شبابهم وشيوخهم في سبيل الحصول عليها ، يزهدون فيها على لسان الشريف الرضي الذي يقول : (٢)

أمسيت أرحم من عَرٍ كنت أغبطه * يا قرب ماعاد بالضراء يبكيني

هيهات أعثر بالسلطان ثانية * قد ضل عندي والاج السلاطين

---

(١) أنظر الكامل ٦/٣١٥ . ويقول ابن الأثير ان ماجعل البويهيين يسيئون معاملة الخلفاء هو تعصبهم للشيعة حتى فكر معز الدولة في اخراج الخلافة منهم والبيعة لأحد العلويين أو للمعز لدين الله الفاطمي . ويعتبر معز الدولة هذا أول من ابتدع النياحة واللطم والضرب على الحسين في ١٠/ محرم ٣٥٢ هـ كما يعد أول من ابتدع عيد غدير خم الذي صار سنة عند الشيعة من بعده الى غير ذلك من البدع . أنظر الكامل ٨/٥٤٩ وأبي الفداء ٦/١١٠ .

(٢) انظر الكامل ٨/٤٥٤ .

هذا ما كان من أمر الخلفاء ، أما الخلافة فقد تجزأت الى اثنتى عشرة ولاية [1] . على أن هذه الدويلات على كثرتها لم تكن على وفاق فيما بينها ، بل كانت دائما فى حروب مستمرة ، ونحن نعرف مايجره التفكك والحروب الداخلية والفتن من بلاء وفساد واضطراب فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فضعفت بذلك هذه الدويلات وطمع فيهم الروم واستطاعوا أن يصلوا الى الجزيرة والرها ونصيبين يقتلون وينهبون ولا يجدون أية مقاومة . [2]

ونتج عن هذا الصراع المستمر أن اضمحت دول واحتلت مكانها دول أقوى منها حتى تركزت القوة فى الشرق فى خمس دول هي :

(١) البويهيون - ٣٢٠ - ٤٤٧هـ

(٢) الحمدانيون - ٣١٧ - ٣٩٤ هـ

(٣) الغزنويون - ٣٥١ - ٥٨٢ هـ

(٤) الزياريون - ٣١٦ - ٤٣٤ هـ

(٥) السامانيون - ٢٦١ - ٣٨٩ هـ [3]

وصور لنا أبو الفداء الحالة الاقتصادية والاجتماعية ابان هذه الحروب بين تلك الدويلات تصويرا تقشعر منه النفوس . وقد يكون فيه مبالغة ولكن يكفى أن يكون فيه شيء من الصحة ليكون عبرة وصورة مؤلمة ومرهبة فى آن واحد ، فهو يقول : " ان القوت عدم ببغداد سنة ٣٣٥ هـ ابان الحرب بين البويهيين والحمدانيين حتى أكل الناس بعضهم " [4] . ويقول ابن الاثير عن سنة ٣٣٤هـ : " فيها اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة والكلاب والسنانير وأخذ بعضهم وصبه صبي قد شواه

---

(١) أنظر تفصيل ذلك فى أبى الفداء ٦ / ٩٠ وما بعدها .
(٢) أنظر الكامل ٧ / ٤٥ وأبو الفداء ٢ / ١١٨ .
(٣) أنظر مزيدا من التفصيل عن الدويلات المشرقية فى كتاب (الدويلات الاسلامية فى المشرق).
(٤) أنظر أبى الفداء ٦ / ١٠١ .

ليأكله . . . وعم فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى وبيعت الدور والعقار بالبيض " . (١)

واستعرت الفتن بين المذاهب الدينية ، كما ظهرت مذاهب جديدة كلها من المذاهب الغالية في التشيع ، (٢) وظهرت عصابات المكدين والشطار واللصوص، ودب الفساد حتى الى القضاء فقد ضمن مقابل مال يدفعه القاضي للوالي ثم ضمنت بعده الشرطة والحسبة . (٣)

وجار حكام هذه الدويلات على شعوبهم وفرضوا عليهم الضرائب الباهظة ، وكانوا يصادرون أموال التجار اذا احتاجوا للمال ، وأصبح الانسان لا يأمن على نفسه أو ماله ، فتغيرت المفاهيم واختلفت القيم ، واهتز الذوق العام .

وعلى الرغم من ذلك كله فان الأدب لاقى رواجا ، وسوقا نافقة في هذه الدول المتنافسة ، فقد جر هذا التنافس الى الاكثار من الأدباء حول هؤلاء الحكام ، فقد جرت العادة انهم كانوا يسندون الوزارة الا الى رجل كفيء تتوفر فيه القدرة الأدبية . . كما كان من أمر المهلبي ، وابن العميد والصاحب ، وهؤلاء الوزراء الأدباء ، أحبوا الأدب وأكرموا الأدباء . . غير أن هذا الرواج للأدب والعناية به وكثرة المشتغلين به لم تنتج لنا أدبا رفيعا يوازي ذلك الرواج وتلك العناية . اذ ان الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بالأدباء تلك الفترة ظهر أثرها على نتاجهم فخرج معظمه عن رسالته وأصبح أدبا نفعيا يطلب به الأديب النوال والشهرة والمكانة لدى الولاة والوزراء ، ووظف في خدمة السلاطين والوزراء ، والدعاية لهم وتسليمتهم .

---

(١) الكامل ٨/٤٦٥ .
(٢) نفس المرجع ٨/ ٢٩٠ .
(٣) نفس المرجع ٨/٥٣٦ وأبي الفداء ٦/١٠٨ .

ليأكله . . . وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى وبيعت الدور والعقار بالخبز " .(١)

واستعرت الفتن بين المذاهب الدينية ، كما ظهرت مذاهب جديدة كلها من المذاهب الغالية في التشيع ،(٢) وظهرت عصابات المكدين والشطار واللصوص، ودب الفساد حتى الى القضاء فقد ضمن مقابل مال يدفعه القاضي للوالي ثم ضمنتا بعده الشرطة والحسبة .(٣)

وجار حكام هذه الدويلات على شعوبهم وفرضوا عليهم الضرائب الباهضة ، وكانوا يصادرون أموال التجار اذا احتاجوا للمال ، وأصبح الانسان لا يأمن على نفسه أو ماله ، فتغيرت المفاهيم واختلفت القيم ، واهتز الذوق العام .

وعلى الرغم من ذلك كله فان الأدب لاقى رواجا ، وسوقا نافقة في هذه الدول المتنافسة ، فقد جر هذا التنافس الى الاكثار من الأدباء حول هؤلاء الحكام ، فقد جرت العادة انهم كانوا لا يسندون الوزارة الا الى رجل كفء تتوفر فيه القدرة الأدبية . . كما كان من أمر المهلبي ، وابن العميد والصاحب ، وهؤلاء الوزراء الأدباء ، أحبوا الأدب وأكرموا الأدباء . . غير أن الرواج للأدب والعناية به وكثرة المشتغلين به لم تنتج لنا أدبا رفيعا يوازي ذلك الرواج وتلك العناية . اذ ان الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بهؤلاء الأدباء تلك الفترة ظهر أثرها على انتاجهم فخرج معظمه عن رسالته وأصبح أدبا نفعيا يطلب به الأديب النوال والشهرة والمكانة لدى الولاة والوزراء ، ووظف في خدمة السلاطين والوزراء ، والدعاية لهم وتسليتهم .

---

(١) الكامل ٨/٤٦٥ .
(٢) نفس المرجع ٨/٢٩٠ .
(٣) نفس المرجع ٨/٥٣٦ وأبي الفداء ٦/١٠٨ .

وتجاهل الأدباء أو معظمهم الاصلاح والجد فى القول .. وقل من جد من أدباء الدويلات المشرقية .. فرغم أن حضرة الصاحب كانت تنافس حضرة سيف الدولة - وقد انتقل كثير ممن كان يعيش فى بلاط سيف الدولة الحمدانى الى الصاحب بعد وفاة سيف الدولة - رغم ذلك - فان البون شاسع بين انتاج البيئتين .

فاننا نفتقد فى أدب البيئة الفارسية الاصالة والابتكار والفكر العميق الهادف فى أغلبه . والسبب كما يبدو هو أن معظم هؤلاء الأدباء ان لم - يكونوا كلهم - محترفون للأدب يطلبون به الرزق والمكانة فى مجتمع تكاد استقامة الخلق فيه تكون نادرة . مع افتقادهم لحرية الرأى والاستقلال الفكرى الذين لا يمكن أن يزدهر الأدب الا فى ظلهما . أضف الى ذلك أن حكام هذه الدويلات كلهم من العجم الذين ينقصهم الذوق العربى الخالص للأدب والفهم الصحيح له اذا قيسوا بالحكام العرب ... وهمّ أولئك الحكام العجم - من الأدب - ينحصر فى الاشادة بمآثرهم وأمجادهم ليفاخروا بها منافسيهم . ومن ناحية أخرى وجهوا الأدباء للأدب الفكاهى الذى يدخل عليهم البهجة والسرور حتى وان كان فيه ما يخدش الخلق ويفسد الذوق .

******
***
*

الباب الأول

عصره الأدبي

الفصـــل الأول

بيئات الأدب في عصـــــره

تعددت بيئات الأدب في القرن الرابع الهجري تبعا لتعدد الدويـــلات الاسلامية التي انفصلت عن الخلافة العباسية الأم كليا أو جزئيا - كما مر معنا - فلم تعد بغداد وحدها حاضرة العالم الاسلامي في هذا القرن .. ولم يبق في مقدورها أن تحتكر الأدباء والعلماء كما كان الأمر أيام الخلفاء الأقوياء من بني العباس .. بل نافستها في هذا الفضل والمكانة مراكز ثقافية أخرى ، في مواطن اسلامية كثيرة .. وبعضها زاد عليها في هذا المجال .

فهناك حلب ، وقرطبة ، والقاهرة ، وأصبهان ، والري ، وبخارى وشيراز وغزنة وغيرها .

وسوف أتناول تلك البيئات التي تردد عليها الخوارزمي واستقى ثقافته وعلمه منهـا ، وكان انتاجه من نبتها ، وأعني بها :

أ) بيئة فارس وخراسان .

ب) بيئة العراق .

جـ) بيئة الشام .

أ - <u>بيئة فارس وخراسان :</u>

كثرت مراكز الثقافة في هذه البلاد الفارسية ، أمثال : حضرة الصاحب في أرجان والري وأصبهان ، وعضد الدولة (فناخسرو) في شيراز ، .. والسامانيين في بخارى وابن العميد وزير ركن الدولة في الجبل .. وهناك سجستان ، وغزنة وهمذان وكلها في هذه الفترة أصبحت تعج بالأدباء والعلماء في كل فن والتنافس قائم بينها على أشده .. فهذه حضرة الصاحب

"لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس مفطرة فيها " [1] ، وأكثر من يؤمها هم الفضلاء والأدباء والعلماء . يقول الخوارزمى عنها : " مجمع الرجال ومثابة العطاء وملقى الرحال وموسم الشعراء ، وقرارة ينصب اليها العلم والأدب ، وقبلة يهوى اليها العجم والعرب . . . فقد نفضت اليه البلاد رجالها ، وأبرزت له حجالها ، وألقت له الأرض أفلاذ كبدها ، وحسبك بالفلاء جالبا ، وبالاحسان جاذبا . . وقد رأيت بهذه الحضرة أقواما كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ، ومنهل الصبا عذب وعود الشباب رطب . . . فلما رأيتهم قد هاجروا الى هذه الحضرة وجعلوها من بين الدنيا هجرة ، علمت أن الكرم يتوارث بين الكرام ، وأنه انحدر الى أصفهان من الشام . . . وأن المغرب لسيف الدولة بن حمدان وأن المشرق لحضرة الوزير أيده الله . . " . [2] .

وقد قيل ان الصاحب امتدحه من الشعراء ما أربى على شعراء الرشيد . [3] وقيل : مدحه بخمسمائة شاعر من أرباب الدواوين . . [4] ويقول هو عن نفسه : " مدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية " [5] وكانت كتبه لا يحملها أربعمائة جمل " . [6]

وقل مثل هذا عن ابن العميد ٣٦٠ وابن ميكال ، وابن ووشمكير ٤٠٣ وغيرهم فلم ترج للأدب والعلم سوق كما راجت فى بلاد فارس فى هذه الفترة فكان من أدبائها

---

(١) اليتيمة ٣/١٩٧

(٢) رسائل الخوارزمى ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) انظر احكام صنعة الكلام ص ١١٦ وانظر اليتيمة ١/١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) معجم الأدباء ٦/٢٥٧ .

(٥) بغية الوعاة ١/٤٥٠ .

(٦) اليتيمة ٣/١٩٧ .

أبو الحسن الصنوبرى ٣٣٤ ، وأبو بكر الخوارزمى ٣٨٣ ، والمأمونى ٣٨٣ ، والصاحب ٣٨٥ ، والبيرونى " الفلكى المنجم " وأحمد بن فورجة الرزبانى [1] ٣٨٨ ، وابن فارس اللغوى ٣٩٥ ، وبديع الزمان الهمدانى ٣٩٨ ، وأبو الفتح البستى ٤٠٠ هـ ، وأبو العباس أحمد بن ابراهيم الضبى ، وأبو سعيد الرستمى ، وأبو القاسم ابن العلاء ، وأبو محمد الخازن ، وأبو العلاء الأسدى ، وأبو الحسن البديهى ، وأبو القاسم الزعفرانى والمتنبى ، وبنو ميكال .. وغيرهم .

وقد ذكر لنا الثعالبى بعض أدباء هذه المناطق فملأ بهم الصفحات فقد ذكر لنا ٣٨ شاعرا من شعراء السامانيين ، و ٢١ من شعراء نيسابور ، و ٨ من شعراء سجستان و ٦ من شعراء خوارزم غير الطارئين عليها - وغير العلماء واللغويين والرياضيين .. وغيرهم مما حدا بأحد المعاصرين أن يصف الأدب فى هذه الفترة .. بأنه وصل الى مايشبه حد الكمال ، وأن أدباء هذا القرن أنشط أدبا من سابقيهم وأن شعراءه وكتابه أكثر نبوغا وأعظم ادراكا لمسائل الشعر والكتابة من نظرائهم فى القرون السابقة . [2]

وأخذ وزراء دويلات المشرق يكاثرون بعضهم بما فى مجالسهم ومنتدياتهم من الأدباء والشعراء واللغويين والعلماء ، ويفاخرون بما تحويه خزائنهم من الكتب ، بل أخذوا يشجعون الأدباء على تأليف الكتب باسمهم لكي تهدى اليهم ، وتتحدث عن مآثرهم وأمجادهم ، فقد ألف الصابى كتابه (المفقود) التاجى لعضد الدولة وألف ابن فارس ٣٩٥هـ كتابه " الصاحبى " للصاحب ابن عباد وألف المتنبى كتابه " اليمينى " ليمين الدولة ابن سبكتكين . ورغم كل هذا الاهتمام

---

(١) ولد ابن فورجه سنة ٣٣٠ وله كتابان فى الرد على ابن جنى فى شرحه لديوان .. المتنبى أحدهما التجنى على ابن جنى (مخطوط بالاسكوريال) والآخر الفتح على أبى الفتح .

(٢) أنظر كتاب : بديع الزمان الهمدانى رائد القصة ص ٢٣٠ .

بالأدب وكثرة الانتاج فاننا نلاحظ أن أولئك الحكام من بنى بويه وغيرهم من الحكام .. والوزراء - فى الغالب - لم يكن هدفهم من ذلك سوى التباهى والمنافسة حتى صار ذلك تقليدا ، ومن مكملات الجاه والشهرة .. فتزودوا من انتاج هؤلاء الأدباء للتفكه والتسلية ، والتظرف والتعمر بهم مجالس الشرب والمنادمة ، كما أصبح تقدير الأدب فى عصرهم ليس لذات الأدب .. وانما لوجاهة قائله يقول الثعالبى : " فان وقع خلال ما أكتبه البيت والبيتان - مما ليس من أبيات القصائد ووسائط القلائد - فلأن الكلام معقود به ... أو لأنه شعر ملك أو أمير أو وزير أو رئيس خطير ، أو امام من أهل الأدب والعلم كبير ، وانما ينفق مثل ذلك بالانتساب الى قائله لا بكثرة طائله :

وخير الشعر أكرمه رجالا * وشر الشعر ما قال الغلام (١)

ولأن هذا رأى مؤلفي العصر ورغبة الأمراء والوزراء .. وجدنا أن جل أدب هذه الفترة فى شرقي الدولة الاسلامية يخدم هذه الأغراض . ففى الشعر نجد الشعراء يمدحون حكامهم بما يشبه التقديس ، ويفرقون فى المجون والغزل الشاذ ووصف الخمر وستاتها أو يصرفون شعرهم فى وصف توافه الأشياء ، ولا نجد هم يطرقون المواضيع الجادة أو يعالجون الأهداف السامية أو يصفون الطبيعة وصفا موحيا أو يعبرون عن العواطف الراقية .. الا نادرا . حتى ليكاد القارئ لجل أدبهم يفتقد العاطفة والصدق فيما يقولون . فهذا الثعالبى مؤرخ أدب تلك الفترة يجمع لنا فى كتابه " يتيمة الدهر " ما هو أكبر شاهد على نوعية انتاجهم وطريقتهم .. ومن الناحية الفنية نرى أن هؤلاء الأدباء قصروا فى اللحاق بأدباء بقية الأمصار فى هذه الفترة ناهيك بما قبلها من الفترات .. ومع كل هذا فأرى أن بين هذا الانتاج الغزير انتاجا جيدا يستحق الدرس

---

(١) اليتيمة ١/ ٢٠

والكشـــف عنه وان قل .. أو كان مبثوثا فى خضـم ذلك الانتاج الزاخـــر .. وأن بين أدبائه فحولا لا نهضمهم حقهم .. وقد يكون الثعالبى جمع فى يتيمتـــه من شعرهم مايلائم ذوق عصره ويرضـــى ذوق ولاة الأمر فى زمانه من الاعاجـــم .. فى حين أن لهم شـــعرا وأدبا مبثوثا فى كتب التراث أسمى وأعف ســـا يطا لسمنا فى اليتيمـــة ، ولكننـــا نلاحظ ظاهرة تجعلنا نتريث فى اصـــدار أحكامنا على هؤلاء الأدباء هي أن أغلبهم فى ذلك الزمان ليســس له وطن فكـــانوا يطوفون فى البلاد ويقيمون بكل مكان ، فتارة فى حلب وأخـــرى فى بغداد ومـــرة فى أصفهـــان وأخرى فى بخارى كالخوارزمى فهو كالنحلة التى تدور على كـــل الأشـــجار وتقع على كل زهرة ومن كان هذا حاله فلاشك انه اكتســـب دربـــة وثقافـــة متنوعة ... اذ لم يعترف بحدود للأدب كما اعترف الناس بحـــدود الدويـــلات ، بالرغم من أن الوزراء والولاة كانوا يمارسون بعض الضغوط مع كبـــار الأدباء ليحتفظوا بهـــم ولئلا ينتقلوا الى منافسيهم .. مرة بهذل المال والملاينـــة ومرة بالشـــدة والتهديد .(١)

بيئة العراق :

لم يكن هناك عاصمة ثقافيـــة تنافس بغداد فى الأدب وشـــتى فـــروع العلـــم قبل تجزء وتفكك دولة العباســـيين فى القرن الرابع الهجـــرى - فقد كانت قبـــل ذلك هي العاصمـــة الكبرى للخلافـــة العباســـية ، وكان طلاب العلم والمـــال والشـــهرة يفدون اليها من كل حدب وصوب ، وطبيعى والحال هذه أن يكون لها ذخـــيرة كبيرة من الكتب مابين مترجمة ومؤلفة تمد طلاب العلم بما يريـــدون ومكتبة

---

(١) أنظر شكوى الخوارزمى من مثل هذه الضغوط فى رسائله ص ٧ ، ص ١٩ ، ص ٧٤ .

" **بيت الحكمة** " أشهر من أن تعرف " والحديث عن مكانة بغداد الثقافية والعلمية ، ومن أشتهر فيها من الأدباء - منذ نشأتها حتى عصر الخوارزمي- يطول والذى يهمنا هنا هو حال هذه العاصمة فى هذه الفترة .. أعنى القرن الرابع الهجرى .. وهو القرن الذى أصبحت فيه بغداد واحدة من آحاد . بعد أن تعددت العواصم الثقافية وكل منها يناصيها فى المجد ، وينافسها فى الشهرة والأدب ولأن الأدب يدور مع الحكام حيث كانوا لم تسعد بغداد .. وخاصة منذ استيلاء البويهيين عليها سنة ٣٣٤ أهم المراكز الثقافية فى العالم الاسلامى ، فقد قل النشاط الثقافى والأدبى فيها .. ذلك أن الأدباء والعلماء توزعتهم حواضر العالم الاسلامى ووجدوا من الأمراء والوزراء والحكام من يقدرهم ويفهمهم أكثر من أمراء آل بويه .

أما الخلفاء فقد مر معنا أنهم وصلوا الى حالة لم يعد للشعراء فيهم مطمع .. وهذا لايعنى أن بغداد خاصة والعراق عامة فقدت مكانتها الأدبية نهائيا وخلت من الأدباء والعلماء ... بل ان حركة التأليف كانت الى حد ما نشطة فيها . ذلك أن الأدباء والعلماء حينما رأوا ما حل بالدولة من .. التجزء والانقسام وما نتج عن ذلك من اضطراب وتأسى وفتن ، أكبوا على التأليف ووجدوا فيه سلوة لهم على الأقل تنسيهم أو تشغلهم عن واقع العالم الاسلامى المرير .. كما كان من أمر أبى الفرج الأصفهانى حين ألف كتابه " **الأغانى** " وكان بها فى ذلك الوقت من الأدباء أمثال الوزير المهلبى ت ٣٥٢ هـ والشيرازى ت ٣٨٣هـ وابن سمدان ، وسابور ابن أردشير والصابئ ت ٣٨٤ هـ والناقد أبو على محمد بن الحسن الحاتمى ت٣٨٨هـ والقاضى التنوخى ٣٨٤هـ وابن لنكك وأبو عبد الله الحسين بن على النمرى والسيرافى اللغوى ٣٨٦هـ وابن نباتة السعدى والسلامى ٣٩٤ هـ وعبد العزيز بن يوسف والشريف المرتضى ، ويأتى على رأس هؤلاء الشريف الرضى ٤٠٦هـ

الذى نستطيع أن نقول انه الوحيد فى رأينا - الذى بلغ درجة "النبوغ" فى هذه البيئة اذ ذاك ، فقد لحق بمستوى المتنبى وأبى العلاء المعرى وذلك انه حافظ على الجد فى القول .. وله من شرف النسب وعزة النفس مايمنعه من التردى الى المستوى الذى وقع فيه معاصروه من الاشتغال بسفاسف الأمور وصرف شعرهم الى المجون والجهر بالفحش أو مايسمى "بالأدب المكشوف" حتى فقدوا اتزانهم وفسد ذوقهم وأفسدوا غيرهم كابن الحجاج وابن سكرة .. وعلى أية حال فان مسار الأدب ومفهومه وغاياته ومستواه " فى عمومه" قد تغير وخرج من الجد الى الهزل ومن السمو الى التسفل ، وكنا نتوقع من أدباء هذه الفترة - وقد حل بالبلاد مالم يخف على فطنهم من تفكك فى الخلافة وفتن تعج بها الأمة ، (مذهبية أو عصبية أو سياسية) ومن بعد عن التعاليم الاسلامية من حكام ومحكومين وتسلط العدو على الأطراف الاسلامية - كنا نتوقع أن يدرك الأدباء وخاصة الشعراء منهم كل هذا وينفعلوا به وينتجوا أدبا مسئولا يخدم مصالح الأمة ويعيدها الى صوابها ويحيى فيها النزعة الدينية وحب الجهاد ، ويعالج الأمراض الاجتماعية والخلقية التى تفشت فى مجتمعهم .

ولكن حكام المشرق الاسلامى بالرغم من رعاية آل بوية للأدباء والعلماء وبذل العطاء لهم لم يكن اهتمامهم منصبا على جودة مايسمعون وانما كان اهتمامهم أن يكثر الأدباء والشعراء فى مجالسهم للتباهى والتسلية بما يقولون - كما مر بنا - .

بيئة الشام :

لعل الأدب لم يزدهر فى وقت من الأوقات كما ازدهر فى القرن الرابع

بلاد الشـــام وخاصة فى عهد الدولة الحمدانية ٣١٧ - ٣٩٤ هـ ، وقد ظهرت هذه الدولة فى أواخـــر القرن الثالث الهجرى .. وسميت بذلك نسبة لجدهـــا الأعلـــى - حمدان بن حمدون بن الحارث التغلبى - الذى استطاع أن يستولى على قلعه ماردين سنة ٢٧٤هـ ولكن /لم يستطيعوا تكوين دولتهم والاستقلال بها الحمدانيين الا سنـــة ٣١٧هـ فى عهد الخليفة المتقى الذى لقب على بن حمدان والى حلـــب (بسيف الدولـــة) كما لقب أخاه الحسن والى البصرة والموصل (بناصـــــر الدولة) .. ثم اتخذوا حلب حاضرة لهم .. فأخذت تكبر وتعظم حتى أصبحت مسرحـــا كبيرا لفرسان الكلام وأعلام الفكر كما كانت موردا غزيرا وعذبا لأهل العلم والأدب .. وطلاب الجوائـــز والعطايـــا .(١)

وكان سيف الدولة هذا غرة فى جبين الدولة الحمدانية .. جمع بين مجـــد الســـيف والقلم وشغله الجد عن الهزل ولم تترك له الحرب وقتا للهو والعبـــث اللذين كان غارقا فيهما ملوك وأمراء ذلك الوقت وصدق المتنبى حيث قال يقـــارن بينه وبين أمراء عصـــره .

ما الذى عنـــده تدار المنايـــــــا * كالذى عنده تدار الشـــــــمول

فقد كان مثال الأمير العربى الشهم ، الذى يغار على حرمة الدين والبلاد ويبـــذل فى سبيلهما النفس والنفيـــس .. يخوض الحرب بنفسه ويتقدم الصفوف غير هياب .. ولا وجل - فوجد فيه الشعراء المثل الأعلى للأمير الشجاع الفارس ، كما وجـــدوا فيه مثال الفتى العربى الأصيـــل ناهيك بما يتحلى به من الكرم والســـــخاء ...(٢)

---

(١) انظر شواهد ذلك فى اليتيمة ١/ ٣٢ ومابعدها .

(٢) انظر المرجع السابق ١/ ٣٢ - ٣٥ .

فمدحوه بصدق وأجادوا لأن الاجادة مرهونة بالصدق . وكان بالاضافة الى ذلك فصيحا أديبا بليغا ناقدا [١] .. فوجد الأدباء فيه من يفهمهم ويعرف لهم أقدارهم ، فيكافئ على قدر الاحسان والاجادة ، ويميز الغث من السمين من انتاجهم فأموا حضرته والتفوا حول مجلسه وخرجوا معه في سفره حتى قيل : " انه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر " .. [٢] ومن هؤلاء الاعلام ، المتنبي وأبو فراس الحمداني ٣٥٧ هـ والوأواء الدمشقي وابن نباتة والخالديان والسري الرفاء والنامي ٤٠٠ هـ وأبو الفرج البيغاء ٣٩٨ هـ والناشئ والزاهي والخليع الشامي وأبو طالب الرقي وكشاجم وعلي بن دينار . والخوارزمي وابن خالويه ٣٧٢ هـ وابن جني ٣٩٣ هـ وأبو الطيب اللغوي وعلي بن عبد العزيز الجرجاني ٣٩٢ هـ وأبو علي الفارسي وغيرهم ، وهم من هم في تاريخ الأدب واللغة .. فلم تنجب العربية بعددهم وفي وقت واحد ومكان واحد مثل عددهم ولا من وصل الى منزلتهم .

ويلاحظ أن شعراء الشام وما جاورها أشعر من شعراء العراق وما جاورها حتى أن الثعالبي رأى أن هذا ملاحظ أيضا بالنسبة لشعراء الجاهلية والاسلام [٣] " لقربهم من خطط العرب - ولا سيما أهل الحجاز - وبعدهم عن بلاد العجم " [٣] .

والحقيقة أننا نلاحظ هذا الفرق بين الأدبين في عهد سيف الدولة بوضوح .. ولا أدري صحة دعوى الثعالبي من امتداد هذا الحكم منذ العصر الجاهلي .

---

(١) أنظر نفس المرجع ١/٣٥ في نقده للمتنبي والخالدي .
(٢) اليتيمة ١/٢٧ .
(٣) أنظر اليتيمة ١/٢٤ .

وقد فسر الثعالبي بعدهم عن بلاد العجم بأنهم لم يختلطوا بهم ويداخلوهم كما هو الحال مع أهل العراق وما جاورها الذين خالطوا العجم والنبط في أرضهم .(١)

ولعل من أسباب تفوق شعراء الشام على غيرهم من شعراء العراق وما جاورها ماكان بيديه سيف الدولة من شجاعة ومروءة وكرم وما يتمتع به من ملكة أدبية ونقدية لم تكن عند واحد من ولاة ذلك العصر خاصة في البلاد الفارسية ، فقد وقفت الدولة الحمدانية وعلى رأسها سيف الدولة تجابه دولة الروم واستطاعت بمفردها أن توقف زحفهم على بلاد الاسلام وأن تهزمهم في مواطن كثيرة حتى قيل لقد بلغت غزواته للروم أربعين غزوة(٢) ، في حين كان أمراء الدويلات الاخرون - في فارس والعراق ، وعلى رأسهم البويهيون - في صراع دموي مع غيرهم ، ثم عاد التنازع بين البويهيين أنفسهم مما جر على البلاد الخراب والدمار ، واذا لم تفجر مواقف البطولة ، ونشوة النصر للاسلام ينابيع الشعر والأدب فأي شيء آخر يفجرها ؟

فالشعر انما يقوى ويزدهر في مواقف البطولة وساحات الحرب وأمر آخر جعل منزلة شعراء الشام فوق منزلة غيرها من الاقاليم خاصة في عهد سيف الدولة ، ذلكم هو سيف الدولة ذو الشخصية العربية الأصيلة فهو - كما مر بنا - الشاعر الناقد الذي يهزه الأدب الرفيع .. يقول الثعالبي يذكر وجوده في أهل الشام : " ورزقوا ملوكا من آل حمدان وبني ورقاء وهم بقية العرب والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين أدوات السيف والقلم مافيهم الا أديب جواد ، يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه "(٣) .

---

(١) انظر اليتيمة ١/ ٢٤ (٢) انظر نفس المرجع ٢/ ٤٠

(٣) نفس المرجع ١/ ٢٤ - ٢٥ .

وقد يكون تأثير طبيعة أرض الشـــام من أسباب تفوق أدبائها - والأديـــب ابن بيئتـــه - وطبيعة الشام ، وما حباها الله به من جمال أخاذ ، بأنهارهـا الجاريـــة ، ورياضها الغناء الزاهـــرة وأشجارها الباسقـــة وجبالها الشاهقة وهوائها العليـــل ، واعتدال مناخها - حتى عدت من جنان الدنيا الأربـــع - تلك الطبيعة الســـاحرة الجميلة ، ألهمت شـــعراءها المعانى الجميلـــــة ، وأوحـــت اليهم بالأخيلـــة اللطيفة ، وأرهفت حسهم ، ومشاعرهم ، حتى برعوا فى فن الوصـــف خاصة وهيهات أن يباريهم فى هذا المجال سوى الاندلسيـــين لتشـــابه البيئتـــين .. ومع ذلك لم يبلغوا مبلغهم.

=======

××××

**

*

الفصل الثانى

ظاهرة المناظرات

الأدبية والعلمية فى العصر العباسى الثانى

======

***

*

" ظاهرة المناظرات
الأدبية والعلمية في العصر العباسي الثاني "

المناظرات فن من القول يعتمد على قوة الارتجال والمعارضة وسرعة البديهة والصبر على الجدل . كما يعتمد على البرهان والمنطق . . والمتناظران أشبه مايكونان بمتصارعين . . غير أنهما يتصارعان بالحجة والمنطق ويشتركان معهما في الصبر وقوة الاحتمال ومعرفة نقاط الضعف والقوة في الخصم .

وغاية المناظرة هي اظهار الحقيقة . . وغالبا مايحضر مجلس المناظرة حكام يحكمون بالغلبة لأحد الخصمين . . مع أن من أدب المناظرة أن يسلم الخصم لخصمه متى ما ألزمه بالحجة وعجز عن رد ها ، فالحكم بينهما العقل والمنطق والحجة ، فاذا لج أحد هما وكابر ولم يسلم اذا أفحمه خصمه وألجمه الحجة ، فذ لك د ليل على ضجره وجهله وتعصبه . (١)

وهذا الخوارزمي يؤنب أحد تلاميذه حين كابر ولم يسلم لمناظره بعد أن توجهت عليه الحجة : " بلغني أنك ناظرت فلما توجهت عليك الحجة كابرت ولما وضح نير الحق على عنقك ضجرت . . وكنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تمقه وأهيب لحجاب العدل والانصاف من أن تشقه كأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز . وان وجه الظلم مبرقع بالقبح . . وقد عجبت من حسن ظنك بك وأنت انسان والله المستعان " (٢) .

---

(١) أنظر مزيدا من التفصيل عن أدب الجدال في نقد النثر ١٢٨ ومابعد ها .

(٢) أنظر رسائل الخوارزمي ص ٨ .

من أجل هذا لا يصلح لهذا الميدان الا كل قرن واسع الثقافة قوى الحجة قوى المعرفة ، سريع البديهة ، متمرس فى الجدل - عارف باستعمال المنطق - عالم كيف يحاول ويجادل خصمه .. وسلاحه كما قلنا العلم والحجة والبرهان والمنطق السليم وقوة المعارضة وسعة الاطلاع .

ومن هنا نعرف أن الثقافة وحدها لا تكفى لهذا الفن .. فالذى لا يملك قوة المعارضة ، يغلب ولو كان أعلم من خصمه وكذا اذا كان ضجرا قليل الصبر والاحتمال .. فقد تعارف القوم أن الضجر ورفع الصوت دليل على ضياع الحجة وغلبة الخصم ..

وقد أصبح فن المناظرات فى هذا العصر الذى ندرسه علما متكاملا وضع له المعتزلة قواعد وأصولا .. يتعلمونها ويتمرسون بها قبل مقارعة الخصوم .

ولذلك اجادوا هذا العلم واشتهروا به وغلبوا خصومهم ، وهذا لا يعنى أن هذا الفن لم يعرف الا على أيدى المعتزلة ، ولكنه اكتمل بجهودهم ، فقد عرف العرب منذ الجاهلية بشدة الجدل ولهم فى ذلك صولات وجولات لما بينهم من عداوات وثارات وضغائن ، ولما فى طباعهم من حماسة وعصبية وترفع واستعلاء ، ولما عرفوا به من فصاحة وبلاغة ومن مظاهر هذا الفن قبل أن يكتمل المنافرات والمفاخرات ، وهي أن يفتخر كل من المتنازعين على خصمه ويفضل نفسه أو قومه عليه مستدلا بصفات ووقائع يسلم بها خصمه . ثم يحكمون بينهما حكما يفضل أحدهما على الآخر أو يسوّى بينهما وهو ما يفعله الحكم غالبا ، للخروج من عداوة أحد الخصمين .

ومن ذلك أن عامر بن الطفيل العامرى نافر علقمة بن علاثة العامرى حين تنازعا رئاسة القبيلة وهي أشهر المنافرات فى الجاهلية .

قال علقمة : " الرئاسة لجدى الأحوص وانما صارت الى عمك - أبى براء من أجله

وقد استسن عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك وان شئت نافرتك .

فقال عامر : " قد شئت . والله لانا أشرف منك حسبا وأثبت منك نسبا وأطول قصبا ".

فقال علقمة : أنا فرك ، وانى لبرّ وانك لفاجر وانى لولود وانك لعاقر وانى لواف وانك لغادر". فقال عامر :"

انى أنشر منك أمة وأطول قمة وأحسن لمة ، فقال علقمة :

"أنا جميل وأنت قبيح وأنا أولى بالخيرات منك "

فحكما بينهما سفيان بن حرب ثم أبا جهل ابن هشام فاعتذرا خوفا من عداوة أحد الطرفين .

فذهبا الى هرم بن قطيعة بن سنان الغزارى فقبل أن يحكم بينهما فقال فى حكمه : " يابنى جعفر ، أنتما كركبتى البعير تقعان الى الأرض معا وليس فيكما أحد الا وفيه ماليس فى صاحبه وكلاكما سيد كريم " فساوى مخافة استفحال الشر . ولذلك قال حين سأله عمر بن الخطاب : يا هرم أى الرجلين كنت تفضل لو فضلت ؟ فقال : لو فضلت ذلك اليوم عادت جذعة ، ولبلغت شعفات هجر . فقال عمر : نعم مستودع السر أنت يا هرم ، مثل هذا فليسد المشيرة .(١)

ومثلها مادار بين كسرى ووفود العرب اليه وهي محاورات شائقة تدل على بلاغة القوم وقوة عارضتهم (٢) . وكذا منافرة طريف بن العاص الدوسى للحارث ابن ذبيان (٣) . وقد شك زكى مبارك فى المنافرات والخطب المنسوبة للجاهليين وخاصة محاورات وفود العرب فى الجاهلية مع كسرى وحجته أن لغتها أشبه بلغة

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ٤١ .
(٢) انظر العقد الفريد ١/ ١٦٦ وما بعدها .
(٣) انظر الامالى ١/ ٧٢ - ٧٣ .

النثر الاسلامى [١] . . ولما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم لم يسلم له قومه من قريش فأخذوا يجادلونه ويحاجونه ، وهم أهل فصاحة ولسن وهم الذين قال الله فيهم : " بل هم قوم خصمون " . وكثيرا ما كان يؤمن بعضهم عند مناقشته وتوجه الحجة عليه وقصة اسلام عمر مشهورة فى السيرة . [٢]

ومن أقدم المناظرات فى الاسلام ماكان بين الخوارج وعلى بن أبى طالب وبينهم وبين عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - . (فمن مناظرة ابن عباس لهم ماروه صاحب الكامل ، قال لهم عبد الله بن عباس : مالذى نقمتم على أمير المؤمنين؟

قالوا : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكم فى دين الله خرج من الايمان فليتب بعد اقراره بالكفر نعد اليه .

فقال ابن عباس : لاينبغى لمؤمن لم يشب ايمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر.

قالوا : انه قد حكم .

قال : ان الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل : " يحكم به ذوا عدل منكم " . فكيف فى امامة اشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : انه قد حكم عليه فلم يرض . فقال :

ان الحكومة كالامامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما . فقال بعضهم لبعض :

لاتجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم فان هذا من القوم الذين قال الله فيهم : " بل هم قوم خصمون " [٣]

وقد رجع مع على كرم الله وجهه الفان من الخوارج ، بعد مناظرة طويلة له معهم . وهذا دليل على مالقوة حجة المناظر من أثر فى المحاورين

---

(١) أنظر : نشر الفنى ١/ ٤٠ - ٤١ .
(٢) أنظر سيرة ابن هشام ١/ ٩٢ .
(٣) الكامل للمبرد ٢/ ١٠٦ ، ١٠٧ وانظر الاية : سورة الزخرف آية ٥٨ .
(٤) نفس المرجع ٢/ ١١٧ وانظر ماكان يدور فى مجلس معاوية من هذه المناظرات بينه وبين خصومه فى العقد الفريد ١/ ١٩٤ ومابعدها .

وكان لعمر بن عبد العزيز مثل هذا الموقف من الخوارج حين طلب منه شوذب الشيبانى وعاصم أن يلعن أهل بيته ويتبرأ منهم ليتبعوه .. وكان من قوة حجة عمر بن عبد العزيز أن قال عاصم : ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذا من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأننى برئ من خالفك وقال شوذب : " ما أحسن ماقلت وأبين ماوصفت ولكنى أكره أن أفتئت على المسلمين بأمر لاأدرى ما حجتهم فيه حتى أرجع اليهم فلعل عندهم حجة لاأعرفها . فقال له : " أنت أعلم " (١)

وكم كان يدور فى مجالس الخلفاء (معاوية وعبد الملك بن مروان والحجاج الثقفى وغيرهم) من هذه المناظرات والمحاورات (٢) ، ثم جاء العصر العباسى وهو عصر ازدهار العلوم واصطراع الجدل بين الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية فاندلعت المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وأصحاب الديانات المختلفة ويهود ونصارى وصابئة ... الخ . واتخذها المعتزلة منهجا للدفاع عن مذهبهم ومغالبة خصومهم ، وقد نتج عن هذه الحركات علم جديد هو "علم الكلام" الذى كان يعتمد على اجادة فن المناظرات . اذ كانت المناظرة لغة العصر الفكرية . ثم احتدمت المناظرات فى هذا العصر وما تلاه حتى شملت كل جوانب المعرفة .

وألف الجاحظ كتبا مستقلة يمكن أن تدخل تحت فن المناظرات كرسالته " فخر السودان على البيضان " و " مفاخرة الجوارى والغلمان " وكتاب " فخر القحطانية والعدنانية " (٣) وما احتواه كتابه الحيوان " من مناظرات دليل على اتجاه العصر .. فقد استغرقت المناظرة التى بين الجاحظ وابن معبد والنظام فى الكلب والديك وأيهما أفضل أكثر من مجلد من كتاب " الحيوان " .

ناهيك بما كان يدور من مناظرات فى مجالس المعتزلة ومن أعلامهم فيها :

---

(١) أنظر الطالعة المختارة ص ٢٩٥ ومابعدها نقلا عن سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ .

(٢) انظر العقد الفريد ١/١٩٤ ومابعدها . وزهر الآداب ١/٤٦ ، ٢/١١٧ .

(٣) أنظر رسائل الجاحظ ص ٦١ ومابعدها .

أبو الهذيل العلاف .. الذى أفحم ثلاثة آلاف من خصومه ، وكان من أصلب المعتزلة عودا وأقواهم شكيمة فى ميدان المناظرة والجدل ، كما يشهد له بذلك خصمه صالح بن عبد القدوس حينما ناظره فأفحمه .(١)

ومنهم النظام الذى تتلمذ عليه الجاحظ ، وقد بلغ من سعة علمه أنه كان يحفظ القرآن والانجيل والزبور وتفاسيرها ، كما كان يحفظ كتب أرسطو ويناقضها(٢) . ومن أعلامهم ثمامة ابن الاشرس وعلى الجبائى ٣٠٣هـ وهؤلاء هم الذين أقاموا للمناظرات سوقا ، وطبعوا العصر بطابعها ، وقد بلغ من تأثيرهم أن آمن بمذهبهم ، المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، وحاول المأمون أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن .(٣)

وعقد المعتصم مناظرة بين المعتزلة والامام أحمد بن حنبل استمرت ثلاثة أيام حول الموضوع نفسه .(٣) وكانت هذه المناظرات تدور أيضا بين أصحاب المذاهب الفقيه ومنها ماجرى بين أبى المعالى الجوينى ، وأبى اسحاق الشيرازى حول اجبار البكر البالغة، وصحة صلاة من اجتهد فى تعيين القبلة وصلى ثم تبين له خطؤه فى وقتها .(٤)

وكانت مجالس الخلفاء كهارون الرشيد وابنه المأمون وغيرهم مجالا واسعا لهذا الفن .(٥) فكثيرا ماكان يتناظر المبرد ت ٢٨٥هـ وثعلب .. وكان المبرد أقوى حجة وأسرع بديهة من ثعلب ولهذا غلبه فى أكثر من مجلس .. مع أن ثعلب ليس بأقل علما من خصمه ولكن المبرد يغلبه بالمصاولة وقوة الارتجال

---

(١) انظر أدب المعتزلة ص ٢٢٥ .
(٢) انظر نفس المرجع ص ٢٣١ .
(٣) انظر الكشكول ١/٤٤٤ .
(٤) انظر طبقات الشافعية ٣/٢٧٥ - ٢٨٠ .
(٥) انظر معجم الأدباء ١٩/١١٨ وانظر فى هذا تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ص ٤٢٩ . لشوقى ضيف .

يقول الدينوري : " ان ثعلب مذهبه مذهب المعلمين فاذا اجتمعا في محفل حكم للمبرد على الظاهر الى أن يعرف الباطن "(١) ، ولهذا كان المبرد يحب الاجتماع بثعلب وثعلب يكره ذلك .(٢)

ولكثرة ماكان يجرى بينهما من المناظرات وصعوبة ذلك عليهم أصبحا مضرب المثل يقول الشاعر فيهما :

فأبداننا في بلدة والتقاؤنا * عسير كلقيا ثعلب والمبرد(٣)

وقد أراد الزجاج أن يتأر باستاذه ثعلب من المبرد . يقول الزجاج : " لما قدم المبرد بغداد جئت لأناظره وكنت أقرأ على ابي العباس ثعلب فعزمت على اعنائه فلما باحثته ألجمني الحجة وطالبني بالعلة وألزمني الزامات لم أهتد اليها فاستيقنت فضله واسترجحت عقله "(٤) . وكان ثعلب والرياشي يتناظران في النحو وايام العرب والاخبار والاشعار "(٥) .. ويمكننا أن نقول ان هذا الفن شمل حتى المنظوم من القول فيمكن أن ندخل المناقضات في اطاره اذ هي محاورات ومجادلات . بل ان بعض الشعراء تأثر بمدارس المتكلمين وأخذ بمنهجهم كابن الرومي .(٦)

ومن المناظرات المشهورة في هذا العصر مناظرة أبي سعيد السيرافي النحوي ٣٦٨ وأبي بشر متى بن يونس الفيلسوف في مجلس الوزير أبي الفتح . الفضل بن جعفر ابن الفرات سنة ٣٢٠هـ حول المنطق والنحو وأيهما أنفع لبيان صحيح الكلام

---

(١) انظر معجم الأدباء ٥/١٣٧ وتاريخ بغداد ٥/٢٠٨
(٢) انظر معجم الأدباء ١٩/١١٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٩/١١٤ . (٤) انظر نفس المرجع ١٩/١١٧، ١١٨ .
(٥) أنظر نفس المرجع ٥/١٣١ ومابعدها .
(٦) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ص ٥٤٠ شوقي ضيف .

من سقيمه ، وقد كتبها من حضرهما على الألواح لأهميتها . وذلك أن الوزير ابن الفرات رغب أن يقوم من القوم من يرد على الفيلسوف متى ويفحمه حيث رأى أن " لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين الا بما حواه من المنطق " وقد تصدى له السيرافى بعد أن أحجم القوم وقدم تمهيدا بيّن فيه أن غلبة أحدهما لا تعنى ضعفه وقلة محصوله الثقافى ، اذ ان مايتكلم به المتناظر ليس هو كل مايحويه صدره من العلم . وهناك اعتبارات قد تضعف من موقفه ، منها جلال الموقف والهيبة والحياء يقول : " العلم المصون فى الصدور غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصغية والعيون المحدقة والعقول الجامدة والألباب الناقدة ، لأن هذا يستصحب الهيبة والهيبة مكسرة ويجتلب الحياء والحياء مغلبة ، وليس البراز فى معركة غاصة كالصراع فى بقعة خاصة (١) ثم يسأل السيرافى " متى " عن معنى المنطق مايريد به ؟

فيرد متّى : " أن المنطق آلة من الآلات يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان يعرف به الرجحان من النقصان .. فيخطىء السيرافى متى ، " لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالعقل . ويقول له : هبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن من لك بمعرفة الموزون أهو حديد أم ذهب أو نحاس أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيرا الى معرفة جوهر الموزون والى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عدها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك وفى تحقيقه كان اجتهادك الا نفعا يسيرا من وجه واحد وبقيت عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : " حفظت شيئا وضاعت منك أشياء " ... ودع هذا ، اذا كان المنطق وضعه رجل من اليونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها ويتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكما لهم وعليهم ، وقاضيا بينهم ماشهد له قبلوه وما أنكره رفضوه ؟

---

(١) أنظر معجم الأدباء ٨/ ١٩٠ - ٢٢٧ .

فقال متى : انما لزم ذلك لأنّ المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعانى المدركة ويتصفح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس فى المعقولات سواء ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه ؟

قال السيرافى : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع فى شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة الى هذه المرتبة البينة فى أربعة وأربعة أنهما ثمانية، زال الاختلاف وحضر الاتفاق ولكن الأمر ليس هكذا ، ولقد موهت بهذا المثال ولكم عادة فى مثل هذا التمويه . ولكن لندع هذا ، اذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى لا يوصل اليها باللغة . . . أفليس قد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة ؟ "

ثم يعترض السيرافى على متّى أن ترجمة المنطق من اليونانية الى السريانية ثم الى العربية ، قد أفقده بعض حقائقه وحمل غير ما يحتمل خلال هذه الدورة.

فيدافع متّى عن ذلك بقوله : " انهم أصحاب عناية بالحكمة ولولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات."

ثم يميل به السيرافى الى النحو فيحرجه فيه ولكن متّى يعتذر عن اجابته ، لأنه لم ينظر فيه . ولأنه لا حاجة للمنطقى الى النحو ، أما النحوى فمحتاج الى المنطق لأنّ المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ . . والمعنى أشرف من اللفظ ، ثم يكر عليه السيرافى فيمعنته بمسائل نحوية لا يدرك عويصها الا النحاة المتمرسون ، فيبهت متّى وينقطع.

والمناظرة طويلة يمكن الرجوع اليها فى معجم الأدباء [1] وقد كانت الغلبة للسيرافى ولعل ذلك بسبب مناصرة الوزير له . مع أن السيرافى هذا فصيح اللسان قوى المعارضة ، ولذلك تغلب على الفيلسوف أبى الحسن العامرى فى مناظرة جرت

---

(١) أنظر معجم الادباء ٨/ ١٩٠ - ٢٢٧ والعصر العباسى الثانى لشوقى ص٥٣٦ وما بعدها .

بينهما فى النحو فى مجلس ابن العميد سنة ٣٦٤ هـ وشهدها أبو حيان التوحيدى ت ٤١٤ هـ وقد ناصره ابن العميد أيضا ، وقال السيرافى عن هذه المناظرة : " ما ذهبت قط بمثل ماذهبت به اليوم . لقد جرت بينى وبين أبى بشر صاحب كتاب " المنطق " سنة ٣٢٠ هـ فى مجلس ابن الفرات مناظرة كانت هذه أشوس وأشرس منها "[1] وللباقلانى ت سنة ٤٠٣ مع امبراطور الروم باسيليوس (٣٦٥ - ٤١٦) مناظرة لطيفة أوردها محقق كتابه " اعجاز القرآن " فى مقدمته . وكان موفدا من قبل عضد الدولة البويهى . فسأله الامبراطور : هذا الذى تدعونه فى معجزات نبيكم من انشقاق القمر ، كيف هو عندكم ؟

فقال له الباقلانى : هو صحيح عندنا ... حتى رأى الناس ذلك وانما رآه .. الحضور ومن اتفق نظره اليه فى تلك الحال .

فقال الملك : وكيف لم يره جميع الناس ؟

قال : لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره .

فقال : وهذا القمر بينكم وبينه نسبة وقرابة ؟ لأى شىء لم تعرفه الروم وغيرها من .. سائر الناس ، وانما رأيتموه أنتم خاصة ؟

فقال له الباقلانى : " فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة ؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد ، وخاصة يونان جيرانكم ، فانهم كلهم منكرون لهذا الشأن وأنتم رأيتموها دون غيركم . فتحير الملك . ثم تستمر المناظرة على هذا المنوال ولولا الاطالة لأوردتها كاملة لقيمتها[2] . وللباقلانى هذا مناظرة مع سليمان المنطقى جيدة[3] مما يدل على دربته وتجربته فى هذا الفن .

---

(١) معجم الأدباء ٨/٢٣٩ - ٢٣٢ .
(٢) أنظر مقدمة اعجاز القرآن ٣٠ - ٣٧ .

واذا رجعنا الى صميم الأدب يروى لنا البديعى صاحب كتاب " الصبح المنبى " المناظرة المشهورة بين المتنبى والحاتمى ، والتى رواها الحاتمى من طرف واحد ولذلك فهي تشبه مناظرة البديع والخوارزمى من وجوه فكل منهما يظهر صاحبه عيبا ويظهر نفسه فصيحا مفلقا .

وكل من الحاتمى والبديع قدم للمناظرة وهو حاقد يريد أن يثأر لكرامته لأن خصمه ازدراه ولم يقم له اعتبارا ، وكل من الخوارزمى والمتنبى كان له حساد من وجوه القوم الذين حضروا المناظرة يريدون أن يغلب .

فبعد المقدمات الطويلة التى يرويها الحاتمى فى كبرياء المتنبى واعراضه عنه يلتفت أبو الطيب للحاتمى ويسأله عن حاله فيندفع الحاتمى فى الهجوم عليه يستصغره ويحاول أن يحط من قيمته أمام الحضور فى حين يبجل فيه نفسه ويعظمها ثم يبدأ فى نقد بعض أبياته فيقول فى قوله :

اذا كان بعض الناس سيفا لدولة * ففى الناس بوقات لها وطبول

أهكذا اتمدح الملوك ؟ وفى قوله فى هجاء ابن كيغلغ :

واذا أشار محدثا فكأنه * قرد يقهقه أو عجوز تلطم

أما كان لك فى أفانين الهجاء التى تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الذى تنفر منه الأسماع ويمجه كل طبع ؟ ثم يمضى على هذا المنهج حتى يستغرق (٩) أبيات بالنقد واكتفى المتنبى فى رده على نقد الحاتمى :

كما يرويه الحاتمى - بأن استعرض بعض أبياته المشهورة وقال : " أما يكفيك احسانى فى هذه وتغفر عن اساءتى فى تلك ؟" ولكن الحاتمى يعود للسلاح التقليدى لكل من يريد أن ينقد شعره فيتهمه بأنه سرق تلك الأبيات التى استشهد بها المتنبى

على احسانه . . . فيأخذ الحاتمي في تمزيق شعر المتنبي وينسبه لغيره وهو ساكتا لا يتكلم الا كما يتكلم المحكوم عليه بالاعدام ويحاول أن يغير مجرى الحديث فيتجاهل أبا تمام ولكن الحاتمي يثبت انه قرأ ديوانه بدليل سرقاته منه ، ثم ينتهي المطاف بالحاتمي أن يقول عن خصمه :

" فبهره ما أوردته عليه وأمسك عنان عبارته وحبس بنات صدره وعقل عن الاجابة لسانه وكاد أن يشغب لولا ماخاف من عاقبة شغبه ومعرفته بمكاني في تلك الايام "(١) فما زاد على أن قال : أكثرت من أبي تمام فلا قدس الله روح أبي تمام . فقلت : لا قدس الله روح السارق منه الواقع فيه .

ثم قلت : ما الفرق في لغة العرب بين التقديس والقداس والقادس ؟

قال : أي شيء غرضك في هذه المذاكرة بل المهاترة ؟ ثم قال : التقديس : التطهير ولذلك سمي القدس قدسا لاشتماله على الذي يكون فيه الطهور، وكل هذه الاحرف تئول اليه . فقلت له : ما أحسبك أمعنت النظر في كتب اللغة وعلوم العرب ولو تقدم منك مطالعة لها ماجمعت بين معاني هذه الكلمات مع تباينها : لان القداس : حجر يلقى في البئر ليعلم غزارة مافيه من قلته . . . والقداس يشبه الجمان يعمل من الفضة . . . والقادس السفينة . . فلما علوته بالكلام قال : يا هذا اللغة مسلمة لك ! فقلت كيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانينها ؟ وما أجد أولى بأن يسئل عن غريبها منك . وشرع الجماعة يسألونني العفو عنه وقبول عذره ؟ . . . الخ القصة .(٢)

---

(١) في الرسالة الحاتمية " لولا أن هيبة الوزير أبي محمد ملأت قلبه ص ١٩٥ .

(٢) أنظر الصبح المنبي ٧١- ٨٠ ومعجم الادباء ١٨/ ١٥٩ - ١٧٩ ووفيات الاعيان ١/ ٧٢٨ - ٧٣١ . وقد ألف الحاتمي رسالة في هذه المناظرة أسماها " الرسالة الحاتمية " ، وهي تختلف عن ماروه ياقوت وغيره . . اذ أن الحاتمي أطال فيها مع أن ياقوت يقول بأولها " هذه مخاطبة جرت بين أبي الطيب المتنبي وبين أبي علي الحاتمي . . . حكيتها كما وجدتها " ١٨/ ٧٥ معجم الادباء .

والحق أن المناظرة رغم مافيها من فائدة وطرافة . لايمكن أن تكون على هذه الصورة التى يرويها لنا أحد الخصمين فلايمكن أن يكون المتنبى بهذا الجهل والحمق وهو من هو فى عزة نفسه وثقته بها واطلاعه الواسع ومجالسته لأرباب اللغة وفهمه لدقائق العربية حتى قيل ان أبا على الفارسى قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن " فعلى " ؟ قال فى الحال : حجلى وظربى .. قال الشيخ أبوعلى الفارسى : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لها ثالثا فلم أجد " (١) ، وحسبك بأبى على شاهدا له على علمه بالعربية . ولكن الحاتمى أراد أن يتقرب بمغالبة المتنبى وقهره للوزير المهلبى الذى كان حانقا على المتنبى لترفعه عن مدحه فألف فى هذه المناظرة كتابا .. واستباح لنفسه أن يروى المناظرة بالشكل الذى يرضى الوزير ويشفى غلته من المتنبى ، وقد أفصح الحاتمى أنه انما ألف رسالته الموضحة استجابة لرغبة الوزير ، يقول فى مقدمته : " سامنى - أى الوزير - هتك حريمه وتمزيق أديمه ووكلنى بتتبع عواره واحواجه الى مغادرة العراق " (٢) .

وأشد من هذه المناظرة مناظرة بديع الزمان والخوارزمى التى سوف نتعرض لها بالتفصيل وهى كما قلت تشبه هذه المناظرة ولعل البديع اطلع على رسالة الحاتمى قبل شروعه فى كتابة مناظرته مع الخوارزمى ، ولا استبيح لنفسى أن أطيل أكثر من هذا فى ايراد أمثلة من مناظرات هذا العصر . فالعصر عصر مناظرات حتى لقد أجروها بين الجمادات .. كمناظرة السيف والقلم لابن نباتة المصرى وبين الورد والنرجس للماردينى وبين القنديل والشمعدان لليمانى وبين الزهور لجلال الدين السيوطى (٣) .

كذلك أجروها مع الطيور كما فعل ابن شهيد فى مناظرته للوزة (٤) .. وعقد

---

(١) الصبح المنبى ص ٨٠ .
(٢) انظر مقدمة الرسالة الموضحة ١ ، ٢ .
(٣) جمع هذه المناظرات عزت العطار فى كتاب واحد أسماه " مناظرات فى الأدب " .
(٤) أنظر كتابه " التوابع والزوابع ص ١٥٢ - ١٥٣ وانظر أمثلة أخرى من المناظرات فى زهر الآداب ١ / ٤٣١ ، ٢ / ١٠٩ وأيضا أنظر الكشكول فيه مفاخرة بين البخل والكرم وبين مصر والشام والشرق والغرب والعرب والعجم والنثر والنظم ١ / ٣٥٠ وما بعدها .

الآمدى مناظرة بين صاحب البحترى وصاحب أبى تمام اختراعا . وهي تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب كل من الشاعرين فى صدر كتابه " الموازنة بين الطائيين "(١) وانما أطلت فى هذا الفصل لأن هذا الفن من فنون نثرنا العربى لم يلق من الباحثين العناية الكافية وهو ظاهرة فى الأدب لها قيمتها ووزنها وتاريخها ... وكانت فنا يعنى ببسط المعانى والغوص فيها .. وتشعيبها .. وهي ان صح القول رياضة عقلية تشحذ البديهة وحافز للتعلم والتثقيف والتبحر فى العلوم ... ولا أرانى بما كتبته فى هذه الصفحات عن هذا الفن قد أعطيت الموضوع حقه ، بل ان هذا الفن يحتاج الى دراسة مستقلة قد لا يستوعبها كتاب واحد . وهي لعمرى دراسة مفيدة وممتعة طريفة فى نفس الوقت غير أنها تحتاج لجهد غير قليل لجمع شتاتها من المراجع الكثيرة المتنوعة .

---

(١) أنظر ١/٦ - ٥٥ .

==========

XXXXX

***

*

الباب الثانـــــى

" حياتـــه العامـــــــــــــــة "

الفصـــــل الأول

" أصله ونسبه ومولده ، ووطنه ، ثقافته وأساتذتـــــه "

أصله ونسـبه :

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي [١] ، أصله فارسي من طبرستـان [٢] ، احدى المدن الفارسية التي فتحها المسلمون ودخل أهلها في الاسلام منذ القـرن الأول الهجـرى .

---

(١) من المراجع التي ترجمت للخوارزمي وتحدثت عن حياته :
اليتيمة ٤/١٩٤ ومابعدها - الوافي بالوفيات ٣/١٩٢ - وفيات الأعيـــان ٤/٤٠٠ - ٤٠١ - الانساب للسمعاني ٥/٢١٣ - اللباب ص ١٧١ شذرات الذهب ٣/١٠٥ - بغية الوعاة ١/١٢٥ - أعيان الشيعة ٤٥/٢٥٨ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/١١٠ ومابعدها - تاريخ الأدب العربي للزيـــات ٢٣٩ - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٢/٢١٥ - تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ص ٥٤٤ تاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي - تاريخ اللغة العربية احمد الاسكندري ص ٢٠٠ ومابعدها .. تاريخ الشعر العربي محمد الكفراوي ٣/١٦٧ - في الأدب العباسي محمد البصـــير ص ٦٣ ومابعدهـــا . الوسيط في الأدب العربي / احمد الاسكندري ص ٢١٣ . معجم المؤلفين ١٠/١١٩ . كنوز الأجداد كرد علي ص ١٩٠ ومابعدها - معجم المطبوعات العربيـــة ٢/٥٢ . بديع الزمـــان الهمدانـــي رائد القصـــة ص ٨١ دائـــرة معارف القرن العشـــرين ٣/٧٩٥ . الأعلام ٧/٥٢ ، معجـم المؤلفين ١٠/١١٩ . دائرة معارف البستاني ٢/٣٠ .

(٢) أنظر اليتيمـــة ٤/٢٠٤ .

ولد الخوارزمي ونشأ بخوارزم [١] ، ولهذا لقب بالخوارزمي ويلقب أيضا بالطبرخزمي ، وبالطبرخزي ، فقيل لقب بذلك لأن أصله من طبرستان ، ومنشؤه بخوارزم [٢] ، وقيل بل لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان [٣] ، ويقول ابن القيسراني : انه سمع الأديب أبا بكر البخاري الخالدي يقول : ان أبا بكر الخوارزمي يعرف عندهم بالطبرخزمي ، يعني : طبريّ خوارزمي [٤] .

ويلقب أيضا بالطبري نسبة لخاله محمد بن جرير الطبري " صاحب التاريخ المشهور " . كما ذهب الى ذلك ابن الاثير والسمعاني [٥] وغيرهم .. وصاحب كتاب أعيان الشيعة ذهب الى أن الطبري ليس هو صاحب التاريخ والتفسير " محمد بن جرير بن يزيد الطبري المولود بآمل من طبرستان ، وانما هو طبري آخر اسمه : " محمد بن جرير بن رستم الطبري " فأوقع ياقوتا وغيره في الاشتباه اتحاد الكنية والاسم والنسب .. [٦] وصاحب كتاب نشوار المحاضرة (وهو معاصر للخوارزمي) يدعي أنه نسبة " لطبرية الشام " حيث قال في معرض ايراد أبيات للخوارزمي " لابي بكر الخوارزمي الطبري من طبرية الشام " [٧] وهي نسبة غريبة فرغم أن .. التنوخي معاصر للخوارزمي فاننا لا نستطيع الأخذ بقوله .. لأننا لا نجد سببا معقولا لنسبته لطبرية ، فالخوارزمي لم يولد ولم ينشأ بها . وقد يكون مر بها في أثناء وجوده بالشام غير أن مروره بها لا يعد سببا لنسبته اليها الا اذا قصد أنه قال هذه الابيات وهو " بطبرية الشام " على أنه احتمال بعيد . والخوارزمي نفسه يلقب نفسه بالطبري " [٨] ، على أن الخوارزمي أشهر من الطبري والطبري

---

(١) انظر اليتيمة ٤/٢٠٤
(٢) انظر بغية الوعاة ١/١٢٥ ، وشذرات الذهب ٣/١٠٥ .
(٣) انظر وفيات الاعيان ٤/٤٠٠ ، ولب اللباب ص ٩٨
(٤) انظر الانساب المتفقه ص ٩٧ .
(٥) اللباب ص ١٧١ والانساب ٥/٢١٣ والانساب المتفقه ص ٩٧ ومعجم البلدان ١/٧ واللباب للجزري ١/٤٦٧ .
(٦) أعيان الشيعة ٤٥/٢٥٨ .
(٧) نشوار المحاضرة ٦/١٥٨ .
(٨) الرسائل ص ٣٨٠ .

أشهر من الطبرخزى . ولا أدرى لماذا ذهب المؤرخون بعيدا فى تعليل تلقيبه بالطبرى مع أن أقرب تعليل هو أنه لقب بذلك لأن أصله من طبرستان ، فكما لقب بالخوارزمى لأنه ولد بخوارزم لقب أيضا بالطبرى لأن أصله من طبرستان .

ولا نعرف شيئا عن والده سوى ماذكره أبو بكر من أن والده كان ثريا وقد ترك له ثروة طائلة .(١)

أما والدته فهي أخت / محمد بن جرير الطبرى المشهور اذا صح أنه خاله من طبرستان فهي من بيت علم وأدب .

مولده ووفاته :

ولد الخوارزمى سنة ٣٢٣هـ كما هو ثابت فى معظم المصادر . ويبدو أن ذلك لم يقع للدكتور زكى مبارك حيث قال : " لا نعرف بالضبط متى ولد "(٢) ولو رجع الى .. يتيمة الدهر (٣) أو بغية الوعاة (٤) لأدرك أن سنة مولده معروفة وليست مجهولة .. وانه حقا كما ذكرنا باتفاق الرواة .

أما سنة وفاته فموضع خلاف فبعضهم ذهب الى أنها كانت سنة ٣٩٣هـ (٥) ، والباقون قالوا أنها كانت سنة ٣٨٣هـ (٦) .

وسر الخلاف على مايبدو يرجع الى اختلافهم فى العام الذى ورد فيه البديع نيسابور بعد مغادرة همذان ليتصل بحضرة الصاحب بن عباد .. ومعروف أن .. المناظرة المشهورة بين الخوارزمى والبديع كانت فى السنة التالية لورود الهمذانى

---

(١) أنظر رسائله ص ٢٢٩ .
(٢) النثر الفنى ٢/٢٦٠ .
(٣) ٤/٢٠٩
(٤) ١٥/١٢٥ .
(٥) الكامل ٩/١٧٩ .
(٦) اليتيمة ٤/٢٠٩ وبغية الوعاة ١/١٢٥ ومعجم الأدباء ٢/١٨٣ وطبقات النحاة ص ١٣٠ والكامل ٩/١٠١ وشذرات الذهب ٣/١٠٥ والأنساب ٥/٢١٣ واللباب لابن الأثير ١/٤٦٧ .

نيسابور، وأن الخوارزمي توفي في نفس السنة ، اثر المناظرة .

وقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء أن بديع الزمان ورد نيسابور سنة ٣٩٢هـ[١] . فمن اعتمد على ماذكره ياقوت جعل وفاة الخوارزمي سنة ٣٩٣هـ غير أن ماذكره ياقوت من ورود بديع الزمان نيسابور سنة ٣٩٢هـ وهم بدليل أن ياقوتا نفسه يذكر في نفس الجزء في موضوع آخر أن بديع الزمان " وافى نيسابور سنة ٣٨٢هـ[٢] وهو نفسه يذكر أن وفاة الخوارزمي كانت سنة ٣٨٣ هـ[٢] . ولعل من المفيد أن نذكر أن ياقوتا اعتمد على اليتيمة فيما نقله من أخبار بديع الزمان حيث قال : " لم يقتص أحد خبره أحسن مما أقتصه الثعالبي . . فنقلت خبره من كتابه ، ولخصته من بعض سجعه "[٣] ، والثعالبي يذكر أن بديع الزمان " وافى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ[٤] .

ومن الثابت أن وفاة الصاحب كانت سنة ٣٨٥هـ ولو ثبت ماذكره ياقوت في أحد أقواله - للزم أن تتأخر وفاة الصاحب الى مابعد سنة ٣٩٢هـ وهذا مالم يقل به أحد . ومن الغريب أن الكامل الذي ذكر أن وفاة الخوارزمي كانت سنة ٣٩٣ هـ يذكر في نفس الجزء أنه ضمن المتوفين سنة ٣٨٣ هـ .[٥]

ودليل آخر يبطل زعم من ذكر أن وفاة الخوارزمي كانت سنة ٣٩٣ . ذلك أن الخوارزمي باتفاق مات قبل وفاة الصاحب ابن عباد ودليل هجاء الصاحب له بعد وفاته[٦] ، وقد ثبتت وفاة الصاحب سنة ٣٨٥هـ فكيف تكون وفاة الخوارزمي سنة . . ٣٩٣هـ ؟

---

(١) أنظر معجم الأدباء ١٦٦/٢ (٢) نفس المرجع ١٨٣/٢ .
(٣) نفس المرجع ١٦٣/٢ (٤) انظر اليتيمة ٢٥٧/٤ .
(٥) أنظر ١٠١/٩ .
(٦) أنظر وفيات الاعيان ٤٠٢/٤ ونزهة الالباء ص ٣٢٦ ومرآة الجنان ٤١٧/٢ . والوافي ١٩٣/٣ .

ولو لم تثبت لدينا هذه الأدلة كلها ولم يثبت تناقض الأدلة المعارضة لرجحنا رواية الثعالبي المعاصر لكل من الخوارزمي وبديع الزمان ، وتلميذ الخوارزمي على رواية ياقوت وابن الأثير وقد بين الثعالبي أن وفاة الخوارزمي كانت سنة ٣٨٣ هـ وقد رأينا أن مرجع ياقوت هو اليتيمة فيما ينقل عن الخوارزمي والبديع .

وهكذا تثبت وفاة الخوارزمي بالدليل القاطع سنة ٣٨٣هـ وأن من ذكر وفاته سنة ٣٩٣هـ انما بنى على وهم . وقد سبق أن ذكرنا أن وفاته كانت في السنة التي ناظر فيها بديع الزمان ومن هنا ربط بعضهم بين وفاته وبين هزيمته ، وليس ببعيد أن يموت كمدا من تلك الهزيمة ، وقد رأى عرشه الذي ظل يبنيه طوال حياته يتزلزل تحت قدميه ، وقد رأى الشماتة في أعين حساده ، وبعد أن رأى هوى الحاضرين مع خصمه والذي ماكان يعده الا واحدا من تلاميذه .. وهذا كله ماسنراه في موضعه عند الحديث عن أدبه .

وحينما علم بديع الزمان بموته رثاه بما يشبه الشماتة ، أو كما قال الثعالبي : " دس فيها سماية ثانية " [1] وذلك في قوله :

حنانيك من نفس خافت * ولبيك عن كمد ثابت

أبا بكر أسمع وقل كيف ذا * ولست بمسمعة الصامت

تحملت فيك من الحزن ما * تحمله ابنك من صامت

حلفت لقد متّ من محشر * فنهين عن خطر العائت

يقولون أنت به شامت * فقلت الشرى بغم الشامت

وعزت على معاداته * ولا متدارك للفائت

وقريب من مرثية بديع الزمان ، مرثية أبي الحسن عمر بن أبي عمر الرقاني ، وقد أساء اليه ولكنه أحسن على اساءته كما يقول الثعالبي [2] .

---

(١) انظر اليتيمة ٤/٢٠٩

(٢) نفس المرجع ٤/٢٠٩

يقول الرقانـــى [1] :

مات أبو بكـــر وكان أمـــــــــرأ * أدهم فى آدابـــه الســـفـــــر
ولم يكن حرا ولكـــــــــــه * كان أمير المنطـــق الحـــــــر

فهذا على مافيه من النيل من أبى بكر ، خير من رثاء بديع الزمان فهو وان طعنـــه فى أخلاقه فقد اعترف له بالسبق فى ميدان الأدب والاجادة فى البيـــــــان .

أما تلميذه " الطبســى " فقد رثاه بقصيدة تجيش عاطفة وحزنا وقد جـــاءت هذه القصيدة وكأنهـــا رد على خصومه ووفاء لأستاذه . يقول فيها : [2]

شيب فرد الأســـى قذالـــى * وكدر الدهر صفوها لـــــى
وارتجع الدهر ماحبـــــــاه * وحيمل المجد بالـــــزوال
وعادت النيرات بهمـــــــا * وناحت العصم فى الجبـــال
فقلت ياصاحبى مـــــاذا * أتت به كرة الليـــــــال
أقام ربى النشور أم قـــــد * دعا الى العرض والســـؤال
أم الهمام الامام أودى * لهفى على ناقد الرجـــال
رب الفيا فى أبى القوافـــى * عم المعانى أخ الموالـــى
حاربه الدهر وهو حـــــرب * لمّا رآه بلا مثـــــال
يا أهل خارزم من يعـــــزى * أنتم أم المجد والمعالـــى ؟
أم القوافى أم المذاكـــــى * أو التماليق والأمالـــى [3]
مضى الذى لو رآه قـــس * يوما لأضحى بلا مقـــال
وفلّ منه الردى حســـاما * مافلّه كثرة الـــــنزال
وأنضب الدهر منه بحـــرا * يموج بالدر واللآلـــى
يامن غدى يدّعى المعالـــى * قد رفع الفخ لا تبالـــى

يتبع ..

---

(١) نفس المرجع ٤/٢٠٩ .
(٢) دمية القصر القسم السادس مخطوط رقم الترجمة ٥٢٢ (لدى سامى مكى العانى)
١ . نظم الاداب العربى فى الدولة الخوارزمية لمهند حسين مخطوط رسالة ماجستير جامعة بغداد .
. . . التماليق : الهوامش والتعليق .

صلى على روحه الاهـــــي * مادام يتلو البيـــان تـــــال
وماســـرى فى الظلام ســـار * وشـــدّ بالكور والرحـــــال

ثقافته وأساتذته وتلاميـــذه :

كان الخوارزمى محبا للعلم ، وقد قصر حياته عليه .. فقد جاب الآفـــاق وقطع الفيافى تاركا أهله ووطنه فى سبيل العلم وهو فى ريعان شبابه (١) ، ليرتاد مجالس العلماء والأدباء ، والمجالس كما قال الصاحب : " تخرج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيد هم فطنة (٢) " فقد قصد بلاط سيف الدولة الحمدانى بحلـــب (وبلاط سيف الدولة يومئذ يموج بفحول الشعراء أمثال : المتنبى والببغاء والنامى والخالديين والشمشاطى والناشـــى والزاهى والوءواء الدمشقى والرستمـــى ، والصنوبرى وأبى فراس الحمدانى وغيرهم) .

وكان الى جانبهم من الأدباء واللغويين والرواة : أمثال أبى الطيـــب اللغوى وابن جنى وابن خالويه - أستاذ الخوارزمى - وغيرهم من جهابذة الأدب العربى وعلومه ، وهم ذروة السنام وثمرة الثقافة الاسلامية العربية وخلاصة امـــتزاج الثقافة العربية والفارسية واليونانية .. وقد خلد وا ذكرهم بما أنتجوا فى شتى فـــروع العلم وانتاجهم بقي مرجعا لكل من جاء بعد هم حتى اليوم . وقد جمع هؤلاء ... النخبة - فى بلاط سيف الدولة الحمدانى - حب سيف الدولة للأدباء والعلـــم وتقديره للأدباء والعلماء ، وما كان يغدقه عليهم من أموال وأعطيات جزيلـــة (٣) فاجتمع فى مجلسه منهم خلق كثير حتى قيل فيه : " لم يجتمع قط ببابه أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر وفحول الدهر . (٤)

---

(١) أنظر معجم الأدباء ٦/١٧٨ (٢) انظر اليتيمة ١/٢٦ .
(٣) أنظر اخبار جوده على الشعراء اليتيمة ١/٣٢ - ٣٥ .
(٤) نفس المرجع ١/٢٧ .

وفى هذا الجو الذى تتصارع فيه الآراء وتحتدم فيه الأفكار وتمحص الحقائق وتنقد الأقوال ، ويتقارع فيه الخصوم وتحتد المنافسات ، عاش الخوارزمى رد حسا من الزمن ، يحفظ ويستفيد ويتثقف وهو فى السن التى أشد مايكون فيها وقبولا لما يلقى اليه .. يقول الخوارزمى عن ذلك : " مافتق قلبى وشحذ فهمى وصقل ذهنى وأرهف حد لسانى ، وبلغ هذا المبلغ بى ، الا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى وامتزجت بأجزاء نفسى وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب "(١) ومن اللافت للنظر أننا لانجد له أدبا فى مجتمع الحمدانيين أو فى مدح أمرائهم رغم أنه عاش كما قلنا جزءا من عمره فى مجتمعهم وخدمتهم .(٢)

وان كان يروى لهم شعرا كثيرا ،(٣) كما كان يعارض ألوأواء الدمشقى وهو من شعراء الشام .(٤) فهل كان وجوده بين أولئك الفحول ، بقصد التعليم والتثقيف فقط ؟ خاصة أنه كان لايزال فى ريعان عمره - ولكن كيف وبلاط سيف الدولة لا يأوى الا من عرف بالفضل والأدب وما معنى خدمته اذا ؟

والأقرب للواقع أن الخوارزمى قد أدلى بدلوه بين تلك الدلاء ولكن انتاجه - وهو بعد لم يشتد عوده - لم يقو على الوقوف بين انتاج أولئك القشاعم الكبار ، فشغل الناس عنه اهتمامهم بأولئك الجهابذة الكبار ولعل ديوانه الذى لايزال فى .. حكم المفقود حتى الآن يحوى بعض ماقاله فى تلك الفترة .

---

(١) اليتيمة ١/٢٦

(٢) بغية الوعاة ١/١٢٥

(٣) انظر اليتيمة ١/١٠٤ - ١٠٦ ، ٤٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٨٩ ، وغيرها .

(٤) نفس المرجع ١/٢٩٦ .

ولم تكن بغداد آنئذ قد فقدت مكانتها الادبية والعلمية ، فكانت من بين البيئات الثقافية التي قصدها الخوارزمي وأخذ عن علمائها ، وخاصة "علم الحديث" .

فقد ذكر الحاكم أنه روى الحديث عن أبي علي اسماعيل بن محمد الصفار وأقرانه ببغداد .(١)

ثم انتقل الى أصفهان حيث كانت الجامعة الثانية - ان صح التعبير - في حضرة الصاحب بن عباد فالخوارزمي وان عاد وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر " كما يصفه الثعالبي (٢) ، الا أن من كان يلزم حضرة الصاحب من العلماء والادباء لا يقلون عن أخذ عنهم الخوارزمي في بلاط سيف الدولة الحمداني " .. خاصة وان كثيرا من الادباء الذين كانوا في بلاط سيف الدولة انتقلوا الى حضرة الصاحب بعد وفاة الحمداني كما سبق أن ذكرنا .(٣)

ولاتصال الخوارزمي بهذه المحافل العلمية والادبية ومصاحبته وأخذه عمن يرتادونها ، وحفظه لما يقولون وتتلمذه على بعض أعلامها ، تعددت مشاربه ، وتنوعت ثقافته ، فأخذ من كل علم بطرف ، فضرب بسهم وافر في الادب نثره وشعره ، وكان علما في اللغة ، قال السمعاني : " دخل الخوارزمي مجلس الصاحب ابن عباد وعليه ثياب خلقه ، وكان غاصا بالفضلاء والشعراء من أقطار الارض فصمد الصفة فاستزراه الحاضرون فقال واحد منهم ظنا منه أنه لا يعرف العربية : من هذا الكلب ؟ فقال أبو بكر: الكلب الذي لا يعرف عشرين لغة في الكلب فسكت الحاضرون فذكر لهم أسماء الكلب .(٤)

---

(١) انظر الانساب ٥/٢١٣ - ٢١٤ وبغية الوعاة ١/١٢٥ ، طبقات النحاة ص ١٣٠ واللباب للجزري ١/٤٦٧

(٢) انظر اليتيمة ١/٢٦

(٣) الفصل الاول من الباب الاول وانظر رسائل الخوارزمي ص ١٠٤

(٤) انظر الانساب ٥/٢١٣، ٢١٤

وكثيرا ما ينقل عنه الثعالبي في كتابه " فقه اللغة " ويقول : علقته عن الخوارزمي أو وجدته في تعليقاتي عن الخوارزمي عن ابن خالويه (١) واذا صحت نسبة كتاب " المنتخب من سنن العرب اليه ، فقد اسهم أيضا في علم البلاغة (٢) .. مما سنرى وقد ساعده على امتصاص هذه الثقافات وتمثلها حافظة عجيبة ، لا تسمع شيئا الا وعته وحفظته .. فقد ذكر الراغب الاصفهاني " أن الخوارزمي حفظ كتاب الامثال لابي عبيدة فرليلة ، وقرئ عليه أوراق من حساب البغالين فأعادها على الترتيب " (٣)

ونحن نعرف قصته المشهورة مع الصاحب حين أراد أن يدخل عليه فمنعه الحاجب بحجة أن الوالي أوصاه ألا يدخل عليه الا من يحفظ اثني عشر ألف بيت من الشعر وفي بعض الروايات عشرين .. فقال الخوارزمي للحاجب : ارجع الى مولاك واسأله أمن شعر النساء يريد أم من شعر الرجال ؟ فقال الصاحب للحاجب : هذا لا يكون الا أبا بكر الخوارزمي وأمره بادخاله (٤) .

وقد ألف في الامثال ، والنقد ، وحذق في علم الانساب وأيام العرب ، يقول عنه الحاكم : " وقلما اجتمع معي الا ذكر لي بالاسامي والكنى والانساب حتى يحيرني في حفظه لهذه الانواع " (٥) وقد درس علم الحديث .. (٦) وتلقى الثقافة الفارسية بلسانها باعتباره أحد أبناء الفرس ، وقد عاش في بلاد الفرس .. ومما يدل على اتقانه للفارسية أنه ألف ديوان شعر بالفارسية (٧) وله بعض المقطوعات الشعرية التي يرصعها بألفاظ

---

(١) انظر على سبيل المثال ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ١٠٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، وغيرها وانظر تعليق زكي مبارك على نقد الثعالبي النثر الفني ٢ / ١٩٠

(٢) انظر هذه الرسالة ص (٣) محاضرات الادباء ١ / ٢٢

(٤) مرآة الجنان ٢ / ٤١٦ ـ ٤١٧ ، وفيات الاعيان ٤ / ٤٠١ ، الوافي ٣ / ١٩٣

(٥) الانساب ٥ / ٢١٣ ـ ٢١٤ (٦) انظر مثالب الوزيرين ص ٧٨

(٧) انظر الفصل الاول من الباب الثالث من هذه الرسالة .

فارسية مما يدل على جهلها حيث يقول : (١)

غدونا شط نهر "الهند منـــد" سكارى آخذى "بالدستهنـــد"

وراع قهوة صفراء صـــرف شمول قرقف من "جهنهنـــد"

وساق شبه دينار أتانـــا يدير الكأس فينـا "كالدرنـد"

فلما دب سكر الليل فينـــا وأسجعنا بحان "خرد منـــد"

متى تدنو لقبلته تلكـــا ويلقى نفسه "نالدرد منـــد"

وهذا شعر مزاج ظريـــف يحاكى أنه "جند بن جنـــد"

أما أساتذته فلم يذكر لنا من ترجموا له سوى اثنين منهم ، فقد أخذ اللغة والنحو عن علم عصره ، الحسين بن أحمد بن خالويه (٢) كما أخذ الحديث عن أبي علي اسماعيل بن محمد الصفار وأقرانه . (٣)

واذا اعتبرنا كل من روى لهم الخوارزمي أو تأثر بهم أساتذة له فهم كثر .. وقد اعتمد الثعالبي عليه في تأليف معظم كتبه وخاصة اليتيمة سواء في ترجمة الشعراء أو في رواية شعرهم . (٤)

أما تلاميذه فحدث ولا حرج .. اذ كان الخوارزمي في نيسابور يشكل مدرسة بذاته تخرج على يديه كثير من الادباء والفقهاء المشهورين .. يقول السيوطي : " انه لما عاد الى نيسابور واستوطنها درس أهلها عليه الادب " (٥)

---

(١) معجم البلدان ٥/٤١٨ بتصرف

(٢) انظر نزهة الالباء ص ٣٦٥

(٣) بغية الوعاة ١/١٢٥ وطبقات النحاة ص ١٣٠ ، الانساب ٥/٢١٣

(٤) انظر اليتيمة ١ـ٣٢ ، ٣٣ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢/٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ١٧١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٤/١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٤٠٧ على سبيل المثال لا الحصر

(٥)

ويقول ياقوت في ترجمته لعلي بن أحمد الواحدي " واستخلفه الاستاذ أبو بكر الخوارزمي على درسه عند غيبته " (١) ومعظم تلامذته انما هم أولاد الامراء وأصحاب المناسب فمنهم : أبو منصور عبد الملك بن اسماعيل الثعالبي ، وكان يؤثر على غيره يقول الثعالبي : " ماكان أكثر ما ينشدني ويكتبني مما يضن به على غيري من تلك الغرر التي تجري مجرى السحر والملح التي يقطر منها ماء الظرف " (٢) ومنهم أحمد بن علي بن أبي بكر الزوزني (٣) ، وأحمد بن كامل بن خلف السجزي وأبو علي مجاهد بن موسى ابن ذرق الخوارزمي ، (٤) ومحمد بن آدم بن ذمان ابو المظفر الهروي (٥) ومحمد بن احمد بن أشرس أبو الفتح النحوي اللغوي (٦) وأبو سعيد الحسن بن أحمد الطبسي النسابوري الذي رثاه بقصيدته الجيدة . (٧) وساعد بن محمد الاستوائي (٨) .

ويدل على كثرة تلاميذه كثرة رسائله الموجهة اليهم في ديوان رسائله (٩) ومنهم من بلغ مرتبة الوزارة . (١٠)

على أن من تلاميذه من تنكر له فأرسل له أبو بكر الخوارزمي يعاتبه بهذه الابيات الجميلة : (١١)

(=) (٥) انظر ١/١٥٢ وروضات الجنان ٢/٢٤

(١) معجم الادباء ٥/٩٩ (٢) انظر اليتيمة ١/٢٦

(٣) نفس المرجع ٤/٤٤٦ (٤) الانساب ٥/٢١٤

(٥) ت ٤١٤ هـ له شرح الاصلاح وشرح أمثال أبي عبيد وشرح الحماسة وشرح ديوان ابن الطيب (معجم الادباء ٦/٢٦٧) .

(٦) انظر نفس المرجع ٦/٣٢٦ .

(٧) انظر هذه الرسالة ص ٤٠ ، ٤٦

(٨) انظر تاج التراجم في طبقات الحنفية رقم الترجمة ٨٢ ، ص ٢٩ .

(٩) انظر على سبيل المثال الصفحات : ٧ ، ٨ ، ١٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧٣ .

(١٠) انظر رسالته ص ١٧ .

(١١) هكذا وردت الأبيات كلها للخوارزمي في مخطوطة رسائله بالمدينة رقم ٨١١/٢٢ واليتيمة ٤/٢٣٥ وفي أعيان الشيعة ٤٥/٢٦٤ . أن البيتين الاخيرين رد من أبي زيد على الخوارزمي .

هذا أبو زيد سقلت حسامه ... فقدا به ملتا على واقد ما

انشا يجهلني بما علمته ... ويريش من ريشي لرمي أسهما

يامنيتا قوسا بكفي أحكمت ... ومسددا رمحا بكفي قوما

ارقبت بي فسلم حتى اذا ... نلت الذي تهفي نفسي السلما .

-٠-

الفصل الثانـــى
رحلاتـــه الادبيـــــة

(صلاته بالامراء والوزراء والكتـــــاب)

فى حلب (سيف الدولة) فى بخارى (الصاحب) ،وفى نيسابور (أبو نصر المكالى) فى سجستان (الطاهر بن محمد) ،فى أصفهان (الصاحب) ، فى شيراز (عضد الدولة)٠

كانت الرحلات الادبية والعلمية ـ ولاتزال ـ من أهم الوسائل التى ينمى بهـــا الطالب ثقافته ٠ ولعل أول من فتح باب الرحلات العلمية اللغويون الذين كانوا يجمعـــون اللغة من أبناء البادية ٠٠ ثم المحدثون الذين كانوا يجمعون الاحاديث مشافهة مـــن حفاظها ٠٠ وقد كثرت الرحلات الادبية فى القرن الرابع ٠٠ وقد دعا المتأدبين اليهـــا رغبتهم فى ارتشاف العلم من معينه فى البيئات المختلفة فكان الاديب يقوم بتلـــك الرحلات للتزود بالمعرفة وطلب العلم فى حداثته ٠٠ اذ كانوا لا يكتفون بقراءة كتـــب من أشتهر فى هذا الفن حتى يتصلوا به ويستقوا مما عنده مشافهة ليكون التأثر به أقـــوى وتحصيل ماعنده أوفى وأجدى ٠

فكانوا يتصلون بالاديب أوالعالم حتى اذا ظن أحدهم أنه استنفد ماعنـــده انتقل الى من هو أشهر منه وأعرف ٠

وكأنهم كانوا فى جامعة فيها شتى التخصصات ٠٠ الا أن جامعتهم تلك كانـــت العالم الاسلامى بأسره ٠٠ حتى اذا اشتد عود الدارس منهم وأنس من نفسه القدرة علـــى الاستقلال عن اساتذته (وقد كملت معلوماته واستوت ثقافته) ظهر للناس ليعطـــى وينتج ، فيؤكد وجوده ويحظى بماعند الولاة والامراء ٠٠ فتكون له رحلات ثانية ، ولكنهـــا

هذه المرة للظهور وطلب النوال .. وان كانت لاتخلو من الفائدة التى يجدها الاديب فى مجالس الادب والعلم خاصة وانها تضم كبار العلماء فى كل فن .

والخوارزمى أحد هؤلاء الادباء الذين لا يعرفون لهم مقرا ولا يقرون للادب .. بحدود . فقد شرق بعد أن غرب ، وجاس خلال الديار عرضا وطولا . فمنذ حداثة سنه وهو حامل عصا الترحال مستهينا بمشاق السفر واخطاره فى سبيل تحصيل العلم والادب ، حتى قال عنه الثعالبى : (فارق وطنه فى ريعان عمره وحداثة سنه ولم يزل يتقلب فى البلاد ويدخل كور العراق والشام ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء ويستفيد من الفضلاء .. ومضى على غلوائه فى الاضطراب والاغتراب وشرق بعد أن غرب (١) حتى شاع ذكره وانتشر ، ولم تقتصر خطاه الا عن مصر والاندلس ولعله رأى فى الاداب الشرقية مايغنيه عن أدب المغرب مجاريا فى ذلك رأى المشرقيين الذين يرون ان الاداب المغربية ماهى الا تقليد للاداب المشرقية .

ولم تقتصر رحلاته على العواصم المشهورة فى العالم الاسلامى بل لقد عاشر البدو فى الصحراء كما يقول هو عن نفسه (ولقد اخترقت البدو والحضر ، ودخلت ديار ربيعة ومضر) (٢) .

ورغم مايغلف حياة الخوارزمى الاولى ، ومايكتنف علاقاته بوزراء عصره من الغموض فاننا يمكن أن نتحسس معالمها من خلال أدبه أولا ، ومكتبته المراجع القديمة فى ترجمته المختصرة ثانيا . فالخوارزمى ـ كما رأينا ـ تلقى تعليمه الاول بخوارزم ، وهو أقليم تخرج فيه كثير من الفقهاء والعلماء والادباء ، ورغم أن حبه للعلم وشدة طموحه دفعا به

---

(١) اليتيمة ٤/٢٠٤

(٢) انظر رسائل الخوارزمى ص١٩

الى مفارقة وطنه وهو حديث السن ،،فانه لم يكن خالى الوفاض من الاداب والمعارف ،فلم يسافر حتى آنس من نفسه رشدا وتزود من العلم بزاد جيد .

يقول عنه الثعالبى : (فارق وطنه فى ريعان عمره وحداثة سنه ، وهو قوى المعرفة قويم الادب ،نافذ القريحة ، حسن الشعر) (١) .

٥٥

((الخوارزمى فى حلب))

كانت وجهته الاولى الى الغرب ، حيث بلاط سيف الدولة أكبر مركز فى ذلك الوقت للاداب والعلوم ، وأعظم مجمع لجهابذة الفكر والادب .

وقد سبق الحديث عن مكانة هذا البلاط ومايؤمه من الادباء ،والشعراء ، واللغويين (٢) ، فاستفاد من هؤلاء وتتلمذ على بعضهم ،ولعله أراد مشاركتهم فى القول فلما رأى مارأى من هؤلاء الفحول استصغر شأنه واكتفى بالاخذ عنهم ،خاصة وأن بضاعته المتمثله فى رسائله المصنوعه وشعره ، لاتمكنه من المنافسة فى هذا البلاط فسيف الدولة لاتطربه هذه الرسائل المصنوعة التى وجدت لها سوقا نافقه لدى حكام الاقاليم الفارسية وشعره لا يرقى الى مستوى فحول الشعراء هناك . فاكتفى بالاخذ والحفظ عنهم والاستفادة منهم وهو مايشير اليه الثعالبى بقوله : (ولم يزل يتقلب فى البلاد ، ويدخل كور العراق والشام ،ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء ويستفيد من الفضلاء ، حتى تخرج وخرج فرد الدهر فى الادب والشعر) (٣) .

---

(١) اليتيمه ٤/ ٢٠٤

(٢) انظر الفصل الاول من الباب الاول من هذه الرسالة

(٣) اليتيمه ٤/ ٢٠٤

وقد اتصل الخوارزمي بعلماء بغداد وتتلمذ على بعضهم خاصة في علم الحديث.(١)

٥٥

((الخوارزمي في بخارى))

وبعد تخرجه في جامعة حلب توجه تلقاء المشرق وهو بازل الناب قوى الشكيمة فكان أول نزوله على أبي علي البلعمي والي بخارى من قبل السامانيين .. ولكنه لم يحمد صحبته فكانت بداية غير موفقة له فأطلق فيه لسانه ومن ذلك قوله (٢)

انذا البلعمي والحين غين	وهو عار على الزمان وشين
ان يكن جاهلا يخفى حنين	فهو الخف والزمان حنين

وقد كتب له البلعمي يستدعيه الى حضرته بعد أن فارقه فرد عليه بهذه الرسالة التي تدلنا على سبب نكوصه على عقبيه كما تدلنا على عزة نفسه وثقته بها وفيها يقول :

(ورد علي كتاب سيدى يدعوني ، ومثلي لا يجيب داعي القول دون ان يصدقه داعي الفعل ، وبالجملة أنا قد تفارقنا على حالة ، فان كنا عليها والتقينا فيها ، فآخر التلاق أول الفراق ، ولا يريح من هذا اللقاء غير تجرع فراق جديد وتولد حزن شديد ، والمرة من الفراق مرة فكيف المرتان ، والسهم منه نافذ فكيف السهمان ، وان كنا تغيرنا عن ذلك الخلق ومشينا في غير تلك الطرق ، فيجب أن ندل على ذلك بالاحوال لا بالاقوال ، والشيخ خليق أن لا يفل سيفا شحذه ولا يضيع حلقا اتخذه ولا يحطش زرعا سقاه .. ولقد أرخيت عنان خطابه وأوسعت ذرع عقابه ولكن لا خير للشيخ فيمن لا يحمى

---

(١) انظر الانساب ٥/٢١٣ـ٢١٤ ، بغية الوعاة ١/١٢٥ ، طبقات النحاة ص١٣٠ ، واللباب للجزرى ١/٦٧

(٢) اليتيمة ٤/٢٠٤ ـ ٢٠٥

عرنه ، ويد الشيخ أطول من لساني وبناني وأمره أمضى من قلمي وبياني فليتلني لسين مسها وأنا بعيد ، كما نالتني خشونتها وأنا قريب .. وفي الارض متحول وعلى الله المعول (١)

وقد وجه الخوارزمي الى البلخي رسائل كثيرة يعتذر اليه ويكذب من اتهمه بثلم عرنه (٢) .

٥٥

((الخوارزمي في نيسابور))

ثم تحول من حضرة البلخي في بخارى الى نيسابور حيث التقى بأبي نصر أحمد بن علي الميكالي فكان له منه ما أراد عزا وجاها وتوالا . فمدحه وأجاد واتصل بكبار رجال نيسابور من مثل كثير بن احمد وصاعده (٣) ، كما اتصل بأبي الحسن القزويني وأبي منصور البغوي وأبي الحسن الحكمي (٤) ، وهم وجوه القوم ، فحصل لهنالك ما افتقده في حضرة بخارى .

٥٥

((في سجستان))

وكعادة الخوارزمي في حب الترحال انتقل الى بلاط اخر هو بلاط طاهر بن محمد في سجستان فارتفق منه وتمكن من صاحبه وطاب له العيش الا أن الايام لا تصفو لاحد فقد وقعت بينهما جفوة لا نعرف سببها وكان الخوارزمي حينها طويل القرون ، شعر

---

(١) انظر الرسائل ص ١٩

(٢) انظر نفس المرجع ص ٢٧ ، ٥٦ وص ٥٧

(٣) انظر اليتيمة ٤ / ٢٠٥ ، وانظر رسائله اليضا ٣٦ ، ٧٤ ، ١٢٤ وفيها يلقبه بالشيخ

(٤) انظر رسالته اليضا ١٦ وفيها يلقبه بالشيخ فلعله من شيوخه

أنه أديب عصره ، وقد تزود من العلم فوق مالدى أقرانه ، فمثله لا يهان ولا يحاسب اذ هو جوهرة تجب المحافظة عليها ، فهو معتز بنفسه شامخ بأنفه حتى على الوزراء وهذا هو شعوره الذى تترجمه رسالته التالية : (انكر الشيب عزوف نفسى عن مواقف البذلة ، والادب سلطان ينسى هيبة السلطان ولطول العشرة دالة تقيم الملوك مقام النظراء والاخوان) (١) .

وهذا الشعور هو الذى جعله فى صراع مستمر مع وزراء عصره ، فعزة نفس الخوارزمى وشعوره القوى بقيمته الادبية لا تتلاءم ومايتطلبه وزراء زمانه من خضوع الاديب لهم وتصاغره بين أيديهم . ونتيجة لهذا كان صدامه الاول مع طاهر بن محمد ، فلم يرض الخوارزمى من طاهر ان يعامله هذه المعاملة فانتصر لكرامته بهجائه .. واحتدم الخصام بينهما فكانت كسرته الاولى حين ذاق مرارة السجن على يديه . وطال بقاؤه فى سجنه ..

وقد أثرت هذه الحادثة فى نفسه وضعضعت من عزتها . ورغم انه بعث بقصيدة للميكالى تفيض بالاسى والحزن يظهر فيها ندمه على مفارقته ويشكو اليه سوء حاله فقد بقى فى سجنه حتى جعل الله له من ضيق السجن مخرجا (٢) .

---

(١) انظر الرسائل ص ١٩

(٢) انظر اليتيمة ٤ / ٢٠٥ وانظر هذه الرسالة ص ٢٤٧ .

((الخوارزمي في طبرستان))

وبعد أن استطاع الخروج من سجن طاهر ، توجه تلقاء طبرستان فكانت حالـــه مع صاحبها نحاله مع طاهر بن محمد ، الا أن المؤرخين لم يذكروا انه سجن فيها ، ولكنه وجه الى واليها هجاء هو أقرب الى العتب .. يشكو فيه بخلهم ومنعهم له عن مفادرتهم يقول : (١)

الا أبلغ بني شار كلا مـــــــــى ... ومن لم يلقهم فهو السعيـــــــد

علام ابتعتموا فرسا عتيقـــــــــا ... وليس له بكم علف عتيـــــــــد ؟

وفيم حبستم في البيت بـــــــا زا ... يحيض الطير عنه أو يحيـــــد ؟

فلا قربتموه فعلفتمـــــــــــوه ... ولا خليتم عنه يسيـــــــــــد

وقال في واليها أيضا : (٢)

أحيى قلمت نابي كل أفعـــــــى ... وحادت أسد بيشة عن فنائـــــى

وقال الناس اذ سمعوا كلامـــــى ... ألم تكن الكواكب في السمـــــاء ؟
يخوفني الكســـــاد على متاعي ... وهـــل يخشـــى كساد الكيمياء ؟

٥٥

((الخوارزمي في أصفهان))

وبعد تركه لطبرستان عاد ثانية الى نيسابور وبقي بها حتى (٣) جذبته حضـــرة الصاحب بأصبهان .. فنجحت سفرته ، وربحت تجارته كما يقول الثعالبي ، فقد جعلـــه الصاحب من ندمائه وخاصته وكان يكرمه ويغدق عليه الاموال بلا حساب .. فطابت له الاقامة وحسنت حاله وكثر ماله .. وقد اشاد الخوارزمي بكرم الصاحب له في رسائل كثيرة منهـــا : " فما هو الا ان وردت حضرته حتى أنثال علي من عطاياه الغزار ومن نعمه الغرائب الابكـــار ما صير أمسي أبغض يومي الي ويومي أكرمها علي .. " (٤)

---

(١) اليتيمة ٤/٢٠٧ (٢) نفس المرجع ٤/٢٠٧

(٣) نفس المرجع ٤/٢٠٧ (٤) رسائل الخوارزمي ص ١٠٣

ويقول فى رسالة أخرى كتبها الحاكم لنيسابور يصور مدى احتفاء الصاحب به أول نزوله " وردت أيد الله الحاكم من الوزير على رجل يستطيل اليوم اذا بعدت عنه ويستقصر الدهر اذا اقربت منه ، أبدع فى اكرامى بدائع لو كانت كلمات لكانت أمثالا ، ولو كانت أبياتا لكانت أفرادا ، وكسانى طرازا من الصيانة خفت علىّ ذيوله .. وخاطبنى بكلام كأنما خلق من خلقه حسنا ورقة ، وكأنما اقتطع من كلمه لطفا ودقة ووعدنى مواعيد فى صحبة العدل والتوحيد ورقانى فى غاية تزلق رجل المنى ، ويقصر دونها هم الورى ، وتخجل خلفها الدرجات العلا " . (١)

ويقول من أخرى : " ولقد اصطفى هذا السيد وقربنى من الناس .. ومن أحمد مراده وصادف من الماء والملاء مراده لم يشرب الا من عفوه ولم يند الا من صفوه ولم يلق دلوه الا فى جمه . فها أنا أصبح وأمسى بين السرور والبذل ، واتقلب بين العز والنهل ، وأردد الطرف بين الخيل والخول . قد استوفيت على الايام حواصلى وبقايا ضمت على مطالبى منها يمناى ويسراى وأصبح أعدائى وهم بالحاجة الى أوليائى ، كما أصبح أصدقائى وهم بالحسد لى أعدائى ، فلا طريق الىّ للفقر ولا منفذ فىّ لسهام الدهر " (٢)

ومما يدل على تقريب الصاحب للخوارزمى ويصدق ما ذكره من احتفائه به قول الصاحب فيه : (٣)

أسعدك الله بيوم الفصح ... وعشت ما شئت بيوم سمح

يا رأس مالى فى الورى وربحى ... وظفرى ونصرتى ونجحى

شربا ولا تصغ لاهل النصح ... فالحزم أن تسكر قبل تصحى

سكر النصارى فى غداة الفصح

---

(١) انظر الرسائل ص ٩٢

(٢) الرسائل ص ١٠٤

(٣) اليتيمة ٣/٢١٧

ومما يدل على تقديمه له وايثاره على غيره من الادباء قول التوحيدي للخوارزمي " كيف وجدت الصاحب وقد أعطاك وأولاك وقدمك وآثرك وسفر لك الى عضد الدولة ؟ (١)

واحتفاء الصاحب للخوارزمي انما كان لمعرفته بمنزلة الاديبوما اشتهر به من سعة الثقافة وقوة الحفظ .. والصاحب يعرف كيف يختار ندماءه من الادباء المشهورين الذين يجد عندهم مايطربه ويفيده ويذيع ذكره وان كان التوحيدي يرجع ذلك مرة الى خوف الصاحب من لسان الخوارزمي فهو يقول : " وقد شاهدت النافقين عليه (يعني الصاحب) والمقتدمين لديه ووقفت على مرادهم ووسائلهم وأسبابهم وذرائعهم فلم أر فيهم الا مغشي اللسان استكف شره بالاحسان كالخوارزمي " . (٢)

ومرة يرجعه الى سبب آخر ، هو أن الصاحب جعل الخوارزمي جاسوسا على محمد ابن ابراهيم ـ صاحب جيش نيسابور ـ حيث يقول التوحيدي : " وكان الخوارزمي أفصح الناس ما رأينا في العجم مثله وانما نوله الصاحب ما نوله ، وخوله ما خوله ، لانه أذكاه عينا على " محمد بن ابراهيم صاحب الجيش بنيسابور " واستملى فيه أخبار المشرف وبهذا المعنى استدر له من ملك بغداد بواسطة ابن يوسف " . (٣)

وهذه تهمة لو صحت تجرد الخوارزمي من الخلق والفضل وتجعل له حرفة أخرى بعيدة كل البعد عن مجال الادب ولكن التوحيدي يكثر من اتهاماته للصاحب ، ولعل هذا بعض الشر الذي أصاب المحيطين به . ومع ذلك فنحن لا نبرئ الصاحب ولا الخوارزمي فقد كانت استقامة الخلق في ذلك العصر نادرة .. خاصة أن محمد بن ابراهيم هذا قد ثبت انه سجن الخوارزمي . (٤)

---

(١) مثالب الوزيرين ص ١٣١

(٢) انظر مثالب الوزيرين ص ١٣١

(٣) نفس المرجع ص ٧٧

(٤) انظر رسائل الخوارزمي ص ٥٩

وعلى أن حال فقد كان اكرام الصاحب للخوارزمي فوق ماكان يتوقع وقد قابل ذلك الخوارزمي بمدائح حبرها فيه نثرا وشعرا قد توازى ذلك الاكرام .. فقد كان من أكبر المنابر التي أشادت بكرم الصاحب وفضله واشاعت ذكره في الامصار .. من ذلك قوله: " وما ظن السيد برجل ليس لمطالعه اسم غير الجزيل ، ولا لفعاله نعت الا الجميل ..

لا عيب فيه يصاب الا أنني أمسي عليه من المنون شفيقا (١)

بل عيبه أنه في زمان لا يسمه ، وفي عالم لا يستحقه وأقل ما عنده ، أن عطاياه صيرت المعجم شاعرا ، وجعلت المقيف سائلا ما رأيت حضرة أثر منها داخلا راجيا ولا خارجا راميا ، ولا أجمع فيها بين وجهين مختلفين من بلدين متباعدين قد فرق بينهما الاصل والنسب ، وجمع بينهما القصد والطلب ، فوردا وهما أعز من الحيا ، وصدرا وهما أكسى من الكعبة .. حتى قد صارت مجمع الرجال ومثابة العطاء وملقى الرحال وموسم الشعراء وتوارة ينصب اليها العلم والادب وقبلة يهوى اليها العجم والعرب .. جمع طبقات أهل الفضل : رجلان اما اليه ظاعن واما بحضرته قاطن ، فالظاعن يحسد القاطن والقاطن يستبطيء الظاعن . فقد نفضت اليه البلاد رجالها وأبرزت له جمالها ... وحسبك بالغرة جالبا وبالاحسان جاذبا .." ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا " (٢)

ولم يزل الخوارزمي في هذا الميدان الهني يحيك بقلمه مدائح في الصاحب تسري في البلاد وتتناقلها الالسن ، ولا ندري كم مكث بهذه الحضرة التي يصفها أجمل وصف ، وان كنت اظن أنه أطال بها المكث .."

---

(١) هكذا في الاصل ..

(٢) الرسائل ص ١٠٣ ، ١٠٤

((الخوارزمي في شـــــيراز))

وقد كان من فضائل الصاحب عليه أن أوصله الى عضد الدولة بن بويه الـــذي أحسن وفادته حتى أنه أجرى له راتبا يصله الى نيسابور كل عام وهكذا اوصل الخوارزمي الـى منزلـة يحسد عليها .

فتفرغ للتدريس والعلم والادب ، وقد مدح عضد الدولة بمدائح كثيرة ومـــن مدائحه له يصف فارس وعدله فيها : (١)

تفارقها السباع الى سواهـــــا ... اذا جاعت لتطلب ما تصيـــد
كأن اللص فيها رافضـــــــي ... تمثل في الكنوز له يزيـــــد
ولما أكثر الحســـــاد فيـــه ... وقالوا قد تحصنت الحـــدود
أجاب الفضل عنه حاسديـــــه ... لا مرحبا بسود من يســـــود

وله فيه من أخرى : (٢)

غريب على الايام وجدان مثلـــــه ... واغرب منه بعد رؤيته الفقـــر
فلا حر الا وهو عبد لجـــوده ... ولا عبد الا وهو في عدله حـــر
عجبت له ليلبس الكبر حلـــــة ... وفينا لان جزنا على بابه كـــبر

وهكذا بقي الخوارزمي يتلقى العطايا والهبات من أغنى رجلين في شرق الدولـــة الاسلامية وهو لا يطمع أن يصل الى من هو أعظم منهما ، الى ان بلغ أيام تاش الحاجب ، وكان الخوارزمي يغض من سلطان خراسان ويتعصب لابن بويه تعصبا شديدا ، فتعـــرض له الخوارزمي وشمت بمحين عادمن خراسان منهزما ونقل عنه أنه قال فيه وفي الوزير المهلبي :

---

(١) بدائع الملح ص ٥٥ ، ٥٦ والتوضيح في شرح المقامات ص ١٧١ ، ولم يذكر سوى البيت الثاني .

(٢) اليتيمة ٤/٢٢٤

" تهنئة له وللوزير أبي الحسن المتنبي " وأبلغ المتنبي أبياتا زورت على لسان الخوارزمي منها : (١)

قل للوزير آزال الله دولتـــــه جزيت صرفا على قوس ابن منصـــور

فما كان من المتنبي الا أن أمر " تاش " وابن المظفر الرعيني بنيسابور بأخذه ومصادرة أمواله وقطع لسانه فتولى الرعيني حبسه وتقييده .. الا أن الخوارزمي احتال على المكلفين بحبسه وشغلهم بالطعام والشراب كما يقول الثعالبي . فهرب متنكرا الى حضرة الصاحب بجرجان وكان لا يزال على صلة وثيقة به فعاود بره .. وكان حظه لا يزال يساعده فاتفق أن قتل أبو الحسن المتنبي وقام مقامه أبو الحسين المزني وكان الاخير أشد الناس حبا للخوارزمي فاستدعاه وزاد في اكرامه وكتب الى نيسابور برد ما أخذ منه فزادت حاله حسنا وقدمه ثبوتا

ونظر اليه ولاة نيسابور بعين الحشمة والاحتشام والاكرام والاعظام فارتفع مقداره وطاب عيشه " (٢) ثم حصلت بينه وبين الصاحب جفوة لا ندري سببها ولم يذكر الثعالبي شيئا عن هذا الخلاف ..

ورسائل الخوارزمي خالية مما يشير الى هذه الجفوة فكل رسائله اليه ليس فيها الا الاشادة بمكانته وشكره على ما أولاه .. وكل ما يشير الى هذه الجفوة هو هذان البيتان اللذان ينسبان للخوارزمي علما أنه لم يذكرهما الثعالبي : (٣)

لا تحمدن ابن عباد وان هطلـــت كفاه بالجود سحا يخجل الديمـــا

فانها خطرات من وساوســـه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرمـــا

---

(١) اليتيمة ٤/٢٠٨

(٢) نفس المرجـــع ٤/٢٠٨ .

(٣) نزهة الالباء ٣٢٦ مرآة الجنان ٢/٤١٧ وفيات الاعيان ٤/٤٠٢ معجم الادبـــاء ٦/٢٥٦ الوافي ٣/١٩٢ انوار الربيع ٢/١٦٠

ولعلهما مدسوسان عليه كما دس عليه هجاء المتنبي غير أن ما يعضد هذه الرواية هجاء الصاحب للخوارزمي بعد موته حيث قال فيه : (١)

سألت بريدا من خراسان جائيا ... أمات خوارزميكم قال لي نعم

فقلت انتهوا بالجص من فوق قبره ... ألا لعن الرحمن من يكفر النعم

وان لم يرد هذا البيتان في اليتيمة أيضا .. وقد يعني بها الصاحب خوارزميا آخر وكل ما ورد في اليتيمة من هجاء الخوارزمي للصاحب هو قوله : (٢)

صاحبنا أحواله عالية ... لكنما غرفته خالية

وان عرفت السر من دائه ... لم تسأل الله سوى العافية

على أنني لا استبعد أن يكون الخوارزمي ترك الصاحب مغاضبا لسبب أو لأسباب خاصة أما التوحيدي - اذا صدق - يروي لناقصة غريبة عن معاملة الصاحب له تجعل الخوارزمي يختار بعد على قربه مهما كان عظم عطائه له . يقول التوحيدي : حضر الخوارزمي يوما وجرى حديث القافة . فقال الخوارزمي : دخل مجزز المدلجي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى أقدام اسامة وزيد فقال : هذه أقدام بعضها من بعض (٣) وصحف البائس كما يصحف الناس العلماء ومن دونهم . وكان ابن عباد على بركة فما زال يدور حول البركة وهو يصفع الخوارزمي ويقول : مجزز بحياتي ؟ الى أن رعف الخوارزمي وتنحى وخنق فهذا وما دانا هو الذي يفسد به ما يفصله من الخير والبر " (٤) ويروي التوحيدي أيضا عن الخوارزمي في الصاحب قولا " ان صدق التوحيدي فهو دليل على ما حصل بينهما من جفوة وذلك أن التوحيدي سأل الخوارزمي : كيف وجدت الصاحب ؟ فقال : دعني مما عناك ،

---

(١) نزهة الالباء ص ٣٢٦ مرآة الجنان ٢ / ٤١٧ ، الوافي ٣ / ١٩٣

(٢) اليتيمة ٣ / ٢٨٢

(٣) التصحيف : ان يأخذ الرجل اللفظ من قراءة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب - أنوار الربيع ١ / ١٨٣

(٤) مثالب الوزيرين ص ٧٨

والله انه لخوار في المكارم صبار على الملائم زحاف الى المآثم سماع للنمائم مقدام على المظالم يدعو الى العدل والتوحيد ويدعى الوعد والتخليد ،ثم يخلو باستعمال الامور ويشتمل على الفسوق والفجور يمسي وهو بور ويصبح وما على وجهه نور " (١)

ولكن كما قلنا لا نستطيع أن نعول على قول التوحيدي اذ هو خصم لدود للصاحب فقد يزور على الخوارزمي ما يشوه به سمعة الصاحب .

ولم تكن رحلات الخوارزمي مقصورة على من ذكرنا فقد كانت صلاته بجميع رؤساء الاقاليم الفارسية بدليل مراسلته لهم من مشارفها اقليم خوارزم ،وطوس ،ونساء ،ونيسابور وسرخس ،وسمرقند والختل ،وقم ،والصفانيان وقومس ودامغان " . (٢)

كما وجدنا أنه دخل السجن أربع مرات من قبل طاهر بن محمد والعتبي وصاحب الجيش محمد بن ابراهيم ، وصاحب هراة ، مما جعله سيء الظن بولاة عصره بعد أن ذلت نفسه وقد كانت عزيزة طموحة .

وبعد فهذه رحلات الخوارزمي وقد كان كالطير المهاجر لا يستقر بمكان ولا يأوي مقر .

---

(١) نفس المرجع ص ٧٧

(٢) انظر رسائل الخوارزمي ص ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٩ .

الباب الخامس

« أدبه وأسلوبه »

الفصـــل الأول

"مصادر أدبه المخطوط منها والمطبـــــوع"

١) رسائله : وهي أشهر مؤلفاته ، ولعلها أشهر الرسائـــل على الاطلاق .. وقد طبعت عدة طبعات : في كوبريلى سنة ١٢٧٤هـ ، وبولاق ســـنة ١٢٧٩هـ، واستانبول سنة ١٢٩٧هـ، وبهاى سنة ١٣٠١هـ والطبعة العثمانية سنة ١٣١٢هـ وهي التى اعتمدت عليها - ولعل آخر طبعاتها طبعة بـــيروت سنة ١٩٧٠م .. وهي طبعة كثيرة الأخطاء والتحريف .. ومما يدل على شهرة هذه الرسائل ، تعدد مخطوطاتها ، فلا أظن أن تخلو منها مكتبة فلها نسخ في : برلين ٨٦٢٦ - ٨٦٢٧ ، وتوبنجن ٧١ رقم ١ ، وفينا ٢٧٩ وليـــدن ٣٤٣ - ٣٤٤ ، وباريس أول ٦٠٠٩ (مكاتيب) ، وكمبرج أول ١٤٩٩ - ١٥٠٠، وأيا صوفيا ٤٣١ ، وكوبريلى ١٢٩٣ ، وحميدية ١٢٠٠ ، وفيض الله ١٦٠٤ - ١٦٠٥ ، وعاســـر أفندى (السليمانية) ٤٠٨ ، والموصل ٩٣ رقـــم ٣ (١) ومكتبة الحرم المكى الشـــريف ١٦١ ، ومكتبة المدنية العامة ٨١١/٩٤ ، وذكر بروكلمان أن لها مخطوطة ببايزيـــد تحت رقم ٢٦٤٠ (٢) ، وقد مراجعتى لـــها وجدتها لبديع الزمان كما سأبين ذلك في هذا الفصل .

ويظهر أن لها في بعض المكتبات أكثر من نسخة كمكتبة برلين ، وليدن ، .. وكمبرج ، وفيض الله .

وبدلنا هذا العدد الكبير من مخطوطاتها على مالها من قيمة أدبيـــة خاصة في القديم .. فقد كان المتأدبون يتخذون منها مرجعا .. يستمدون منـــه ، وينسجون على منواله .. ولم أحص - كما لا أظن أن أحدا يستطيع أن يحصـــى -

---

(١) أكثر هذه المخطوطات ذكرها بروكلمان في تاريخ الأدب العربى ١١١/٢ .
(٢) أنظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١١/٢ .

كل مخطوطاتها ، وهذا مايشجع الباحثين على تحقيقها وان كان الحصول على كل مخطوطاتها ومقابلتها ببعضها يعد عائقا كبيرا فى سبيل ذلك - لتعددها وتفرقها فى أنحاء العالم كما ذكرت .

والذى يلفت النظر هو أن مجموع رسائل الخوارزمى التى بحوزتها ديوان رسائله بلغ مائة وخمسا وخمسين رسالة مابين طويلة وقصيرة ، وهو عدد قليل اذا ماقيس بشهرة الخوارزمى ومكانته الأدبية ، واذا ماقيس بحياته الحافلة بالصداقات ، وكثرة المكاتبات .. خاصة وأنه اتخذ منها حرفة له .

وللثعالبى قول يشير الى أن له رسائل قديمة ، حيث يقول : وقرأت فصلا للخوارزمى من رسائله القديمة "[1] فهل يعنى هذا أن له رسائل قديمة وأخرى حديثة ، وأن ماوصلنا هو الرسائل الحديثة ؟

٢) ديوان شعر : طبع بالقاهرة سنة ١٩٠٣م ، كما يدعى بروكلمان[1] ، ولكنه الآن مفقود[2] .. كما يذكر بروكلمان أن لديوانه مخطوطا بكامبرج تحت رقم ثالث ٥١٨ ، وقد بذلت جهدا للحصول على هذا المخطوط ولكنى لم أتمكن ...

---

(١) ثمار القلوب ص ٨٢ .

(٢) أنظر تاريخ الأدب العربى ٢/١١ ، ولعل بروكلمان يعنى ديوان البديع الذى طبع فعلا سنة ١٩٠٣م بمصر .. فقد أخطأ بروكلمان ونسب مخطوطتى ديوان الصاحب ابن مكانس للصاحب ابن عباد - أنظر كتاب " الصاحب ابن عباد " ص ٢١٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ٢/١١ وكشف الظنون ٥/٧٠٧ ، وشذرات الذهب ٣/١٠٥ ، وبديع الزمان الهمذانى راائد القصة ص ١٠٢ .

ويقول بروكلمان : " ان جامع مخطوط بايزيد يعيب أشعاره عيبا شديدا "(١) وهو يعني المخطوط .. الذى يحوى رسائل ومقامات البديع والذى توهم بروكلمان أنها للخوارزمى وهو تحت رقم ٢٦٤١ .. كما سنرى .. ويعنى بجامع المخطوط " بديع الزمان " فقد وعد بنقد ديوان الخوارزمى كله ولكنه اقتصر على ثلاثة أبيات لاغير ..

٣) **ديوان شعر بالفارسية** : بعنوان " محبت نامه " وجدته بالمكتبة العامة بالرباط - وهو مصور عن مخطوطة موسكو سنة ١٩٦١م تم نسخة سنة ٩١٢ هـ يقع فى ٥١ صفحة وهو تحت رقم ٢٤٢٤٨ فى المكتبة المذكورة .

٤) **كتاب الأمثال** : مخطوط بمكتبة فيض الله باستانبول تحت رقم ٢١٣٣ نسخة كتبت سنة ١٠٢٨ هـ عن نسخة كتبت سنة ٤٤٢ هـ وقد وجدته ضمن مجموعة كتب بعضها للثعالبى وبعضها مجهول المؤلف .. وتحتوى تلك المجموعة على الكتب الاتية :

١ - الامثال ، وقد ثبت لدىّ أنه للخوارزمى ، وسوف أورد مايثبت ذلك .

٢ - المنتخب من سنن العرب ، وهو الذى سماه بروكلمان " المنتخب من سمر العرب " (٢) .

٣ - سر الحقيقة .

٤ - تحسين القبيح وتقبيح الحسن .

٥ - المبهج .

٦ - تحفة الوزراء .

٧ - مواسم العمر .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى ٢/١١١

(٢) أنظر نفس المرجع ٥/١٩٧ .

وقد نسبها بروكلمان للثعالبى [١] ماعدا كتاب " الأمثال " فلم يتعرض له - اعتمادا على ماكتبه مالك المخطوطة فيض الله مفتى السلطنة العلية العثمانية - والذى سميت المكتبة باسمه - فقد كتب هذا المالك على ظهر الغلاف الأول - بعد أن عدد الكتب السبعة - " وكلها للثعالبى ".

أما الكتب نفسها فلم يذكر - لا بأوائلها ولا بأواخرها - اسم يشير الى مؤلفها ماعدا " الأمثال " الذى = سوف يرد ذكره . -

ومع أن للثعالبى كتاب أمثال غير هذا الذى ورد ضمن هذه المجموعة فان بروكلمان لم يذكره ضمن مؤلفات الثعالبى .. أما كتاب تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، وتحفة الوزراء ، والمبهج فمعروف أنها للثعالبى فقد أهدى الأول على عادته لأبى الحسن على بن عيسى الكرجى والثانى لأبى عبد الله الحمد ونى وزير خوارزمشاه ، والثالث لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، ثم أن يذكر الخوارزمى فيها مما ينفى نسبتها للخوارزمى .

وأما كتاب : مواسم الصمر .. فقد يكون له ، فهو كتاب فى الأدعية عبارة عن رسالة صغيرة لاتدل على مقدرة أدبية . وأما كتابا "سر الحقيقة " ، " والمنتخب من سنن العرب " فأشك أنهما للثعالبى ، لانه لم يرد مايثبت نسبتها له ... سوى ماكتبه مالك المخطوطة على الغلاف الأول للمجموعة ، وهذا لايعد دليلا يعتمد عليه ، وسأبين ذلك عند الحديث عن كتاب الأمثال ..

ورغم أن الثعالبى يذكر فى مرآة المروءات [٢] انه ينوى تأليف كتاب فى النقد ثم يذكر فى تتمة اليتيمة أنه ماض فى تأليف كتاب ولم يتمه ، وأنه ينوى أن يسميه

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربى ٥/١٩٣ ، ١٩٧

(٢) أنظر ص ٤٩ .

ب" سر الصناعة "[١] وقد جاء ذكر الكتاب فى الكتابين السابقين بمناسبة نقد الثعالبى لبيت من الشعر ، وعليه فيمكن أن نستنتج أن كتابه هذا الذى لم يتمه ، مؤلف فى النقد قياسا على نقده لذلك البيت .

أقول على الرغم من ذكر الثعالبى لهذا الكتاب فى الموضعين فانه لم يرد ذكره عند غيره ، وعلى الرغم من تقارب العنوانين ، فان كتاب " سر الحقيقة " ليس موضوعه النقد ، بل موضوعه كما ذكر مؤلفه فى المقدمة :

" فيه ذكر من أخبر من العارفين عن حاله أو سئل عن مسألة فأجاب ببيت من الشعر - له أو لغيره - واستشهد به عن حاله أو سؤاله "[٢] .

ويقودنى شكى هذا الى أن أرجح أن هذا الكتاب قد يكون من مؤلفات الخوارزمى .. ذلك أن موضوعه دقيق ، يدل على سعة اطلاع وقوة حافظة .. فى موضوع واحد ، وقد عرف الثعالبى بالجمع بين المواضيع المختلفة .. وله أسلوب متميز فى ذلك ...

ثم هو فى الأدب القديم الذى تخصص فيه الخوارزمى أكثر من غيره .. وأما " المنتخب من سنن العرب " فهو مؤلف فى علم البلاغة وقد قدم له مؤلفه بهذه الكلمات. هذا كتاب وضعته فى مجرى كلام العرب وسننها ، والاستشهادات من القرآن على أكثرها ، ووسمته بالمنتخب من سنن العرب[٣] وفيه ٩٧ فصلا أولها تقديم المؤخر وتأخير المقدم ، وآخرها فى الحشو ...

---

(١) ٣٦/٢

(٢) الورقة ص ٣ من المخطوطة وقع الكتاب بين صفحتى ٦٩ - ١٠٢ من المجموعة.

(٢) ص ٣ من المخطوطة .

وقد يكون هذا الكتاب للخوارزمي أيضا بل ترجيحه أقوى من ترجيح " سر الحقيقة " وذلك أن الثعالبي لم يعرف عنه أنه ألف في هذا العلم ، في حين أن الخوارزمي يعد من أعلام اللغة والبلاغة في عصره ، ويدل على تأليف الخوارزمي في هذا العلم ماورده صاحب كتاب " أنوار الربيع " في معرض استشهاده لنوع من أنواع البديع حيث قال : " واستشهد الأستاذ أبو بكر الخوارزمي على هذا النوع (يعني الطاعة والعصيان) بقول المتنبي :

أرأيت همة ناقتي في ناقة * نقلت يدا سرحا وخفا مجمرا (١)

قال : أراد أن يقول : خفا خفيفا ، ليتفق له جناس الاشتقاق ، فلما لم يطعه الوزن ، ولا القافية ، عدل عن لفظة " خفيف " الى لفظة " مجمر " لما فيها من معنى السرعة ، والخفة ، فكان تجنيسا معنويا ، فقد عصاه الجناس اللفظي وأطاعه الجناس المعنوي " (٢) .

وأما كتاب الأمثال وهو بيت القصيد .. وهو الكتاب الموجود ضمن مجموعة (فيض الله) ، فقد ثبت لدي أنه من تأليف الخوارزمي وأن من نسبه للثعالبي قد غلط في ذلك وهذه هي الأدلة .

(١) أسلوب مقدمته الذي يدل على تواضع مؤلفه وتصغير عمله .. وهذه طريقة الخوارزمي : اسمعه يقول لمن استعار رسائله : ... نسخة الرسائل قد حملتها ، وماتساوى عندي أن تهدى الى أحد أو تحمل من بلد الى بلد ، ولكن الشيخ اشتهاها شهوق راكب الخيل لركوب الحمار والبغل .. ولعله

---

(١) المجمر اسم فاعل من : أجمر البعير اذا أسرع : والسرح : بضمتين : السهلة السير ٦/١٧ - ١٨ .

(٢) أنوار الربيع ٦/١٧ - ١٨ .

أراد أن يضحك منها ندماءه ويتحف بها جلساءه "[1] ، وهو نفس التواضع الذى نجده فى مقدمة كتاب الأمثال هذا [2] . فى حين نجد أن الثعالبى يفاخر ضنّه بكتبه ويدعى أنه لم يسبق الى مثل فنه الذى ألف فيه ، اسمعه يقول فى مقدمة كتابه " تحسين القبيح " ومأأرانى سبقت الى مثله فى طرائف المؤلفات ، وبدائع المصنفات ، ولما ارتفع غربها فى فنه بديعا فى حسنه خدمت به خزانة الشيخ [3] .

٢) أن للثعالبى كتاب أمثال مخطوطا غير كتابنا هذا باستنبول " خزنه " تحت رقم ٣/١١٥٠ فى ٦٨ ورقة وهو مصور فى معهد احياء المخطوطات العربية بالقاهرة وتحت رقم ٦٢ .

وموضوعه يختلف عن موضوع كتاب أمثال الخوارزمى ، فهو مقسم الى أحد عشر ومائة باب وقد عقد كل باب لغرض يتناول ماقيل فى مدح الشيء وذمه بعينه من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال العرب ، والعجم كما أودعه نبذا من أقواله فى كتاب المبهج [4] فى حين أن كتاب الأمثال للخوارزمى اقتصر على أمثال المولدين وختمه بالأراجيز وأنصاف الأبيات القائمة بذاتها وأكثرها أمثال ورغم أن المخطوطين مصوران فى معهد احياء المخطوطات أحدهما تحت رقم ٦٢ والآخر يليه مباشرة اذ يقع تحت رقم ٦٣ ، فقد غلط مؤلف كتاب " الثعالبى ناقدا وأديبا " فاعتقد أنهما نسختان لكتاب واحد [5] ، هو كتاب أمثال الثعالبى مع الفرق الذى بيّناه ..

---

(١) أنظر رسائل الخوارزمى ص ٩١ . (٢) أنظر هذه الرسالة ص ٥٩ وما بعدها

(٣) أنظر المخطوطة ورقة رقم ٣ ، انظر أيضا مقدمة اليتيمة ١/٨ .

(٤) قارن مابين ورقة رقم ٤ من الأمثال وص ٣٧ من المبهج .

(٥) أنظر ص ٨٧ .

ونستبعد أن يؤلف مؤلف كتابين باسم واحد فى فن واحد ..

٣) أن المؤرخين وكتاب الأمثال ، ذكروا أن الخوارزمى ألف كتابا فى أمثال المولدين فهذا البيهقى يقول عنه فى كتابه " غرر الأمثال : " انه ألف كتابا فى الأمثال المولدة "(١) ، وقال الميدانى : " ورأيت فى أمالى الخوارزمى لا أفعل كذا ماغبافبيس" ، أن معنى غبا : أظلم (٢)" .. فى معرض شرح الميدانى لهذا المثل .. ويقول شهاب الدين الخفاجى بعد ايراده المثل (أكذب من زراق) : قاله أبو بكر الخوارزمى فى أمثاله ولم يذكر كونه مولدا لكنه مذكور فى اللغة الساسانية وهو يدل على أنه مولد "(٣) .

٤) أنه مكتوب بآخر صفحة لهذا الكتاب بخط الناسخ النص التالى : " آخر كتاب الأمثال جمع أبى بكر الخوارزمى " ، ويظهر هذا فى الصورة المقابلة .. ولعل بروكلمان اقتنع بهذا فلم ينسب الكتاب للثعالبى ، مع أنه نسب كل كتب المجموعة سالفة الذكر له ، اذ أن الناسخ أصدق من مالك المخطوطة الذى غلط حتى فى اسم الثعالبى حيث كتب على نفس الصفحة" تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل ... أبى اسماعيل بن عبد الملك بن منصور الثعالبى " فى حين أن اسم الثعالبى الكامل هو : " أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى " ولم يخالف فى هذا أحد من المؤرخين (٤) . وبعد هذه الأدلة كلها اتضح لى بالدليل القاطع أن كتاب الأمثال المذكور للخوارزمى ، وأن كتابة مالك المخطوطة لا تعد أكثر من توهم أن كل المجموعة من تأليف الثعالبى ولو قرأ الأمثال لآخرها لتبين له خطأه .

---

(١) أنظر الأمثال القديمة ص ٢١٦ .
(٢) أنظر مجمع الأمثال ٢/٢٣٩ وغبيس : الليل ٢/٢٣٩ القاموس المحيط .
(٣) أنظر شفاء الغليل ص ١٤٣ وص ٢٧٩ .
(٤) أنظر كتاب الثعالبى ناقدا وأديبا ص ١٧ .

وهذا الأمر يدفعنا للتساؤل : هل بعض الكتب التى نسبت للثعالبى واشتهرت باسمه هي من تأليف الخوارزمى ؟

هذا جائز - خاصة وأن الثعالبى تلميذ للخوارزمى ، وقد توفى الأخير مخلفا وراءه مكتبة عامرة بمؤلفاته ومقتنياته ، وأظن أن هذه المؤلفات بقيت تحت رعاية الثعالبى .. اما بالاتصال بها للاستفادة منها أو لوجودها بين يديه .. فقد ذكر الثعالبى مايدل على فضل أستاذه عليه فى أكثر ما كتب كقوله : فى السرى الرفاء : " أحسب أننى استغرقت شعره لجمعى بين لمع أنشدينيها وأنسخنيها أبو بكر الخوارزمى "(١) وقوله " وجدت بخط الخوارزمى "(٢) وقوله : " وأعطانى نسختى القصيدتين اللتين ذكرهما فى الكتاب "(٣) وقوله : " ماكان أكثر ماينشدنى ويكتبنى مما يضن به على غيرى "(٤) ، وكثيرا ماينقل عنه . ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الثعالبى من ذكر شىء من أدب الخوارزمى حتى أنه يمكن أن نعد ذكر الثعالبى للخوارزمى فى أى كتاب له دليل على نسبته له ... ولا شك أن حرص الثعالبى على كتب أستاذه جعله يقتنيها ، حتى اذا توفى الثعالبى وجاء بعده من ينسخ كتبه أو يجمعها .. سواء بعد زمن طويل أوقصير - جمع كتبه وكتب أستاذه وظن أنها كلها له لوجودها فى مكتبته الخاصة ولكثرة تأليفه ، وهو احتمال غير مستبعد .. بدليل ماوجدناه فى مخطوطة فيض الله .

والاحتمال الثانى - وان كان بعيدا - أن الثعالبى استغل مؤلفات الخوارزمى - وخاصة التى لم تذع بين الناس - ونسبها الى نفسه لينال بها أعطيات أمراء عصره الذين كانوا يجزلون العطاء للمؤلفين (خاصة أولئك الذين يهدونها باسمهم) .. وتحقيق هذه القضية لا يتسع له بحثى ... ويكفى أنى أشرت اليه

---

(١) اليتيمة ٢/١١٩
(٢) نفس المصدر ١/٩٠.
(٣) نفس المصدر ٣/٢٩٦.
(٤) نفس المصدر ١/٢٦.

ونبهت عليـــــــه .

٥) كتاب " مفيد العلوم ومبيد الهمـــوم " : هذا الكتاب ينسبه له مؤرخـــــو الأدب المتأخرون (١) ولم يشـــذ عنهم سوى صاحب كتاب كشف الظنون حيث نسبه لبعض الضاربة (٢) ، وقد طبع هذا الكتاب باسم الشيخ الامام العلامة : جمال الدين أبي بكر الخوارزمي غير أن أكثر مواضيعه دينيـــــة في التوحيد والفقه والايمان والمذاهب والجغرافيا ... ولم يعرف عن أبـــي بكر الخوارزمي أنه كان يؤلف في هذه المواضيع ، كما أن المؤلف يذكـــــر قولا مشهورا ذكرته كثير من المصادر لأبي بكر الخوارزمي (٣) مستشهدا به اذ قال - في معرض كلامه عن أطيب البلاد وأنزهها : " قال أبو بكر الخوارزمـــي : رأيت هذه المواضع كلها ، فأطيبها وأحسنها غوطة دمشق ..." (٤) فلو كان الكتاب له ، لم يتكلم عن نفســـه بضمير الغائب وينســـب القول لنفســه بهذه الصيغة .. ولو كان في أول الكلام لجاز أنه يتحدث بطريقة القدمـــاء في تفخيم أنفســـهم .

ثم أن مؤلف هذا الكتاب يقول : " افترقت الأمة من أهل القبلة علـــى اثنتين وسبعين فرقة ، أهل الحق منهم السنية الأشعرية ، ومن سواهـــم فضلال " (٥) ويقول : " والدليل على أن الناجي أهل السنة دون ..

---

(١) أنظر معجم المطبوعات العربية والمصرية ١/٨٣٨ .

(٢) ٢/١٧٧٧ .

(٣) أنظر ثمار القلوب ٥٢٦ ، ومعجم البلدان ٢/٤٦٤ ، وآثار البلاد وأخبـــار العباد ص ١٨٩ ، ٢٨٢ وبلوغ الأرب ١/١٨٦ ، وروضات الجنات ٨/٨٨ ، وغيرهـــا .

(٤) ص ١١٢ .

(٥) ص ١٥ .

القدرية والمشبهة والروافض ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أنا عليه .. "[١] ويقول : " ومن سواهم فضلال فالطائفة الأولى غلاة المعتزلة ... والخوارج والنجارية والجهمية والروافض "[٢] . ويقول عن أهل السنة أيضا : " لا يغالون في عداوة الصحابة فيكونون كالروافض ولا يقصرون في محبة عثمان وعلي فيكونون كالخوارج "[٣] .

فهل يعقل أن يكون مؤلف هذا الكتاب وقائل هذه العبارات هو الخوارزمي ؟ وهو من هو في تعصبه للروافض من الشيعة ؟ ، وتكفي رسالته الموجهة لجماعة الشيعة بنيسابور لمّا قصدهم واليها :[٤] ردا على هذا . وأهم من هذا كله أنه يوجد لهذا الكتاب نسخة بنفس المقدمة والأبواب بالمتحف البريطاني تحت رقم ٧١٢[٥] للامام جمال الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد القزويني .. فكيف نسب هذا الكتاب لأبي بكر ؟

والسؤال - طبعا - يوجه للناشر للكتاب (المطبعة اليوسفية بمصر) والذي لم يذكر حتى تاريخ طبعته .

٦) رسم المعمور من البلاد[٦] : نسبه اليه خطأ صاحب كتاب " هدية العارفين ، وصاحب كتاب " معجم المؤلفين "[٧] وكذا " أنوار الربيع "[٨] . وهذا الكتاب في علم الجغرافيا لمحمد بن موسى بن شاكر الخوارزمي المتوفى سنة ٢٥٩ هـ وهو مطبوع باسم مؤلفه الحقيقي (٩) .

---

(١) ص ٣٢ (٢) ص ١٥ .
(٣) ص ٣٣ (٤) أنظر رسائل الخوارزمي ص ٦٧-٣ .
(٥) أنظر ملحق فهرس المتحف البريطاني ص ٤٨٥ .
(٦) ٥٧/٦ .
(٧) ١٢٠/١٠ .
(٨) ١٨٩/١ وذكر الديار بدل البلاد .
(٩) أنظر فهرس دار الكتب المصرية ٣٩/٦ .

٦) المكارم والمفاخـــر : نشره عزت العطار وكتب على غلافه " لأبي بكـــر محمد بن العباس الخوارزمي والناشـــر لا يملك على نسبته للخوارزمـــي سوى أسلوب الكتاب الذي يشـــبه أسلوب الخوارزمي .. اذ يقول : " أننـــا لا نملك من الأدلـــة ما يثبت صحة نسـبة هذه الرسالة للخوارزمي .. ونكاد نجزم أنها لابد أن تكون من انشائه ووضعه ، لأن طريقته في الكتابـــة وأسلوبه في التركيب يتجليان في انشـــاء الرســـالة وأسلوب تأليفها "(١) فالرسالة اذا مجهولة المؤلف وناشـــرها نسبها للخوارزمي اجتهادا منـــه لقرب أسلوبها من أسلوبه . وهو يعني أسلوب الخوارزمي في رسائلـــه اذ هي الكتاب المشـــهور ...

وأنا أستبعد أن تكون هذه الرسالة للخوارزمي لأمرين :

الأول : أنه اذا لم يكن لدى الناشـــر سوى هذا السبب لنسبتهـــا للخوارزمي فهو سبب ضعيف ، ذلك أن أسلوب هذه الرسالة يغلب عليـــه الترســـل وعدم الاكتراث والاحتفال بالتراكيب .. وأسلوب الخوارزمـــي أسلوب مصنع مسجـوع يحتفل فيه بالألفاظ ويعتمد اختيارها - بالرغم مـــن أن الخوارزمي انما يسجع ويتصنع في رسائله الأدبية - ليظهر مقدرتـــه الفنيـــة فيها فاذا كتب في المواضيع العلمية = لطف أسلوبه وسهل ، ومال الى الترسل ، كما نرى ذلك في مقدمة كتاب الأمثال .

والثاني : أن مؤلف هذه الرسالة يقول : في معرض ذكره لأجواد العـــرب في الجاهلية حاثا الحنفية على السخاء والبذل والكرم : " فهذا يا معشـــر العظماء أخلاق من لا يؤمن بالله واليوم الآخر فهل ترى اليوم في الحنفيـــة من يباريهم ويساميهم ؟ هيهات "(٢) .

---

(١) ص ٤٠ (٢) ص ١٦٠

وهذا يدلنا على أن مؤلف هذه الرسالة من شيوخ الحنفية ، اذ هو يحث أهل مذهبه على الجود والسخاء .. والخوارزمي عرفناه متشيعا فما له وللحنفية ؟ .. ويظهر أن اتفاق أبي بكر الخوارزمي مع أكثر من واحد من مؤلفي عصره في الكنية والنسبة هو سبب خلط كثير من المحدثين بين مؤلفاته ومؤلفات غيره .. فهناك محمد بن موسى / شيخ أهل الرأي وفقيههم انتهت اليه الرئاسة في مذهب أبي حنيفة توفي سنة ٤٠٣ هـ (١) . وهناك محمد بن موسى بن عثمان بن موسى (٢) .. و / محمد بن أحمد بن غالب / ت ٤٢٥ هـ (٣) ، وكلهم يكنى ويلقب بـ " أبي بكر الخوارزمي " حتى أن بعضهم خلط بينهم حتى في الترجمة .. كما ترى ذلك عند " الفيت فيليب دي طرازي " الذي يقول عن أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي " كان ورعا متقنا مبتنا لم ير في شيوخنا أثبت منه ، وصنف تصانيف كثيرة ، وكان له كتب كثيرة . وكان عدد أسفاط كتبه ثلاثة وستين سفطا وصندوقين (٤) وهذه الترجمة كما هي ثابتة في تاريخ الخطيب هي لخوارزمي آخر هو شيخ الحنفية في بغداد السابق ذكره " (٥) .

٨) كتاب مقامات : وذكر بروكلمان : أن للخوارزمي مقامات ضمن رسائله المخطوطة ببايزيد ٢٦٤٠ " يبرز فيها عيسى بن هشام كما في مقامات بديع الزمان الهمذاني " (٦) ويقول في موضع آخر بناء على هذا : " ان بديع الزمان الهمذاني مبتكر فن المقامات في الأدب العربي اذا لم يكن منافسه الخوارزمي سبق الى ذلك " .. (٦) .

---

(١) أنظر المنتظم ٢٦٦/٧ ، وتاريخ بغداد ٢٤٧/٣ ، ومعجم الأدباء ٦٧/١ ، ٦٨ .
(٢) أنظر طبقات الشافعية ١٨٩/٤ .
(٣) نفس المصدر ١٩/٣ وتاريخ بغداد ٣٧٣/٤ - ٣٧٦ .
(٤) خزائن الكتب العربية في الخافقين ٧٢٤/٢ .
(٥) أنظر تاريخ بغداد ٢٤٧/٣ . (٦) تاريخ الأدب العربي ١١١/٢ .

وكان هذا القول من بروكلمان حافزا قويا لى لاكتشف هذه المقامات وهو اكتشاف لو تم يمكن أن يغير مفاهيم كثيرة عن القضايا الأدبية وخاصة " قضية اختراع المقامات " التى شغلت الأدباء طويلا .. ولكنى أصبت بخيبة أمل = بعد أن تكبدت مشاق السفر الى استانبول = لأجد أن كل ماتحويه المخطوطة من رسائل ومقامات هو لبديع الزمان ... والذى أوهم بروكلمان - وجعلنى أتحمل نتيجة غلطته ولعلنى ليس الوحيد - أمران :

الأول : تغيير صاحب المكتبة أو مالك المخطوطة عنوان الكتاب فعنوان الكتاب هو " كتاب مقامات الأستاذ بديع الزمان أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى - رحمه الله تعالى - " فحرفه ليصبح كالاتى : " رد الأستاذ الحافظ بديع الزمان أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى - رحمه الله تعالى لمقامات خوارزمى " .. كما كتب على حافة المخطوطة " مقامات البديعى ومقامات خوارزمى " .. ولكن التحريف واضح يدرك من أول نظرة .. حتى أنه حرف فى الأسماء كما نرى وهو يدل على عدم تمكنه من العربية بدليل تركيب عبارته . (١)

والثانى : أن سياق حديث المؤلف نفسه أو جامع مقامات البديع وما يحويه المخطوط من رسائل وشعر ، يوهم القارئ أن ما أورده من مقامات هو للخوارزمى .. فبديع الزمان فى المقدمة ، وبعد أن يأتى على ديوان الخوارزمى وشعره بالنقد حيث يقول : " وسنأتى بعون الله تعالى على القصائد التى إدعاها وأعرفك من أين سرق مسروقها فأكشف لك عيوبه حتى نأتى على ديوانه أجمع ، ثم نفرغ لرسائله ، فأعرفك مايرد من أسجاعه .. (٢)

---

(١) وصاحب المكتبة هو / ولي الدين أفندى ابن المرحوم الحاج مصطفى أفندى كما يظهر ذلك من الختوم على آخر ورقة وعليه تاريخ ١١٧٥هـ.

(٢) ص ١٠٠ من المخطوطة.

ولكنه لم يف بوعده واكتفى بنقد ثلاثة أبيات فقط من شعر الخوارزمى أو لعل الناسخ. اكتفى بذلك .. ثم استأنف الحديث عن مقامات البديع ، دون أن يشعر القارئ بهذه النقلة ، وكأن الكلام لا يزال لبديع الزمان . فيقول : " ومن المقامات التى عملها على ألسنة المكدين مقامة الفرس (١) فكأن الهاء فى قوله " عملها " للخوارزمى لأنه يتكلم عن شعره .

على أن المخطوطة نفسها تنقسم الى قسمين :

الأول منها يحتوى على خمسين مقامة هي المقامات المعروفة للبديع وناسخها هو مصطفى المصرى وذلك سنة ١١٢٦ هـ . فى حين أن القسم الثانى من المخطوطة يحتوى على ١٧ مقامة للبديع فقط ، وعلى بعض رسائله وكثير من شعره وناسخها هو : أبو الفلاح محمد بن شاهر بن بكر بن اسماعيل الحموى ١٠٩٨ هـ .

ولعل بروكلمان ظن أن السبع عشرة مقامة الموجودة فى الجزء الثانى هي .. للخوارزمى .. ، ولو تأملها لوجد أنها مكررة فى الجزء الأول أوهي مختارة من الخمسين مقامة الأول .

وقد قارنت بين تلك المقامات ومقامات وجدتها مخطوطة فى مكتبة " نور عثمانية " تحت رقم ٤٢٧٠ تم نسخها سنة ١٠٢٣ لم يذكر اسم ناسخها . فوجدتها هي نفس مقامات البديع وبنفس ترتيب تلك الموجودة فى مكتبة بايزيد ٢٦٤٠ حتى لا يكون فى النفس شك أن السبع عشرة مقامة الموجودة فى الجزء الثانى من مخطوطة بايزيد للخوارزمى وأن المؤرخين والنساخ أضافوها للبديع .

ومهما يكن من أمر فان الخوارزمى لا يحتمل أن يسبكتب فى هذا الفن .. ذلك أن البديع تحداه عندما عاب مقاماته أن يأتى بخمس مقامات أو عشر

---

(١) ص ١٠١ من نفس المصدر .

من مثلهـــن [١] ، وهو دليل على أن الخوارزمى لم يسبق له أن ألف فى هـــذا الفن .. وغير محتمل أن يستجيب لتحدى منافســـه وهو فى آخريات أيامـــه .. ولو قبل تحديه وأنشـأ مقامات لصار لها ذكر ولتناولها البديع بالنقد ولكثر فيهـــا الأخذ والرد كما هو الأمر فى شـــأن المناظرة .

٩) **وله رسالة مخطوطة بالمكتبة السليمانية** ، ومثبتة فى رسائله [٢] .. وهـــي تلك الرسالة التى وجهها لجماعة الشـــيعة بنيسابور ثم نسخها سنة ١٢١١هـ وعدد صفحاتها ١٣ .

١٠) **شـــرح ديوان المتنبى** : (مفقود) وقد ذكره صاحب كتاب الصبح المنبى [٣] ويؤيد هذا ، العكبرى فى شـــرحه لديوان المتنبى ، حيث يقول : " ونقلت كتابـــى هذا من أقاويل شراحه الأعلام " ويذكر منهم أبا بكر الخوارزمـــى [٤] وينقل عنه (٥) كما أن الواحدى فى شرحه لديوان المتنبى يكثر النقل عن أبى بكر الخوارزمى (٦) .. والواحدى يعد تلميذا للخوارزمى فقد ذكر ياقوت أنه ينيبه عنه على درسه اذا غاب .. فليس غريبا أن يكثر نقله عنه .

١١) **كتاب الأنســـاب** : (مفقود) ذكره الخفاجى ، ولم يرد ذكره عند من ترجموا لـــه ، ولا فى كشف الظنون ، ولم يذكر الخفاجى (أبو بكر) واقتصر على ذكـــر (الخوارزمى) فقط [٧] .. وليس بمستبعد أن يؤلف فيها فهو من علمائها [٨] .

---

(١) أنظر رسائل البديع ص ١٦٩ ومخطوطة بايزيد ص ١٠٠ .
(٢) أنظر رسائل الخوارزمى ٧٦ - ٨٣ .
(٣) ص ١٦١ وانظر كذلك الكشف عن مساوى المتنبى ص ١٦ .
(٤) أنظر شـــرح التبيـــان ١/٢ - ٣ .
(٥) أنظر الصفحات ١/٥٦ ، ٥٩ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، .. وغيرها .
(٦) أنظر الصفحات ٢٩ ، ٣٤ ، ١٢٢ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٣١ ، ٢٣١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٣٤٥ ، ٥٤٥ ، ٧٦٧ .
(٧) أنظر شفاء الغليل ص ٢٥ حيث قال فى كلمة " مهدى " قال الخوارزمى فى كتاب الانساب يقال للذى لا أهل له فى العتق : خارجى وللذى نسبوه الى من ولده لا الى مولده : مهدى ، عبدى .
(٨) انظر الانساب للسمعانى ٢١٣٥ واللباب ص ١٧١ .

ونحن فى ختام استعراضنا لمؤلفات الخوارزمى .. نلاحظ قلتها اذا قسناها بشـــهرته ومكانته وسعة ثقافتـه وغزارة معلوماته ..

ولعل من أســباب قلة ما أثر عنـه من مؤلفات انشغاله بالتدريس والروايـــة واعتمادا الى كثرة من نقلوا عنه من مشـهورى كتاب القرن الرابع ... أمثـــال الثعالبى فى اليتيمـة وفى فقه اللغة وغيرها من كتبه والمرزبانى فى موشـحـــه والواحدى فى شـرحه لديوان المتنبى ، والعكبرى فى التبيـان ، أقول : انـه لو اتجه للتأليـف واهتم به اهتمامه بالتدريس والمحاضرات لكان لنا منه ذخـــيرة ضخمة من الكتب تعلو على ما للثعالبى عددا وقيمة ...

====

**

الفصل الثانـي

النثـر

أ) رسائله الواردة في ديوانـه :

جال الخوارزمي في ميداني النثر والشعر فأسهم في كل منهما فهو من الكتـاب الشعراء أو الشعراء الكتـاب .

وتلك حال أكثر مشاهير الادباء في عصره كابن العميد والصابيء والصاحـب ، وبديع الزمان والبيغاء ، وقابوس بن ووشمكير وغيرهم .. فقد كانوا لا يعدون الاديـب بليغا حتى يجمع بين الكتابة والشعر بل ويكون فيهما على السواء من حيث الاجادة .

يقول بديع الزمان : (البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره) (١)
ويقول الخوارزمي : (والكتابة آلة عجيبة وهي من الشاعر أعجب ، كما أن الشعر صناعـة غريبة وهي من الكاتب أغرب) (٢) .

غير أن لنقاد عصرهم رأيا يخالف هذا ، فنرى الكلاعي يقول : (ان الكتابـة والشعر شيئان متنافران لتنافر طبائع اهلهما) (٣) . ويستشهد بالمثل القائل (اثنـان قلما يجتمعان : اللسان البليـغ ، والشعر الجيد) (٤) .

ونحن لسنا مع الكلاعي فيما ذهب اليه ، كما أننا لسنا مع البديع والخوارزمـي

---

(١) مقامات بديع الزمان (المقامة الجاحظية) ص٧٥
(٢) رسائل الخوارزمي ص٢٤
(٣) احكام صنعة الكلام ص٣٩
(٤) البيان والتبيين ١ / ٢٤٣ ، احكام صنعة الكلام ص٣٩

فى شرطهما .. ذلك أنه يمكن أن يجمع الاديب بين الفنين فلا نجد بينهما منافـــرة والشاهد على ذلك معظم أدباء القرن الرابع الذين كانوا يجمعون بينهما .

ولسنا نشترط مااشترطه البديع لان الاديب المنقطع لاحد الفنين غالبا مايكون أبلغ ممن يجمع بينهما .. ولنا عبرة باولئك الشعراء الفحول الذين انقطعوا للشعـــــر كالمتنبى والبحترى وغيرهما . وشعر الكتاب ومنهم الخوارزمى وبديع الزمان لا يرقى الـــى مستوى شعر اولئك .. الفحول .. وهذه قضية يطول فيها الكلام لو أردنا الاستقصاء .

والذى يهمنا من هذه القضية هو معرفة مدى اجادة الخوارزمى فى كل مـــــن النثر والشعر .. وفى أى الميدانين كان أقوى .. ولانجد ممن ترجموا له فى القديـــم من تعرض لهذه المسألة سوى ماذكره السمعانى فى قوله : (كان قريضه يقصر عن شعره)(١)

ويمكن ان نفهم من كلام السمعانى أن شعر الخوارزمى ليس شعر الطبـــع والقريحة بل كان شعر العالم الذى قال الشعر لكثرة حفظه منه ومطالعته فى فنونه (٢) .

وبعض كتابنا المعاصرين ، يرون أن الخوارزمى أقوى فى النثر منه فى الشعـــر (٣) ونحن لانجزم بهذا .. لان هؤلاء بنوا حكمهم على ماوصلوا اليه من أدبه .. المتمثل فى ديوان رسائله وبعض شعره الموجود فى اليتيمة .. وهذه النتف القليلة من شعره لاتمثل كل شعره ـ لا كما ولا كيفا ـ فلعل له شعرا أكثر جودة وأقوى مما عثرنـــا عليه فى اليتيمة .. خاصة أن للثعالبى منهجا فى يتيمته قائما على اختيار ماقيل فـــى غرض المدح أوالتطرف والفاكهة ، وهى الاغراض التى توحى أذواق عصره .. ثم انـــه

---

(١) الانساب للسمعانى ٥ / ٢١٣ ـ ٢١٤

(٢) وقد عاب ابن طباطب الشعر الذى زادت فيه القريحة على العقل : عيار الشعر ص ٩١

(٣) انظر النثر الفنى ٢ / ٣١٦ وتاريخ الادب العربى لفروخ ص ٥٤٥ وتاريخ الادب العربى للزيات ص ٤٠٠ ومجلة الرسالة العدد ٤٠ ص ٥٨٠

جمع فى كتابه ذلك ، شعرا لعشرات من الادباء فمن له باحاطة كل شعرهم .. فقد يكون فى ديوان الخوارزمى المفقود مايفوق فى الجودة ماأثبته له الثعالبى أوغيره .. فى النواحى الانسانية أوالنفسية أوفى التعبير عن العواطف وخوالج النفوس مما قد لاتكون لفتت نظر الثعالبى .

ومن ترجموا لهمن القدامى يقدمون صفة الشاعرية على النثر من مثل قولهم : (الشاعر المعروف) (١) ، (أوالشاعر المشهور (٢)) أو قولهم (أحد الشعراء المجيدين الكبار) (٣) .

فالظن أن شهرته كشاعر لاتقل عن شهرته فى النثر وانتاجه فى الشعر لايقل عن نتاجه فى النثر ان لم يفقه (٤) . وليس هذا تقليلا لقيمة نثره .. فنثره رغم ماأغرقه به من الصنعة البديعية يستحق الدرس والتأمل .. على أن تلك الصنعة هى التى سنها لهم ابن العميد .. استاذ هذه المدرسة وامتدحها نقاد عصرهم .. كقول أحدهم : (وسمينا هذا :المصنوع ، لانه نمق بالتصنيع ووشى بأنواع البديع وحلى بكثرة الفواصل ،واستجلب له منها مايلذ فى القلوب ويحسن فى الاسماع .. وهى كتابة الصاحب والهمذانى .. وأبى بكر الخوارزمى) (٥) . كما عاب الاسلوب المرسل وسماه العاطل وقال فيه : (وانما سميناه العاطل لقلة تحليته بالاسجاع والفواصل) (٦) .

ولكلف أهل العصر بالبديع وعنايتهم به فى كتابتهم زادوا فيه أنواعا جديدة

---

(١) الانساب للسمعانى ٥/٢١٣ وشذرات الذهب ٣/١٠٥

(٢) طبقات النحاة ص١٣٠ والوافى ٣/١٩٢

(٣) وفيات الاعيان ٤/٤٠١

(٤) انظر نماذج الرثاء والعتاب والاعتذار (الفصل الثالث من الباب الثالث من هذه الد...

(٥) احكام صنعة الكلام ص١١٤، ١١٥

(٦) نفس المرجع ص٩٦

لم تعرف عند من سبقهم وبلغت الانواع التي أنهاقوها ثلاثة عشر نوعا (١) ، وحتى وصلت على يديهم ثلاثين نوعا (٢) . ولما كانت هذه طريقة الكتاب في عصره ولم ينج منها الا أبو هلال العسكري وعلي بن عبد العزيز الجرجاني وهي الذوق المقبول السائد في أهل زمانه ، اتبع هذه الطريقة وافتن فيها حتى غدت رسائله نماذج يحتذيها الكتاب ويدرس عليها الطلاب . كل هذا ليحظى بعطايا الولاة والوزراء ويحتل المكانة الرفيعة بين الادباء .

وأظن أنه لو خالف هذا الذوق .. وجرد كتابته من زينتها واتبع الاسلوب المرسل .. لم يجد من ابناء عصره من يهتم برسائله ذلك الاهتمام ، ولما حظي بتلك المنزلة بين الادباء ولما نال من الولاة ما نال حتى أصبح من أغنياء الادباء وقلما يغتني الادباء .

قلت هذا ليقف معي القارئ وقفة المتأمل المنصف .. فيحكم على الخوارزمي بذوق عصره ولا بأس من قراءة ما سوف أورده من نماذج نثره بسبب هذا الزخم الوفير من أنواع البديع والزخرف .. اذ هو الميدان الذي كان الادباء يتسابقون فيه .. حتى عاب بديع الزمان نثر الجاحظ لتجرده من الصنعة والبديع حيث يقول : (كلامه بعيد الاشارات قليل الاستعارات قريب العبارات منقاد لعنان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة) (٣) .

وسوف أبدأ اولا بدراسة نثره وهو المشتمل على رسائله (أهم ما حفظه الزمان لنا من كتبه) ومقدمة كتابه الامثال وما جمعته من المراجع المتعددة .

---

(١) انظر كمال البلاغة ص١٩ـ٢٢

(٢) انظر الصناعتين ص١١ وما بعدها

(٣) مقامات البديع ص٧٥ ، ٧٦

والخوارزمي طرق بنشره كل اغراض الشعر .. لان النثر زاحم الشعر في ميدانه وأصبح الولاة والوزراء يجيزون عليه كما يجيزون على الشعر بل لعله فاقه فقد تطرق الى التهنئه والمدح والهجاء والعتاب والتعزية ، والفخر والحماسة والحكمة والوصف والشكوى من الزمان ..الخ

٥٥

التهنئـــــة

ولنبدأ بغرض التهنئة : كتب الى أبي القاسم الحسن بن على صاحب جيش الصفانيان يهنئه بالنصر :

(لم يزل يبلغني ما يرتفع على يد الامير من الفتوح التي تفتح لها أبواب السماء ، ويفوح منها روائح العز والسناء في اولئك الاعداء الذين امتنعوا بشدة كلبهم ،وقلة سلبهم ،ومشاركة المسلمين قديما لهم ، ورضاهم رأسا برأس منهم ، حتى لقد حقنت الدماء ،وسكنت الدهماء ،وأمنت السبل ،واجتمع الشمل ،ورجع النافر ،وعمر الغامر ،واجتمعت الكلمة واتفقت البيضة ، وأغمد السيف ، وركز الرمح ، وقرت الامور قرارها ، ووضعت الحرب أوزارها ،وهذا صنع لم يخص الله تعالى به أهل أفق دون أفق ، ولا أقر بمزيته سكان غرب دون سكان شرق ، اذ كانت النعمة فيه عمت كل من عرف الاسلام وفضله ، وعادى الشرك وأهله .

لا زال الامير يرى كل يوم بسيفه فتحا يعظم به الخطب ،وتستبق فيه الكتب ، ولا زال الشرك من قتلاه والنفاق من جرحاه والفساد في الارض من أسراه ، حتى تملأ فتوحه كل سامع وناظر ، وتشغل كل كاتب و شاعر) (١) .

---

(١) رسائل الخوارزمي ص٩٦

ومناسبة هذه التهنئة كما يبدو هى انتصار صاحب جيش الصفانيان على الكفار المحيطين بالمملكة الاسلامية من الشرق • وقد قل نشاط الفتوح الاسلامية فى هذه الفترة بعكس الفتوح فى غربها • وخاصة فى الشام ولهذا لانجد فيها الادب الذى يمجد الانتصارات ويشيد بالفتوح • وهذه القطعة تمثل هذه الناحية وان كانت نادرة وكأنه حدث غير متوقع ولذلك قال الخوارزمى (وأغمد السيف •• وقرت الامور •• ووضعت الحرب اوزارها) •

وكان الامر الطبيعى الا تضع الحرب اوزارها ولا يغمد السيف مع اعداء الدولة الاسلامية •

وقد أحسن فى تصوير فرحة النصر التى عمت كل اقطار العالم الاسلامى ففرح لها كل من عرف الاسلام وفضله ولم يجعلها خاصة بهذا الجزء من العالم الاسلامى وما أحسن استعارته فى قوله (لازال الشرك من أسراه •••) ومع ذلك فالحدث أكبر من أن تفى به قطعة نثرية قصيرة كهذه فلم يبلغ الخوارزمى مايجب أن يقال فى مثل هذه المناسبة • ولعل الشعر كان أقدر على التعبير عن مثل هذا الموقف •• ولكن القوم ــ كما ذكرنا ــ استخدموا النثر استخدام الشعر •

وكتب اليه يهنئه بالفتح •• ولا ندرى أهو نفس الفتح السابق أم هو فتح جديد يقول (انقطع كتابى عن الشيخ •• لانه كان مشغولا بكتائب الاعداء عن كتب الاولياء ومقارعة الامراء عن مطالعة الادباء (والسيف أصدق أنباء من الكتب) •

فلا جرم أنه قد اسفرت آماله عن المساعى الغره وعن الاثار الزهره وعن الفتح والنصره فاسترع مملكة طالما خطبت فما نكحت ، وطلبت فماوجدت :

بكر فما افترعتها كف حادثـــــة ولا ترقت اليها همة النـــــوب

ومرزة الوجه قد اعيت رياضتهـــــا كسرى وصدت صدود اعن أبى كـــرب

وعلى قدر الهمة تكون مقادير الاثار ، وفى دون القيمة يكون افتراع الابكـــار وشتان بين من افتض عذارى الجوارى وبين من افتض النواهى .. لابل شتان بـــين من صارع ملوكه تحت اللحاف ، وبين من صارع ملكة تحت الرماح والاسياف) (١)

انها نغمة الحث على الجهاد والاغراء بفتح الاقاليم والنواحى .. استخدم فيهـا الخوارزمى ضرب الامثال وتضمين الابيات ، ليكون هذا أوقع فى النفس .

وهو يقارن ـ فى معرض حثه على معالى الامور ـ بين من همه ارضاء شهواتـه المادية وبين من سمت به نفسه وهمته الى عشق السيف والرمح وجعل شهوته فى النصر على الاعداء .. وهى مقارنة مستوحاة من بيئة الاديب التى غرقت فى الملذات وأهملت عظائم الامور ، ومافيه مشقة على النفوس .

وجميل من الخوارزمى أن يسجل هذا على أهل عصره وينبه عليه وهو يلتقـــى فى هذا المعنى مع قول المتنبى فى سيف الدولة :

(ماالذى عنده تدار المنايـــا كالذى عنده تدار الشمـــول)

وهذه تهنئة كتبها لعلى بن كامة (٢) بمناسبة توليته على مدينة :

(كتبت ـ والولاية التى شرفت بالامير ولم يشرف بها ، وتسببت له ولم يتسبب لها ، وصغرت ـ قياسا الى شأنه ـ من حيث كبرت قياسا الى مقادير أهل زمانـــه ـ

---

(١) رسائل الخوارزمى ص١٢٦

(٢) هو أحد امراء الديلم الذى كانت نهاية ابن العميد على يديه وهو الذى سمى فى ولاية الصاحب ١٤١/١ النثر الفنى

قد بلغني خبرها فجرت ذيلي فرحا ، وبرحت لا تحملني أعواد سرجي مرحا ، ووددت لو شربت طربا عليه البحر المحيط قدحا . وأين بالأمير عن افتراع المنابر ، وقيادة العساكر ، وهو من أهل بيت يحكم بالملك صغيرهم ، ويشيب عليه كبيرهم ، تقر بأسمائهم المنابر النافرة ، وتسكن بأعلامهم البلاد الشاغرة ، لم يوضعوا إلا لندى ولاية ولم يروا إلا تحت راية ، ولم يختلفوا إلا في حجر سياسة ورياسة ، فلا زال يترقى ذروة رتبة بعد رتبة ، ولا زال اسمه يفترع خطبة بعد خطبة ، ولا زال الملك سليله ونتيجة والعز صنيعته وخريجه ، حتى يطأ الأقاليم ويفترش السرير العظيم ، فيعطى القوس باريها ويملك الزعامة من يليق بها)(١) .

فالخوارزمي في رسالته هذه أحسن في إظهار صفات الأمير إذ هو من بيت عريق المجد عريق الجاه .. قد تدرج أهله في أحضان الملك وأورثه كبيرهم صغيرهم .. وهم فحول على المنابر قواد عظام في ساحات الحروب .. يفتحون البلاد .. ويسوسون الرعية ويديرون الرئاسة ، وقد بذلوا أنفسهم لمعالي الأمور ، فشغلتهم عن سفاسفها ولهذا فالولاية تشرف به ولا يشرف بها مع عظمها قياسا الى غيره .

وهو يحلي أسلوبه بحسن استعاراته وكناياته ـ ويقوي معانيه بضرب الأمثال على أننا لو أردنا استخراج كل استعارة وكناية وطباق وجناس من هذه القطعة لأطلنا الكلام .. مما يدل على عناية الخوارزمي بأسلوبه يظل يجوده ، ويحككه حتى يظهر في ثوبه الجميل المزخرف . مع ملاحظة طول الفصل بين المبتدأ ـ الولاية ـ والخبر (قد بلغني خبرها) بجملة طويلة أخذت أكثر من سطر ..

ولا ينسى الخوارزمي وهو يهنئ أن يطعم تهنئته بالمدح .. وهذا النوع من

---

(١) رسائل الخوارزمي ص٩٨

الرسائل هوالذى كان الخوارزمى وغيره من كتاب عصره يتكسبون به ويتسابقون فيه فهو كما عرف عنه لا يكتب الا للولاة والامراء والوزراء ومن له شأن خطير فى الدولة ابتغاء النوال من جهة ، وللحظوة والتعريف بنفسه من جهة ثانية .. لان هؤلاء الولاة كانوا يملكون الاقليم أوالمدينة التى يولون عليها فيعطون من يشاءون أو يمنعون .. ويأخذون الخراج ممن أرادوا .. ويعفون عمن يرضون عنه . ذلك أن الحكام الذين يولونهم لا يهمهم سوى أن يجمعوا لهم الخراج آخر العام .

ومن هنا احتاج الكتاب ان يتقربوا لهؤلاء الولاة ليستفيدوا منهم أو ليتقوا شرهم .. واحيانا للاستعانة بهم على أعدائهم ، أو ليستجيروا بهم من ولاة آخرين .. والوالى يحتاج لهؤلاء الكتاب لانهم وسيلة الاعلام الاولى فى ذلك العصر .. فهم يرفعون ذكره بين الناس بما يضفونه عليه من صفات وبما يحيطونه به من هالة فيها المبالغة والتهويل والاغراق .. فيقصده الناس الذين لا يعرفونه الا عن طريق الادب ، ويسمع به الادباء الاخرون فيؤمون حضرته طمعا فى النوال .. وبهذا يعظم شأنه وتتسع حضرته ويكبر حتى فى أعين الحكام الكبار .

٥٥

المديح

وقبل أن نستعرض نماذجه فى المدح يجمل بنا أن نعرف مذهبه فيه كما قد كتبه بنفسه اذ يقول فى معرض رده على تلميذ له : (كثر مدحى ـ أيدك الله ـ لما يرد علىّ من نثرك وشعرك .. حتى خشيت أن يحسب أنى أزف مدحى الى كل خاطب وأبذل شهادتى لكل طالب ، وأن يظن أنى اقارض الثناء ، وأصارفك الجزاء ، ولا والله مالى للدنيا استحسان الا والى الجنة احسان ، وانى لضيق ذرع التزكية والثناء ، قصير

حظي المدح والاطراء محاسب لقلبي اذا مال ، ولساني اذا قال . لا أمدح الا ممدوحا بكل لسان ، ولا أرضى الا مرتضى في كل مكان ، ولا أقبل مدلس الفضل ، ولا أتبع مغشوش القول والفعل ، ولا يستفزني رعد كل سحاب ، ولا يستخفني طنين كل ذباب ، وسرعة الشهادة طريق من طرق الخفة وابتذال المدح والتزكية باب من ابواب الملق والذلة والمجازفة بحساب المقال أتبع من المجازفة بحساب المال ، لان الغلط في المال سماحة وندى ، والغلط في المقال حماقة وغبا ، وأقصى غايات فوات المال أن يكون صاحبه فقيرا وأدنى غايات فوات الصواب أن يكون صاحبه سخيفا حقيرا وبين الخسرانين نفس مديد ، ويوم بعيد .. ومن لم يكبح عنان لسانه وقلمه بيد التأمل ولسان التبيين جمحا الى غاية أولها ندامة وآخرها ملامة جعلنا الله ممن اذا تكلم لم يضع زمام كلامه في يد هواه واذا شهد لم يلق رق شهادته في عنق سخطه ورضاه) (١) .

والحق ان هذا المذهب الذي يتكلم عنه الخوارزمي في المدح هو المذهب المثالي وكأنه يريد أن يعطي تلميذه درسا ينفعه ويستفيد منه . ومن هنا كانت أغلب رسائله كأنها محاضرات عملت ليقتدي بها طلبته وتلاميذه . غير أن الخوارزمي لم يلتزم حرفية ما قال في هذا الصدد خاصة مع (الصاحب) و (محمد العلوي) فانه يكيل لهما من المدح ما يستحقون وفوق الذي يستحقون . ويبالغ في ذلك كثيرا .. ولست بحاجة الى شرح منهجه هذا فهو واضح . ومن مدائحه للصاحب قوله :

(رجعت من حضرة الوزير بعد أن أفرغ علي من سجاله وأسبغ علي من نواله ما خفف ظهري وأثقله ، وأنطق لساني بل أخرسه ، وأرخص شكري بل أغلاه وأبقى مدحي بل أفناه ، واني حين أمدح البحر بأنه غزير والبدر بأنه منير ، وأعلم الناس أن الدهر

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٣٠ ، ٣١

كبير ،وأن الرجل كثير ، لأحد عباد الله المكلفين الذين قولهم هباء وعلمهم جفـــاء أبقى الله ذلك السيد ليفتضح به اللئام ،ويصغر به الكرام ، وتتجمل به الايـــام والانام ،وأقام به سوق الكرم (١) وهو هنا اقتصر على مدحه بالكرم وبيان فضائله عليه .

في تبرير طريف لمفارقة الخوارزمي للصاحب كتب يقول : (كتابي أيد اللـــه القاضي من قسم وأنا منها بمكة حرا لا حجا ، وبعمان هواء لا ماء .. وهـــذا فصـل سرقته من رسائل الوزير الجليل ابن عباد وليس بأول غارة الكردي على الحاجـي ولا بأول أخذ الطرار مال التجار ، ولا بأول تجعل الكاتب بكلام الكاتب . وهل عبرنـــا منذ عرفناه الا عن بيانه وهل أجرينا اقلامنا الا على آثار قلمه وبنانه ،وهل اغترفنـــا الا من بحره ، وهل نطقنا الا بنظمه ونثره ؟ وهل على الارض عار أن تطلب سقيا السماء ؟ وهل بالفقراء نقص أن يأخذوا صدقات الاغنياء ؟ وهل يعيب النهر أن يستمد البحر؟ لابل كتابي عن سلامة الا من شبحي من كل حضرة بعد تلك الحضرة البهية ، ومـــن كل نفس بعد تلك النفس الزكية .. فانني منذ لقيتها وزنت العالم بأخف صنجه وقومـــت الدنيا بأوكس قيمة على أني ماخرجت منها الا طريد حياء ووقيذ عطاء ، وفدت علـــى الوزير ابن عباد وحقائبي مملوءة رجاء ، وصدرت عنه وهي مملوءة مدحا وثناء ، ولقـــد غاص في معناي على دقائق من الكرم اخترعها ، ونوادر من الجود ابتدعها .. لـــو كانت أبياتا لكانت أوابد ولو كانت قصائد لكانت قلائد .. فلما رأيت لا أزداد فـــي صنائعه صنعة ولا أترقى في نعمه درجة الا ازددت عنها تبلدا وبحقها تقاعدا ، هربـــت لاكون أوحد في الهزيمة من الجميل ، كما أنفرأوحد في بذل الجزيل ، ولا غرب في الهرب على الشعراء ، كما أغرب في العطاء على الرؤساء ليجمع بيننا ظاهر اسم الاختراع وفحواه وان فرقت بيننا حقيقته ومعناه (٢) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٥

(٢) نفس المصدر ص ٤٧

وهو هنا يصف كرم الصاحب عليه وأنه لا يزيده بمدحه معرفة كما أن الشمس لا تزيد معرفة بمن يعرفها للناس ، لان كل الناس يعرفونها . وانه لم يقتصر على أخذ ماله فحسب بل استفاد من أدبه أيضا .. ويرى أن سرقته من أدب ابن عباد ليست عيبا كما أنه لا يعد عيبا أخذ الفقراء صدقات الاغنياء .

كما يعلل لنا سبب فراقه لابن عباد ، هذا التعليل اللطيف .. وقد يكون كتب رسالته هذه بعد الجفوة التي حصلت بينهما ولكنه لم يشأ أن يثلب الرجل بعد أن استنفد فيه مدائحه وقال فيه ماتصعب مناقضته . على أنه يصور لنا شخصيته الادبية امام الصاحب الاديب الكبير كالقزم امام العملاق .. ولا شك ان هذا توضيح من الخوارزمي ونوع من المدح فيه اظهار لمعروفه عليه وارضاء له .

والافان الخوارزمي في مستواه الادبي لا يقل بأي حال عن مستوى الصاحب ان لم يفقه .. ولكن الخوارزمي مهما بالغ في رفع شأن الصاحب .. فلن يسدد ديونه عليه فقد انتشله من وهدة الفقر وأغناه بعطاياه التي لا يعطيها الا الملوك . ولذلك فهو يصدر في مدحه له ـ غالبا ـ عن صدق .

واليكم مدحا من نوع آخر : وهو مدح أهل مدينة او منطقة خاصة . يقول الخوارزمي يمدح أهل اصفهان :

(وصف عراقي خراسان فقال : نساؤها كرجالنا ، ورجالها كجبالنا .. ورأيت أنا أصفهان فقلت : صبيها كرجلنا ، ورجلها ككهلنا ، وكهلها كشيخنا ، وشيخها كنبينا !! ولم لا يخرج أهل تلك البلدة في قالب الكمال ؟ ولا يستوفون شرائط الرجال ولا ينظمون في طرفي القول والفعال ؟ وهم يرون كل يوم واردا ويشهدون وافدا ، ويسمعون نغمة ويطالعون نعمة . لان فيهم نشابة الجود ، وقرارة الوفود ، وكعبة

الآمال ، ومحط رحال الرجال ، وهم يلتقون على باب الوزير مع كل كاتب وحاسب ، ويجلسون في سدته مع كل ناثر وشاعر ، ولا يعدمهم أن ينظروا الى كل ذي صناعة معاشية أو معادية ، والى ذي آلة رياضية أو عقلية فترق ألسنتهم ، وتصفو أذهانهم ، وتتنزه أبصارهم ، وترق أفكارهم لاقتباسهم علم كل مكان ، واستماعهم تبيان كل لسان ، ولتردادهم بين اللغات المختلفة ، وبين الاخلاق المتمايزة ، فهم يبصرون فيستبصرون ويرون فيرون ويسمعون فيحفظون . وأين بهم عن ذلك وهم يترددون في مخيض العلم والادب ؟ وينزلون في موسم العجم والعرب ؟ هذا الى ما يسمعونه من كلام الوزير الذي لو سمعته الوحش أنست ، ولو خوطبت به الخرس لنطقت أو استدعيت به الطير نزلت ، ومن جالس صاحب صناعة حذقها .. ونعم المعلم الجوار ونعم الرسول الاستماع والابصار)(١) وهو مدح صادق لانه مدح قوم لا يرجو من ورائهم عطاء .. وان كان فيه مدح للوزير الصاحب .

واذا كان هناك مبالغة فقد جلبها السجع كقوله (وشيخها كتبينا) أو قوله (وكلام الوزير الذي لو سمعته الوحش أنست ..الخ) .

واجمل ما في هذه القطعة هذه النظرة الحديثة للمؤثرات الحضارية في ثقافة الانسان أو الامة فقد جعل من أسباب بلوغ أهل اصفهان درجة الكمال كثرة المرتادين لها من أقطار شتى واحتكاكهم بهم .. واجادتهم أكثر من لغة ورؤيتهم أشكال الصناعات والرياضيات وسماعهم الشعراء والادباء والعلماء الذين يفدون على حضرة الوزير فاستفادوا من كل ذلك .. ودليل استفادتهم : صفاء اذهانهم ورقة السنتهم ، وتوسع ثقافتهم وقوة حفظهم .. وتهذيب اخلاقهم .

---

(١) رسائل الخوارزمي ص٢٢

الـــذم والهجـــاء

ولقد افتن كتاب القرن الرابع فى هذا الغرض وجعلوه من اغراض النثـــر بعـــد أن كان خاصا بالشعر ولعل رائدهم فيه كان أبا عثمان الجاحظ فى رسالته المشهـــورة (التربيع والتدويير)[1] .. التى كتبها بأسلوب ساخر يهزأ فيها بأحمد بن عبد الوهـــاب فصوره فى صور كاريكاتورية) ضحكه ثم جاء أبو المطهر محمد بن احمد الازدى فألف كتابـــه (حكاية أبى القاسم البغدادى) فأفحش وأقذع وصور لنا الجوانب السيئة فى المجتمـــع العراقى فى عصره متخذا أسلوب الذم منهجا له .. وفيها وصف لثقيل لم يبلغ أحـــد فى الذم والاقذاع مابلغه ثم جاء الخوارزمى فكتب رسالته المشهورة لابى الحسن البديهى كما تقول المراجع[2] أو لبديع الزمان الهمذانى كما ذهب الى ذلك صاحب كتـــاب (جمع الجواهر)[3] .

ورغم أن كل هذه الرسائل داخله فى الهجاء فانه يمكن أن يكون لها طابـــع فنى خاص منذ رسالة الجاحظ الى رسالة ابن زيدون فى ابن عبدوس، وهى ظاهـــرة بارزة تستحق من المهتمين بالادب دراستها والاهتمام بها .

والملاحظ ان رسالة الخوارزمى تلتقى مع رسالة أبى المطهر فى وصف الثقيـــل، ولايشك من طالعهما أن احدهما آخذ من الاخر . وقد أدرك هذا زكى مبارك وذهـــب الى أن أبا المطهر أخذ عن الخوارزمى ولكنه استدرك فى طبعة كتابه بالعربية ورجح أن الخوارزمى هو الذى اخذ عن أبى المطهر لفارق الزمن بينهما . فأبو المطهر كان شابـــا ماجنا سنة ٣٠٦هـ فى حين أن أبا بكر الخوارزمى توفى سنة ٣٨٣هـ[4] وان كان هذا

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٨٥ ومابعدها
(٢) انظر رسائل الخوارزمى ص ١١٣ ونفحة الريحانة ٤ / ٦١٠
(٣) ص ٢٥٦
(٤) انظر النثر الفنى ١ / ٤٢٥

دليلا ترجيحيا لاقطعيا واحتمال أن يكون الخوارزمى هوالسابق غير مستحيل ولكنه مرجوح (١) . وللبديع وصف للثقيل ينحو فيه نحوهما ..

وقد كان الخوارزمى فى وصفه أبلغ وأكثر جودة وأجمل اسلوبا وأقل فحشا من أبى المطهر وهى فى بابها أوجع . على أنه لا يلتقى مع أبى المطهر وبديع الزمان الهمذانى الا فى جزء من رسالته ، وهى الجمل التى تبدأ بياء النداء وهذا الوصف لا يتجاوز صفحة واحدة (٢) ثم طلع علينا ابن زيدون (ت٤٦٣) برسالته الهزلية الموجهه الى ابن عبدوس منافسه فى حب ولادة بنت المستكفى .. وقدكتبها على لسانها . وهى رسالة طويلة ينحو فيها نحووصف الخوارزمى (٣) .. ولا يشك من طالعها أنه يحاكيه ..

ولنعد الى رسالة أبى بكر التى وجهها الى أبى الحسن البديهى الشاعر ، يعبث به .. ولا نعرف ماسبب هذا الهجوم الكاسح وان كان له شعر فى هجائه ونقد لشعره (٤) . ولا ندرى ان كان البديهى يستحق كل هذا من الخوارزمى ؟ وماالذنب الذى جناه حتى يكون جزاؤه هذا المسخ والتشنيع ؟

يقول الخوارزمى فى أول رسالته : (لست أعاتبك ـ عافاك الله ـ لان المتاب يصلح منك أويعمل فيك ، أولان جهلك جهل يعالج بالعذل ، أو يداوى داؤه بالقول كلا ـ عافاك الله تعالى ـ جهل الناس مرض ، وجهلك جسم لا يزول الا بالفعل ولا يقع داؤه الا بالكف والنصل . وكنى انما أردت بهذه الرسالة أن تتوجه عليك الحجة وان تنقطع عنك المعذرة والعلة ، وان كانت ترد منك على عين عمياء ، واذن صماء وقلب لا يعرف النقصان الا فى ماله ، ولا يحس بالالم الا فى جسمه ..) .

---

(١) مقامات البديع ص٢١٧ ومابعدها (٢) انظر حكاية أبى القاسم البغدادى ص١٢
(٣) انظر ديوان ابن زيدون ورسائله ص١٣٤ ومابعدها
(٤) انظر صدر الرسالة ص٤٤

ثم يأخذ فى التهكم به وكيف أنه بلغ من الجهل درجة يعكس فيها الحقائق ويعاند الحق ويكرهه .. (وكأنك لم تخلق الا لتطمس عين النور وتقلب أعيان الامور فتجعل الضوء ظلمة ، وتعكس البدعة سنة .. حتى كأن (سوفسطا) استخلفك على جحد مايدرك عيانا ، ويعرف ايقانا . فأنت وارثه فى الباطل ، وناصر جهله على كل عاقل) .

ثم يكر عليه فيصفه بأنه جاهل لم يبلغ من العلم شيئا ـ ولو تعالم ـ وفيها استعراض لثقافة الخوارزمى فى الاديان والتاريخ والسير .. الخ : (لو سئلت عن "يحيى بن زكريا" لذكرت أنه زنى ، ولو ذكرت فى القائم ادعيت انه مضى ، ولو استخبرت عن ابليس ذكرت أنه سجد لآدم ، ولو نظرت فى عيسى نفيته عن مريم ، ولو أنشدت شعر امرئ القيس لنسبته الى الاقحام ، ولو ذكر أبو جهل حكمت له بالاسلام ولو استحسن كلام مزيد قلت انه ميت الخواطر فاتر النوادر ..) .

ويستمر يلسج على هذا المنوال .. فيذكر بيان على فى خطبه وعظم بنيان كسرى وارم ذات العماد ، وحادثة مقتل الحسين وشناعة قول فرعون (أنا ربكم الاعلى) ويذكر علم ابن عباس بالتأويل .. وقوة نظم قصيدة (ويأتيك بالاخبار من لم تزود) ، وحلاوة طعم (لا يذهب العرف بين الله والناس) كما يذكر حلم الاحنف ، واختلاف الائمة فى الفرائض وحديث ذى القرنين .. والتعجب من بناء الهرمين .. وابتداع الخليل بن احمد علم العروض .. كما يظهر اعجابه بكتاب (كليلة ودمنه) .. ويعيب على النصارى اشراكهم وعلى الثنوية عبادة (مانى) كما يذكر خلاعة أغانى ابن شريح ومعبد ، وقوة عزيمة أهل الهند وبراعة أهل الصين فى الصنعة .. وبلاغة وبيان العرب وقوة عارضتهم ويذكر يوم كربلاء والحرة .. ونوادر أبى العبر .. والتقان الفرس للسياسة وقوة معرفتهم بالعمارة ويذكر الحمقاء والمتنبين . ويروى ان سلول وجرهم وعدى وتيم هى اضعف القبائل

العربية ، وان هاشما رؤس قريش ، ودارما شرفاء تميم .

ثم يذكر بعض الاشخاص واشتهارهم بمذاهبهم وكل هذا فى معرض تجهيل مهجوه (غايتك ان تزعم أن هشام بن عبد الحكم ناصبى وأن ابا الهذيل العلاف نابتى ، وأن أبا بكر الاصم شيعى ، وأن واصل بن عطاء حشوى وان سليمان الاعمش خارجى ..) وهو دليل على سعة معرفته بالمذاهب الدينية ورجالها المشهورين .

ثم يعود ليستعرض ثقافته فى الادب واللغة معرضا بجهل البديهى فيقول : (وان عبد الحميد بن يحيى أمى ، أن رؤبة بن العجاج أعجمى ، وأن ايلس بن معاوية أمى ، وأن النابغة الذبيانى لم يحسن الاعتذار كما أن أبانواس لم يصف الخمر ولا الخمار ، كما أن أبا بكر الصنوبرى لم ير الانوار والازهار ، وان طفيلا الغنوى ما ركب كما أن أعشى قيس ما شرب ..) .

ثم يعود لبيان الصفات التى اشتهرت بها كل أمة . وهو ينحو نحو كلامه السابق فى التهكم بالبديهى وتجهيله .. فيصفه أنه لو سئل عن العفاف لقال انه هندى أو السخاء لقال : روس وان العقل صقلى وان التشيع شامى والنصب كوفى .. وعلى نفس طريقته هذه .. يذكر ان التجار اشتهروا بالكذب والملوك بكبر الهمم ، والمحدثين بالتخالف والتناقض ، وان النقائض اكثرنا سخفا وهجرا .

وبعد تعداد كل هذه الصفات يقول لمهجوه : (.. وانك من بينهم الذى خص بالعلم القديم وأخبر النبأ العظيم .. وانك لو سمعت عليا يقول : سلونى قبل ان تفقدونى سألته حتى يقول : دعونى فقد افحمتمونى ، وانك لو أمدت بك الملائكة ما قالت "سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا" وان أباك آدم لو أعين بك ما لعب ابليس به ، ولا أنف من السجود له وان عمك قابيل لو رآك ما أقدم على قتل أخيه هابيل ، وان امك حواء لو

رأتك نشزت على أبيك عشقا لك ..) ويطول الكلام لو استعرضنا كل تلك المعارف التي يوردها الخوارزمي في هذه الرسالة .

ثم يعود بعد سرد جملة من المعارف، فيذكر لنا أمثالا في أقبح الاشياء وأهونها وأعظمها ..الخ وهو المقطع الذي يلتقي فيه الخوارزمي مع أبي المطهر وسوف أقتصر منه على مافيه كشف أحوال مجتمعه أو مايدل على سعة معرفته، يقول :

(ياخراجا بلا غلة ..ياأثقل من الكتب على الصبيان ومن كراء الدار على السكان .. يابخلة أبي دلامة وحمار طياب وطيلسان ابن حرب وقدح اللبلاب في كف المريض .. ياكنيف السجن في الصيف .. وياشرب الخمر على الحشف .. ياخجل جوآ الغلطة، ياكمد القمور، ياأشأم من دم نبي .. يادخول الطفيلي ميت المروزي .. ياحزن نكاكين الدباغين ومنهج حوانيت القصابين، ياكوز الحجام، ياشخص الظالم في عين المظلوم، ياأثقل من منادمة طفيلي .. ياجواب الحجاب، وعبوس البواب، يانظرا الى زنج الام على الريق .. ياشماتة الاعداء وحسد الاقرباء، وملازمة الغرماء وعربدة الجلساء، وخيانة الشركاء، وغش الاصدقاء، ومشاتمة السفهاء، ونصرة الضعفاء، وعداوة الامراء، وسماع المغني البارد) .

ثم ينتهي الى توجيه بعض المطالب له لتعجيزه واظهار جهله وزيادة في التهكم والتقريع فيطلبه : املاء النسخة الاولى من كتاب العين، مع ان الناس متفقون على ضياعها وأن يخرج له قراءة أبي بن كعب مع أن الناس مجمعون على ذهابها ويسأله عما اختلف الناس فيه وشكوا من خروج المهدي والسفياني والاصفر القحطاني ..

أو أن يعالج الكيمياء ليصنع منها للناس ذهبا، وأن يصلح الزيج الاكبر الذي هو من مفاخر الروم ومحاسنهم .

ويطلب منه أن يبنى لهم مسجدا يباهى مسجد دمشق الذى يفخر به أهل المغرب على أهل المشرق .. وان ينتصر للعلويين ويرد عليهم حقهم المغتصب. ثم يختم رسالته هذه التى هى أقرب الى قصيدة جيده فى الهجاء بقوله :

(هذه رحمت اللهدية أهديتها لك بل هدى من الهرائس جلوتها عليك ومامهرها الا فقدك ولا ثمنها الابعدك ، فاذا وهبتهما فقد وفيت المهر ،وأرضيت العروس والمهر فسبحان من أراني ولك مهر مثلى ، وأنت ختن لى ،وعهدى بالناس يخطبون الكرائم بالكرم ،ويطلبونها بحسن الاخلاق والشيم ، وأنت خطبت هذه الكريمة بلؤم نجرك وصغر قدرك ، وعهدى بهم يحتملون المهور فى اموالهم وانت جعلت مهر هذه من عرضك الخلق ، وأعجب مافيها أنك اذا طلقتها لم تطلقك ،واذا أطلقتها من حبلك لم تطلقك فخذها مباركا لك فيها فهشت العروس وزوجها شر منها) (١) .

فهل لى بعد أن استعرضت هذه الرسالة هذا الاستعراض السريع أن اذكر القارئ بالرجوع الى نص الرسالة فان فيها الامثال والحكم ومختار الشعر وحوادث التاريخ واسماء المشاهير فى كل علم .. وأرى أن مافيها من غزارة معلومات ومعارف يستحق تحقيقا قد يستغرق كتابا فهى أقوى وأغزر فى معلوماتها من رسالته الى جماعة الشيعة التى نوه بها زكى مبارك (٢) .

بقى أن انوه بأن هذه الرسالة تمثل رسائله الصادقة التى تدل على قوة اسلوبه وافتنانه فى تلوينه بالبديع .. فالخوارزمى اذا تناول موضوعا ونفسه تضطرم اما حبا أو بغضا يحلق ويجيد ولا تشعر بتكلفه وصنعته. ومن أهاجيه النثرية هذه القطعة

---

(١) رسائل الخوارزمى ص١١٣ـ١٢١

(٢) انظر النثر الفنى ٢/٣٣٦

التى يذم فيها شخصا ذكر له انه لا يستطيع كلامه ويستنكر اعظام الناس له :

(بلغنى أن فلانا زعم أن سمعه لا يسع لاستماع كلامى ، وانه يستعظم ما يرى عليه الناس من اعظامى . والذئب للعين الشواء فى محبة الظلماء ، وكراهية الضياء ، وفم المريض يستثقل وقع الغذاء ، ويستمرر طعم الماء ، والجعل يتغذى على السرقين ويموت من الورد والنسرين ، ومن الريحان والياسمين ومن خص عين الشمس فقد نطق عن مقداره فى الحس ، ومن حارب جيش العقل ، وخلع ربقة العدل ورضى لنفسه بمجانسة الجهل ، فقد كفى خصومه مئونة عتابه وعقابه ، وقد أمن زيادة المحنة لتمام مابه ..) (١) .

ومع أن هذا الذى طعن فى أدب الخوارزمى ومنزلته لم يبين لنا سبب طعنه - أو لعله بينه ولم ينقله لنا الخوارزمى فان الخوارزمى لم يكن موضوعيا فى رده وقصارى جهده ان يتهمه بقلة الذوق وعدم الفهم .. فلعل الناقد كان على حق كما نلمس فى هذه القطعة اعتزاز الخوارزمى بأدبه .

وقال يصف حاكما ظالما :

(ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمنه وسكارى سكر الثروة ، ومتكئون على فراش العدل والنصفة ، فمازال يفتح علينا أبواب المظالم ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدراهم ، ويسير فى بلادنا سيرة لا يسيرها السنور فى الفأر ولا يستخيرها المسلمون فى الكفار ، حتى افتقر الاغنياء ، وانكشف الفقراء وحتى ترك الدهقان ضيعته وجحد صاحب الغلة غلته وحتى نشف الزرع والضرع ، واهلك الحرث والنسل ، وحتى أخرب البلاد بل اخرب العباد ، وحتى شوش الى الاخرة أهل الدنيا ، وحبب الفقر الى

---

(١) انظر رسائل الخوارزمى ص٤٧

أهل الغنى ، وحتى لقب بالجواد ، وكنى أبا الفساد ، وحتى صار الدرهم فى أيامه أقل من الصدق فى كلامه ، وصار الامن فى اعماله ، أعز من السداد فى أفعاله ، فليته اذ أوحش الرجال حصل المال ، وليته اذ ضيع المال أرضى الرجال . ولكنه حرم الاثنتين فافلس من الجهتين . ووالله ما الذئب فى الغنم بالقياس اليه الا أوى العادلين ، ولا يزدجر الاثيم فى أهل فأرسل بالاضافة اليه الامن النبيين المصديقين ولا فرعون فى بنى اسرائيل اذا قابلته به الامن الملائكة المقربين ، فان كنا به معاقبين فقد تنقضى مدة العقوبة وتختم صحيفة العذاب وان كان الفلس غلط به والزمان أخطأ فيه ، فقد يراجع الغالط حسه ويحاسب المخطئ نفسه فيجبر ماكسره ، ويتلافى مابدر ..) (١)

ونرى الخوارزمى فى هذه القطعة يحلق بأسلوبه ويأتى بالاستعارات الجيدة ويرشق مهجوه بسهام قاتله ويصوره بصور مرعبة موحية فتاره يصوره فى صورة الميت الفتاك وأخرى فى صورة المجرم الاثيم الذى لاتأخذه رحمة فى ضحاياه .

وما أحلى هذه الاستعارات وهذه التشبيهات التى تشهد باجادته لهذا الفن .. كقوله (يفتح علينا أبواب المظالم) أو (حتى انكشف الفقراء) .. (سيرة لا يسيرها السنور فى الفأر ..) الخ .

ولا ندرى كيف تسنى للخوارزمى ان يواجه هذا الوالى بهذا القول الجارح وهو الذى يقول فى رسالة اخرى يشكو فيها عدم اعطائه حرية الرأى .

(واعلمت أنى أعيش حتى أصادر على اللسان .. وقد كنت رأيت حاكما يحجر على

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٦٦

يتيم أو معتوه وغيره .. ولم أر أميرا يحجر على كاتب في كتابته أو على شاعر في شعره)[1]

وما منعه ذلك الحاكم من القول الا لما يعلم مالأدبه في نفوس الناس من أثر .

والرسالة من ناحية اخرى تعطينا صورة عن الولاة الظالمين في زمانه ، الذين يتعسفون الناس بمصادرة أموالهم دون وازع من دين ولا مراقبة من حاكم عادل .

ونسجل للخوارزمي هنا روحه الجماعية التي تظهر في شكاته هذه ، فهو يشكو الى الحاكم سوء سيرة الوالي في اهل البلاد كلها .. فليس الامر يعنيه وحده .

على ان هذه ليستأول صرخه للخوارزمي من ولاة الولاة والحكام فقد كثيرا ما يرفع شكايته الى الوزراء يطلب اعفاءه من تلك الضرائب التي كان أولئك الولاة يتعصلونها من الناس كرها .

٥٥

---

(١) رسائل الخوارزمي ص٧

(٢) نفس المصدر ص٩ ، ١٥ وانظر بقية امثلة الهجاء الصفحات ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٣

التعزيـــــة

وهى من الاغراض التى أجاد فيها الخوارزمى لمقدرته على تهدئة النفوس وتذكيرها بما شرعه الله من الرضى بالقضاء والقدر .

كتب يعزى رئيس طوس فى شقيقه :

" كتابى عن سلامة ، وما سلامة من يرى كل يوم ركنا مهدودا ولحدا ملحودا ، وأخا مفقودا ، وحوضا من المنية موروداً ، ويعلم أن أيامه مكتوبة ، وأنفاسه محسوبة ، وأن شباك المنايا له منصوبة .

آف لهذه الدنيا ، ما أكدر صافيها ، وأخيب راجيها وأغدر أيامها ولياليها ، وانقص لذاتها وملاهيها .. تفرق بين الاحبة والاحباب بالفوات .... ورد على خبر وفاة فلان غدارت بى الارض حيرة ، وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة .. وتذكرت ماكان يجمعنى وإياه من سكر الشباب والشراب ، فقلت : انه شرب من كاس أنا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف أرمى بها ، فبكيت عليه بكاء لى نصفه ، وحزنت له حزنا لنفسى شطره ، وسألت الله تعالى ـ فانه أكرم مسئول وأعظم مأمول ـ ان يفيض عليه من رحمته .. وان يذكر له تلك الاخلاق الكريمة ، وتلك المروءة الواسعة العظيمة ، فان الله تعالى ليحب السخاء فى الملحد ، فكيف فى الموحد .. ثم تذكرت ما نزل من الوحشة لفقده ، والغمة من بعده ، والتحسر على قربه بعده ، فخلص الى قلبى وجع ثان انسانى الماضى .. حتى استفرغ ذلك مافى صدرى بل مافى صبرى ...

ثم رجعت الى أدب الله تعالى فقلت : انا لله وانا اليه راجعون . اللهم لاشكاية لقضائك ، ولا استبطاء لجزائك .. اللهم ارحم الماضى رحمة تحبب اليه مماته وابق الحسى بقاء تهنئة فيحياته واطبع على قلبه حتى لا يطمع دراعى الزرع ولا يضع عنانه بيد الهلع .. ولا يثلم جانب الاجر والذخر بالاثم والوزر ولا يجد عدو الشيطان سبيلا اليه ، ولا سلطانا

عليه .. ليعرفني سيدى خبر ما هداه اليه من جميل العزاء الذى لم يعدم جميل الجزاء ليكون سكوتى الى ما أعرفه من سلوته اضعاف قلق كان بما ظننته من حرقته ، وان كنت أعلم أنه لا يخلى ساحة الحلم والعلم ، ولا يخل بالواجب من التمسك بالحزم ولا يحل عقدة صبره ولا تتداعى أركان صدره ، ولا يعمى عليه الرشد فى جميع أمره .

وهى شريطة الكمال ، وسجية الرجال .. (١)

ويمكن أن نلاحظ حرارة العاطفة فى أول الرسالة حينما يتحدث الكاتب عن أحوال هذه الدنيا وما تئول اليه .. وعن فصل الموت والمصير المحتوم الذى لابد منه .. وكأن الخوارزمى يرثى بهذا نفسه ولعل صدقها جاء من هنا .. وأمر آخر جعله يكتب بصدق ذلك ان الميت يحدث فى النفس فراغا يورث صديقه حزنا وجزعا ..

ولكننا نستدرك على الخوارزمى قوله لاخى الميت : أخبرنى كيف تعزيت ولست عن مفقودك لافعل مافعلته لانى كنت حزينا لحزنك ؟ فهل يسلم له المعزى أنه سلاه فقيده وتعزى عنه ثم هل هو حزين فقط لحزن الحى أم أنه حزين لفقد الميت ؟

على أننا نجد فى هذه الرسالة مايرفع قيمتها .. ويشهد على اجادة كاتبها ذلك هو الاتجاه الدينى ..

وحث الميت على أدب الله فى مثل هذه المواقف والايمان بقضاء الله وقدره .. وأن يلتزم بالصبر لينال أجر صبره مما يجعلنا نعترف له باصابة الغرض وصدق القول .

ومن طريف تعازيه تلك التى كتبها عن خوارزم شاه الى الملك يعزيه فى ابنه ؟! .. وهى رسالة جمع فيها بين التعزية والتهنئة ولهذا اشتهرت هذه الرسالة .. لان التعبير لايطاوع كل كاتب عن هذين الغرضين المتضادين يقول فيها :

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٠

" كتبت وأنا مقسم بين فرحة وترحة ، ومسرود بين محنة ومنحة أشكو جليل الرزية واشكر جزيل العطية ، وأسأل الله تعالى للامير الماضى الغفران والرحمة وللامير السيد التأييد والنعمة ، فان المصيبة بالماضى وان كانت تستوجب الصبر ، فان الموهبة فى الباقى تستفد الشكر . والحمد لله الذى كسر ثم جبر وسلب ثم وهب وابتلى ثم أولى ، وأخذ ثم أعطى ، كتب على المشرق خاصة بل على الدنيا قاطبة أن تطمس آثارها وتظلم أقطارها وتهب ريح الخراب عليها .. حتى ذبلت شجرة المملكة ووهن ركن الملة .. ثم استدرك الله تعالى برحمته خلقه فرد الى الامير رحمته ، وقوت الدولة فى قرارها ، وعادت الرياسة فى موضعها ، فأنا الان بين شكاية الايام وشكرها ، وبين حرب الدهر وسلمه .. أبكى وأناغط حتى وأضحك وأنا باكى العين ، الا أن الضحك علىّ أغلب والفرح الىّ من الهم أقرب ، لان المصيبة ماضية والنعمة باقية " (١)

وفى هذه القطعة استطاع الخوارزمى أن يبدى مقدرة واجادة فى التصرف والتعبير عن المعنيين المتناقضين وفلسفهما وحلى اسلوبه بهذه الحلية الجميلة والصنعة المتقنة .. ولكنها تفقد العاطفة ، ولا غرو فهو لا يكتبها بعاطفته .. وانما يكتب على لسان غيره .. ومن هنا يمكن أن نقول بأن هذه الرسائل الاخوانية هى شقيقة الرسائل الديوانية فهى لا تخلو من الصفة الرسمية فكما يأخذ الوزير أو الحاكم شخصا يكتبله الرسائل الرسمية التى تصدر عنه كذلك كان يستعين بكبار الكتاب ليكتبوا له فى هذه الاغراض التى قد لا يستطيع أن يعبر عنها التعبير الجيد ، خاصة اذا كانت هذه الرسالة سوف ترفع الى مقام الملك .

٥٥

العتـــــاب

هذا الغرض استغرق جل رسائل الخوارزمى وهو غالبا لا يعاتب الا أهل المناصب الكبيرة من وزراء وولاة وقضاة وأصحاب الجيوش .. ويمكن أن نقول ان أكثر مكاتباته

(١) رسائل الخوارزمى ص ٩٥

لهؤلاء هي مكاتبات يقصد بها التوصل الى هدف ، وهدف الخوارزمي ينحصر في أمرين : النوال .. والمركز والجاه .. ونلاحظ أنه في رسائله الى هؤلاء الشخصيات المهمة والمعروفة يشكو عدم رد هم على مكاتباته .. فرغم منزلته الادبية وشهرته ، فانه لا يلقى من هؤلاء تجاوبا ، ولعلهم أحسوا من خلال رسائله أغراضه .. فتباطئوا في الرد عليه .. على أن الهتاب انما يحلو ويعذب في مجال النشر ولهذا أجاد فيه الخوارزمي وأكثر ..

كتب الى وزير قابوس بن وشمكير :

" وكل ولاية لا بد يوما مغيرة الصديق على الصديق

قد كنت أنتظر مصداق هذا البيت من سيدي ، حتى حقق الله تعالى ظني ، ولو أكذبه كان احبالي وأوقع لدي فسبحان من جعل حصتي من وفاء الاخوان مبخوسة ، وتجارتي فيما أعاملهم به ويعاملونني موكوسة [1] فان كان سيدي عمهم هذا الجفاء اخوانه فخلطني بهم وجملني واحدا منهم لقد أخلف ثقتي بانفرادي عن صحبه ، وأخلف ظني بناحيتي من قلبه ، وكنت أحسبانه يخصني من بينهم بفضل الثقة كما خصصته من بينهم بفضل الثقة ، وان كان وصلهم وقطعني دونهم لقد عكس حكم الرجاء وغرس الجفاء فيهنيت الوفاء ، وأساء الترتيب بين الاصدقاء ، وما أدري له في واحد من الفعلين عذرا وان كان أحدهما أثقل وزرا وأسوأ برا وأقبح ذكرا ، قد كنت طويت بيد اليأس بساط المتاب وأغلقت بالمراجعة وجهت مفتاح الباب ثم استظهرت بهذه الاحرف ، وتعرد من سيدي على اذن عن المتاب صماء وعين عن الوفاء عمياء ، ونفس تهجر الوفاء كما يهجر الناس الاعداء ، وتعشق الجفاء كما يعشق الرجل المرأة الحسناء ويشتهيه كما يشتهي الظمآن الماء .. وانتظاري الجواب عنها أكذوبة من أكاذيب الامانى ، وأغلوطة من أغاليط زماني ، ومناقضة لحكم القياس وارجاف من أراجيف الوسواس ، ولنفسها سخرة من سخر الفراغ تكلفتها ، وحاجة في نفسي قضيتها [2]

---

(١) موكوسة : بمعنى خاسرة .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١١ ، ١٢

وهذه الرسائل دليل على ماقلت ذلك أن أغلب رسائله وخاصة فى المعاتبة انما يرمى بها لغرض المنفعة .. والتعريف بنفسه .. فرسالته لوزير قابوس هذه ليست اخوانية صرفة كما أنها ليست للصداقة وحدها .. بل هو يريد أن يتوصل بالوزير للوالى ذلك أنه لا يصل للوالى الا اذا قوى صلته بوزيره .. واذا وصل للوالى حصل على مايريد من أعطيات وهدايا .. اذ هو الاديب المصقع .. وتاجر النثر والنظم معا ..

وأمر آخر يدل على اتجاه الخوارزمى هذا .. هو أنه لا يكاتب الا الرؤساء والوزراء ومن فى طبقتهم . فهل هو لم يعرف هؤلاء حتى أصبحوا فى هذه المراكز أم أنه لم يكاتبهم قبل أن يصلوا الى تلك المراكز جريا على عادته أنه لا ينزل بأدبه ولا يمدح الا خطيرا ؟ ولكن المتاب أكثر ما يوجه للأصدقاء وليس شرطا أن يكون الصديق فى مركز عال .. أو أنه لا تجوز معاتبته الا اذا كان فى هذا المركز ..

واذا لم يستجب له من يكاتبه سلط عليه من قلمه سهاما مسمومة ، فاما أن يجيبه على عتابه ويرضى بصداقته أو فليتحمل مثل هذا العتاب المر .. ويظهر من رسالته هذه يأسه من مكاتبة الوزير ولذلك يظهر حسرته الشديدة عليها خاصة بعد أن كرر رسائله اليه فلم يظفر بجواب .. ومن هنا أظهر آخر مافى جعبته من السهام ليصفه بقلة الوفاء والجفاء

على أن هذه سنة من يتكسب بأدبه وهى سنة اتبع فيها الكتاب طريق الشعراء فالخوارزمى اتخذ من الكتابة حرفة للكسب المادى ولعله ليس الوحيد فى هذا .. وأدباء هذا القرن لا يجدون فى ذلك غضاضة فهو يصرح بطلب النوال فى قوله : " انما لسان الشاعر روضة لا تسلف الزهر حتى تستلف المطر ، ولا تضحك فى وجه السماء الا بعد أن تستوفى حقها من الانداء " (١)

ويقول فى موضع آخر : " وأحب أن أزف ابكار المعانى الى من يفترع أبكار

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٧٥

المعالى ، وأن أغرب فى الثناء لمن يغرب فى السناء وأن أزج الشيخ من صنعة لسانى كرائم لا تجتليها الا عيناه ولا تطمثها الا يداه " (٢)

أو قوله : " فكتبت هذه الاحرف أصل حبلى بحبله ، وأعرف نفسى لفضله وأنا أخرج الى الامير من عهدة هذه السلعة وأشهد أنى وسط فى هذه الصنعة " (٢) أو يقول : " كيف يصون الادب مغرم ولم يؤد عنه الى المؤدب درهم ؟ " (٣)

وهاك نموذجا آخر من عتاب الخوارزمى أقرب للهجاء منه للعتاب :

كتب الوعاظ بريد الاهواز : " كنت ظننت بك يا أخى ظنا كذبه فعلك ، وضعف هجرك ووصلك ، فانك تعمل فيهما على قياس واجب ولا تصبر منهما على طعام واحد . فلا جرم ، لقد رجعت فى ودى لك وما كنت أرجع فى هبة ، وندمت على ثقتى بك وعهدى بى لا أندم على حسنة وهذا أيدك الله تعالى - رزقى من كل من أصفيه حبى ووضعت فى يديه قلبى .. فما أبدا بمن صدنى أشكوه .. وقد كنت أشكره .. واعذله وقد كنت أعذره ، وأرتجع قلبى منه كرها ، وقد سلمته اليه طوعا حتى لقد اشتغل قلبى بخوف الاصدقاء عن خوف الاعداء ، واشتغل شعرى بالعتاب عن المديح والهجاء ، حتى لقد صرت أعد سوء الظن حزما وأرى المساهلة غبنا ، وأحسب المكافأة على القبيح عدلا ، ومعاشرة الناس بالفن عقلا وان كان هذا ليس جميلا فأنا فيه تلميذ أصدقائى ، وهم فى الحمد عليه شركائى " (٤)

وهى شكاية من الاصدقاء كثيرا ما تتردد فى عتاب الخوارزمى . على أنى آخذ عليه طريقته هذه فى عتاب أهل المناصب والمراكز حتى ولو كانوا أصدقاءه .. فهو وان أحسن فى الانشاء الا أنه مر العتاب متهالك فى التقرب الى هؤلاء .. ولو كان عتابه ألين وحرصه على مكاتبتهم أخف لكان أجمل وأحرى أن يحظى برد منهم . فليس بعد هذا العتاب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩ (٢) نفس المصدر ص ٦٧

(٣) نفس المصدر ص ٧٤ وهكذا فى الكتاب "درهم"

(٤) رسائل الخوارزمى ص ٨٦

المر مصافاة الا أن تكون هذه طريقة أهل عصره في التودد الى بعضهم !! ؟

ومثل هذه الرسائل تعطينا تفسيرا لكثرة تقلب الخوارزمي وذمه لرؤساء زمانه .. وعذره في ذلك .. أنهم هم الذين علموه سوء الظن بالاصدقاء والخوف منهم أكثر من الاعداء .. كما تعلم منهم الغدر في المعاملة والمكافأة على القبيح ..

ومن عتابه اللطيف رسالة بعث بها الى أبي الحسن الحكمي يقول فيها " خرج الشيخ من هنا على حالة ان كان الذنب فيها له فقد غفرت وعذرت ، وان كان لي فقد استغفرت واستعذرت ، والدهر يوزع بافساد الاحوال ، وتكدير ماء الوصال ، وقطع قرائن الرجال ثم يعود العاقل منهم لما يرفو به الخرق ويرتق به الفتق فيقبل الزلة ويراجع الوصلة وينشد :

اذا نزغات الحب أورثن بيننا عتابا تراجعنا وعاد التعاطف (١)

فأما الجاهل فانه اذا هجر لم يبق في القوس منزعا ولم يترك للصلح موضعا والحمد لله الذي وفقني في اثناء هذه الحال حتى نبحت قرس الصرامة وغمدت سيف الشكوى والملامة وأبقيت الحال في صوانها ، ولم أتعد منها حكمة زمانها .. هجرت هجر متارك كريم المقاطعة ، ووصلت وصل مراجع حميد المراجعة لتكون الاولى بذرة مغفورة ، والثانية كفارة مشكورة ، والعتبى عروس ليس لها غير الصلح مهر ، والاعتذار سمى بالمغير القبول أجره ، وقد كنت قلمت عن عرن الشيخ بنانا حديد المخالب ، وفللت عن جانبه سيفا موهف المضارب ، وانما سلطان الغضب ساعة تورث ندامة الابد ، ويوم يشمر حياء الغد الا من أعين بالعصمة وأطاع داعيه العقل والحكمة والسلام " (٢)

وهذه الرسالة فيها الحكمة والمثل كما حلاها الخوارزمي بالاستعارات والشعر وهي أخف من رسائله الاولى في بابها ولولا تهديده الشيخ في آخرها لكان هذا هو

---

(١) في الرسائل العواطف" ولكن الفعل مسند الى مذكر مفرد .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٤ ، ١٥

المتاب الذى يسكن النافر ويصلح النفوس المريضة ،ويحسن بنا بعد هذا أن نقرأ ٠٠ فلسفة المتاب عند الخوارزمى لنقف على فهمه له ونعرف مقاصده من ورائه ٠

" ٠٠ على أنى ما أجهل منفعة المتاب ولا أنكر مرافقه بين الاصحاب ، ولا أشك فى أنه يطرى خلق الود ،ويجلو غبرة العهد ،ويداوى أدواء القلوب ،ويترجم عن جنبات الضمير ، وانه الا نموذج بين الاولياء والاعداء ،والجسر بين المدح والهجاء ،والمصلح للعشرة الفاسدة ٠٠ولهذا اشتقت لفظة المتبى ـ وهى الرجوع الى الرضا ـ ولكن اذا كان مصدره عن شكاية ومنبعه عن جناية ، ووضع عن فترة فى الود عرضت ، أو غلمة فى الانصاف حدثت ٠٠جمع الشمل وجدد الوصل وصقل ما صدئ من العشرة وأزال ما وقع من الفترة ٠٠واذا كان مصدره عن تجرم كان مفتاحا لباب المريدة ومكدرا لصفو المودة وترجمانا عن لسان القطيعة وانما هو دواء اذا لم يصادف داء استحال داء ،واذا صادفه كان شفاء " (١)

وهو تفسير جيد للمتاب ومعرفة من الخوارزمى لخبايا النفوس تدل على خبرة وتجارب عديدة ٠٠ولا يمان الخوارزمى بما للمتاب من أهمية لجمع شمل الاصدقاء وصقل ما صدئ من النفوس أكثر منه ٠٠ولكنه يخرجه أحيانا الى النوع الثانى الذى ذكره ـ وهو ماكان مصدره عن تجرم . (٢)

٥٥

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٠٧

(٢) انظر بقية الامثلة من الرسالة ص ٣٤ ، ٢٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، وغيرها .

اللوم والشماتـــــة

ومع أن هذا الغرض لا يحسن بأهل القلوب الكبيرة والاخلاق العالية فان الولاة ،، احتاجوا اليه ليردوا به خارجا عليهم أو يثبطوا بعزم عدو لهم وقع في شر أعماله ،ليهدموا في نفسه الهمة والعزيمة ..والخوارمي انما يكتب في هذا الباب على لسان الامـــراء أوالملوك والحكام . على أنه اذا جرد قلمه في هذا الغرض عرف كيف يتفنن ويوجع ،وذلك انه يكتب عن مواقف يصرفها جيدا اما في شخص كان منهمة لاحد الوزراء فكفر النعمة أو فـــي وان عزل لسوء ادارته أو لخارج عن الطاعة .. فالموقف الاول لعله مر به هو أو غـــيره من أدباء عصره ..والموقف الثاني يعتبر فرصة له لينال من أولئك الولاة الذين ساروا فـــي البلاد سيرة غير مرضية .

كتب الى أبي اسحاق ..بعد أن نكبه الوزير الصاحب رسالة طويلة وهو امـــا ان يكون كتبها بطلب من الوزير أو كتبها من نفسه ليرضي بها الوزير ويكسب وده ... .. لا خلصك الله مما أنت فيه من جناية غيرك عليك حتى يخلصك مما كنت فيه من اساءة نفسك اليك ، فان نفسك اعظم خصميك وان كانت أصغرهما لديك ، وقد مثلت أيدك الله بـــين ان أحرش لك كلابي وأفوق نحوك سهامي ، وأقضي بذلك حق عظتك وأخرج من عهد ما يلزمني في هدايتك ،وبين أن يلين مس قولي لتفتحق في نفسي حاجة من نصيحتك ..فرأيـــت الاولى على أوجب والى الصواب أقرب ..وأنا أقول :

أخوك الذي ان اجرضتك ملمة ... من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما (١)

ولا أقول وليس أخوك بالذي ان تشمت ... عليك أمور ظل يلحاك لائمـــا

أنت أيدك الله تعلم أنك كنت من الذل في مكان يتخطاه الناظر ويدوسك الخســـف

---

(١) الجرض : الغصص : جرض بريقه غص به فمعنى أجرضتك : جعلتك تغص بريقك من هولها .انظر اساس البلاغة ص ٩٠ مادة (جرض)

والحافر، لا شرفك نسب ، ولا يرفعك أدب ، ولا يرجوك صديقك ولا يخافك عدوك عن يمينك الخمول ، وعن يسارك الذبول . تصبح في قل وتمسي في ذل . . فأنصفك الدهر الظالم وانتبه لك البخت النائم وأراد الله تعالى أن يرفع من حكمتك ، ويقوم من حدبتك فينظر كيف تعملون . . فا تصلت من ولي نعمتك برجل لو اتصل به الأدبار لتقدم الاقبال ولو خدمه النقص لفضل الكمال . . فما هو الا أن نسبت اليه وحسبت في آثار يديه حتى قاتلت الأيام بسلاحه وطرت الى المنى والمطالب بجناحه . . حتى زارك قوم لو زرتهم فيما قبل لطال وقوفك بين الدار والباب . . وخدمك أناس ما منهم أحد الا وقد لاحظته بعين هائب ، ونقلت اليه قدم راغب أو راهب . . هذا الى استسلابه لك من الردى بيد الهدى واخراجه اياك من ظلمة العمى والتقليد الى نور العدل والتوحيد .

فلما جازيت النعمة بالكفران ، ونسيت " هل جزاء الاحسان الا الاحسان " نظرت الأيام اليك شزرا وبدلتك باليسر عسرا فأصبحت تلك البوارق وهي صواعق ، واستحالت تلك المواهب وهي مصائب وتقاضاك دهرك ما أسلف . . والدهر غريم لا يماطل اذا اقتضى وحاكم لا يراجع اذا قضى ، فها أنت قد ذمك حامدك ورحمك حاسدك فأنت الآن عليل دواؤه التوبة وجريح شفاؤه الرجعة والفيئة . . يا أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل كم تهتكون حجب المعارف بيد الكفران وكم تصافحون النعم بالمنى والمدوان " وهي رسالة طويلة اجتزأت منها هذا (١) . . والخوارزمي أقل شماتة فيها بالرجل . . فهو مرة ينصح ومرة يلوم ويشمت ولا أظن هذا المنكوب من الصاحب يستفيد من هذه الرسالة سوى التبكيت واستشعار الندم . . ولا أظنه بعد هذا كله تحدثه نفسه بالعودة الى الصاحب والرسالة من الناحية الفنية جيدة . . فقد أصابت فرضها ولا مزيد عليها . . ويظهر أن الخوارزمي كتبها في أول عهده بالصاحب وقبل أن تتغير نفسه عليه . . وفيها دليل على مالأولئك الوزراء من دور في حياة الناس وكيف أنهم يرفعون من رضوا عنه حتى يصل المنى ويضعون من غضبوا عليه حتى تزدريه الأعين .

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٢ - ٦ .

كما تدلنا على ما للصاحب من دور في ادخال من يتصل به في مذهب الاعتزال وان كانت هذه الرسالة خفيفة في بابها لا يدري الذي كتبت له هل الخوارزمي يشمت به أم ينصحه ويواسيه أما رسالته الى أبي القاسم ابن أبي الفرج - كاتب ركن الدولة - لما عزل - فصريحة في اللوم .. ملومة الشماتة ..

يقول الخوارزمي : " انا أهنئ الدنيا يوم عزلك كما كنت عزيتها يوم ولايتك فلئن عدت اقبالك في مثالبها لقد ذكرت اديارك في مناقبها ولئن كانت عوتبت يوم رفعتك لقد أعتبت يوم وضعتك وأنت والله الخليل يسر بفراقه والحليل هنئ بطلاقه ولقد كان مصرع النعمة قبيحا عليك مستفيثا من يديك ، كأنك أبا القاسم لم تتول الا لتصديق الاول :

وكل ولاية لا بد يوما ... مغيرة الصديق على الصديق

ولم تعزل الا لتترجم عن قول الاخر :

ستعزل ان عزلت ولا يساوي ... تنهدك في صديقك نصف فلس

لا بل كأنك ما قلدت الا ليشتد غيظ الاحرار ، ويقوى طمع الاشرار ولتصير زيادة في ذنوب الايام الى الكرام ، وحجة عليها للئام ، ولقد خالفت قول الجحاف :

نحن الذين اذا علوا لم يفخروا ... يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

فلقد ظفرت فلم تضبط نفسك نشاطا ، فضعفت عن احتمال الفرحة كما عجزت عن احتمال الترحة .. فلم توجد يوم سعد شاكرا ولا يوم نحس صابرا ، والحمد لله الذي جعل أمسك لنا عبرة ويومك لنا نعمة .. لا عدمنا فلكا دار بردك الى قيمتك ، وصير حالتك في وزان التلك فلا زلت بعد ما غضيض الطرف ، راغم الانف ، صديقك لا يرحمك ، وعدوك يظلمك ، ويتهضمك أقرب الناس الموت أكثرهم بكاء عليك وأدناهم منك أشدهم هربا منك والسلام على من قال آمين " . (١)

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٥٥ ، ٥٦

ولا أدري السبب الذي جعل الخوارزمي يصب جام غضبه ويطعن الرجل هذه الطعنات المسمومة وهو في حالة المستغيث اللهفان وهو موقف لا ترضاه شيم النبلاء ولا تبرره عداوته ان كان عدوا له ، فالشهامة والمروءة تقضي بأن يغيث العدو وعدوه في مثل هذه المواقف . وأظن ان هذا الكاتب أساء السيرة وكانت له مواقف من الخوارزمي غير ودية ولهذا تحين هذه الفرصة لينتقم منه .

ولا ننسى أنه كتب الرسالة ارضاء لركن الدولة الذي عزله حتى يشعره أنه عمل ما هو واجب .

والرسالة جيدة كتبها الخوارزمي ونفسه تغلي كربا وحقدا وشماتة فعرف كيف يكتب ويستثير كوامن النفس ، ويجعل الرجل يتألم من كلامه أكثر مما تألم من عزله . (١)

٥٥

مواساة المنكوبين

وكما كان الخوارزمي يعرف كيف يكتب ويجرح ويخرق فهو في بحر من الحزن والكآبة كذلك كان يعرف كيف يواسي ويروح النفس ويرجع الى النفس هدوءها ، بتزهيد من يكتب له فيما فات وتأميله فيما بقي .

كتب الى وزير خوارزم شاه لما نكب / وكان خريجه :

" أصبحت - أيد الله الشيخ - وأمسيت شيمان من كل بغية ، ريان من كل مراد ومنية ، غير انقشاع هذه الضبابة ، وانجلاء هذه السحابة اني - والله ظمآن الى خبر يديل فرحة على غم ، ويهزم بسرور عساكر هم ، فما اسن خبر السوء حتى كأنه يخب ، وما أبطأ خبر السرور حتى كأنه يدب ، وما أولع الدهر بهدم ركن الفضل ، وثلم

---

(١) انظر بقية الامثلة ص ٥٢ وغيرها .

جانب العقل ، وما اسوغ الايام الى الكريم فيما يضره والى اللئيم فيما يسره ..على أنى أرجو أن يكون فى هذه المحنة من المصالح ما يغمر سلكه ويخفى مذهبه ..

ومما سرنى فى الشيخ أن المحنة لم تثلب جوانب جلادته ، وأن طول مدة الذلة والقلة لم يعتصر ماء احتماله وصلابته ، وأن الوحدة والوحشة لم تقدحا فى لسانه وقلبه ، ولم يظهر أثرهما على صفحات ثباته وعزمه ، وانه لم تصغر - على تلون الزمان - نفسه ، ولم يلن على أكف اعدائه مسه ..حتى انجلت (١) عنه غبرة المواقب ، والعرس نقى والقلب بالله تعالى قوى والفضل " بحمد الله" مرضى ، والنفس تلك النفس الا ما نقص من مساه وتضعضع من حاله ، وال ملة تلك الجملة لا الرخاء أكسبها بطرا ولا البلاء أورثها ضجرا ... والايام مرآة الرجال والاطوار معيار النقص فيهم والكمال ، والعثرة بعد الدولة تخرج خبث الاخلاق ، وتكشف عن مقادير الاحوال والاعراق ..." (٢)

ورغم اختصارى للرسالة فان فى هذا ما يثبت النفس المضطربة ويطمئن القلب المفجوع اذ هى رسالة من انسان خبير بعلاج النفوس الحزينة ، ومداواة القلوب الجريحة ففى مقدمتها شكوى من هذا الزمان الذى يوازر اللئام ويتنكر للكرام ..ليشعره أن مصائب الزمان شركة بين ابنائه ، وانها لا تصيب الا الفضلاء منهم ، وهى شكوى من الخوارزمى نستشف من ورائها عدم رضاه عن الاوضاع السياسية والاجتماعية التى تسود مجتمعه وان لم يصرح بذم أحد ..

وكأنه يحاول أن يقول لتلميذه مهانه ليس وحده الذى أصيب بهذه المأساة فيشكو جور الدهر عليه بل كلهم ذلت الرجل ..ثم يعود ليشجعه ويثبته ويقول له أنه لا زال بخير ما دام العرض مصونا ..وان الرزية اذا اقتصرت على المال وتغير الاحوال فهى هينة ..ويمتدح فيه صبره وجلده وان الحوادث لم تغيره ..فلم يبطر فى حال الرخاء كما أنه لم يضعف فى حال الشدة والبلاء ..ويظهر فيها الصدق وحرارة العاطفة فهو يكتب لتلميذه .. وكتب

---

(١) فى الرسائل : اجتلت .

الى كاتبخوارزم شاه :

" ورد كتابك ، ولست أقول : غمنى وأصمنى ، بل أقول : أعمانى وأصمنى تذكر انك امتحنت وأنت برىء ، ونكبت وأنت محسن لا مسىء ، وأى ذنب أعظم من أن تشكـــــر بالفضل أهل النقص ؟ وأى جرم اشنع من أن تنزل بالفهم بمابين طبقات أهل الجهل ، وما للطائر الكبير والقفص الصغير؟ ومابال الدرة اليتيمة ترمى بالصدفة اللئيمة؟

وانما الادب جناح فهل طرت بهمة الوكر الصغير الى الوكر الكبير ؟ وهلا اذ كملت آلتك انتجعت بها مكانا تكمل فيه حالك ، ومانزلت بك هذه النازلة الا ليقلعك بها السعـــد من بيد النحس . من تلك البقعة الناقصة أهلا ، المهنية جهلا ، فابشر ولا تتهم الله تعالى فى مصالح خلقه ، ولا تقنط من رزقه فانما يرتاب المبطلون ، ولا ييأس من روح الله الا القـوم الكافرون ، واياك أن تثل هذه الحادثة عزمك أو تكسر حدك أو تضرع خدك ، أو تثلم ، ركنك أو تسىء بالله تعالى ظنك ، فانما كانت صاعقة أحرقت ثوبك ، ومست بعضك وسلم الله ـ ولله الحمد ـ منها روحك ، وصان فيها لسانك وقلبك ، ووراءك الدهر الطويل وخلفك صنع الله الجميل ، ووعده بجميل صنعه كفيل . وقد خرجت الى الدهر من نوبة العسر فهو غريمـــك الان فى اليسر ، واذا رأى جلادتك على وقع سهامه ، وصلابتك على تصريف أيامه ، جـــاءك معتذرا ، وهو باليد مستترا ، وآسى باليمنى مجرح باليسرى .. فانظر الفرج فانه منتظر ، واصبر فان الدهر لا يصبر " . (١)

وهذه القطعة أقوى فى بابها من سابقتها ، وهذا الكاتب وان لم يكن تلميـــذه الا أنه تجمعه به حرفة الادب التى غار عليها الخوارزمى غيرته على الحريم . وفيها مـــن التشبيه والتظمين مالا يخفى . فقد وقعت على كبد هذا الكاتب المنكوب . . وقوع العافيـــة فى البدن . . وهونت عليه مصيبته ، وقوت عزيمته ، وهو الغرض الذى يسعى اليه الكاتب مـــن وراء رسالته " (٢)

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٢٣ ـ ١٢٤

(٢) انظر باقى الامثلة على هذا الغرض ص ١٦ ، ٢٧ ...

الفـــــــــــر

لم يكن الخوارزمي ـ رغم عادات مجتمعه وتقاليده ـ خاضعا مستكينا ، لا يشعر بقيمة أدبه ولا يحس بعزة نفسه ، فقد كان في مقتبل حياته الادبية لا يرى أن أحدا يساميه مكانة ولا منزلة ، ان لم يترجم ذلك بالمقال نحاله واعماله تدلان عليه ، ورغم ما تعرض له من اهانات وصدامات ، وما حفلت به حياته من عداوات ، فانه لم يفقد كل ثقته بنفسه ولن تضعضعت منه الحوادث ، واحوجته الحياة وحرفة الادب الى تزلف الوزراء والامراء ، ، ، وهذه نماذج من نثره الذي يرينا فيه ما تتصف به نفسه من عزة وسمو ، وما فيه من صلابة ورجولة ،

كتب الى أبي علي البلعمي لما فارق حضرته في بخارى :

" وفقدت كل شيء ملكته غير عرضي الذي عهد ما الشيخ معي وصبري الذي عرفه مني ومن لم يكن على المحنة صبورا لم يوجد للنعمة شكورا ، ومن لم يحقر سوء ما يبلى لم يحمد حسن ما يولى ،

أنكر الشيخ عزوف نفسي عن مواقف الهذلة ، وصمونة جانبي على من جرني الى مظنة الهوان والذلة ، والادب سلطان ينسي هيبة السلطان ولطول العشرة دالة تقيم الملوك مقام النظراء والاخوان ، ، ، ، ، قد علم الشيخ أني مذ كنت لم يسم خدي عذار الهوان ، ولم يوضع على رقبتي نير التذلل والامتهان ، ولم تطرق الايام حريم عرضي فتنتهكه ، ولا نالت ستر صيانتي فتهتكه ، ولا ماء وجهي فتسفكه ، ولقد اخترقت البيد والحضر ، ودخلت ديار ربيعة ومضر فما رأيتني (بحمد الله تعالى) أوخر عن رتبه ، ولا أخلف عن الغاية في موطني رغبة أو رهبة ، ومعي اذ ذاك سكر الشباب ، وذل الاغتراب ، والقوم قد باينوني بالنسبة ، وفارقوني بالتربة ، ، وان عرضا صنته في غير مظنة الصيانة لجدير الا أهينه في غير موضع الاهانة فقد يتذلل الشاب ويقول : أتحمل اذا شبت وتمتهن الغريب ويقول : أتعزز اذا أبت ، فما عذر من يحتمل الذل وقد رجع الى الوطن من الغربة ، وخرج من حد الشبيبة الى الشيبة ؟ وهل وراء الغاية منزلة ؟ أم هل بعد الشيب الى الموت مرحلة ؟ (١) (=)

وهذا جزء من رسالة بعث بها الخوارزمي الى أبي علي البلعمي بعد أن فارق حضرته مغاضبا وهي رد على طلب من البلعمي يستدعيه الى بخارى ومنها يتضح لنا سبب خلاف الخوارزمي ليس مع البلعمي وحده بل مع جميع حكام وولاة عصره فلا يكاد يستقر عند حاكم حتى يفارقه حتى وصفه المؤرخون بقلة الوفاء وكثرة التقلب ..

وهو هنا كأنه يرد عليهم .. ويبين لهم أن هؤلاء الوزراء والولاة يطلبون منه أن يخضع ويذل لهم .. وهو يرفض أن يكون كذلك ذلك أنه أديب .. وللأديب منزلة تنسى هيبة السلطان وله من الفضل والعلم ما يربأ به عن مواقف الهوان .. فهو في رسالته هذه يخيب ظن الوزير البلعمي في استجابته لطلبه والعودة لحضرته غنيا بعرضه وحفاظا على عزة نفسه .

كما نعرف من رسالته هذه كثرة أسفاره وانه عاشر البدو في الصحراء وتنقل بينهم .. كما تكشف عن اخلاق وزراء زمانه وامتهانهم للادباء ومعاملتهم معاملة لا تليق بهم من نظر اليهم باستعلاء وعدم تقدير لعلمهم ومواهبهم فنعذر أدبا اذا استعملوا أدبهم في شتمهم والتنكر لمن عرفوا منهم وهذه رسالة أخرى تشبه سابقتها ولكنها هذه المرة موجهة الى خليفة الصاحب بن عباد يقول فيها : " فهمت ما ذكره الشيخ أني لو اقتصرت على خدمة الامير وعلى مناداة الوزير لما لمت الصرف عن جانبي ناكبة ، وولت الخطوب عني هاربة ، ولو لم انتجع غير نيسابور بلدا ولا غير من بها أحدا لعشت معهم عيشة رغداء .

وجوابا لشيخ تحت قول الاول :

فبالخير لا بالشر فاطلب مودتي وأنفق (يمتاد)[1] منه الترهب

مثلي ـ أيد الله تعالى الشيخ ـ لا يحمل على الخدمة بالتقريع والتشريب ، ولا بالتهدد والترهيب ، ولا تحتلب أخلاف مودته بالاذلال .... ولا يدرك مصون ما عنده بالاتحان والابتذال ـ وانما يحمى مثلي

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ١٩ (٢) في الرسائل يقتال : بدل يمتاد .

بالرغبة ،ويقيد بقيد من الذهب والفضة ، ويرضى منه بالحياء والوفاء قليلين ،وبالشكر والتذمم ضمينين ، وانما الحر زجاج رقيق ثمين ، اذا رفق به ،واستعمل فى موضع مثله زين المجالس ،واتى المجالس .. واذا خرق به ،انكسر فمقر الكاسر ، واتعب الجابر ، وغم السامع والناظر ، وكان ينبغى لاصحابنا ان يقتنصونى بحبالة الاحسان والبر ، ويرتبطونى بحبال الحفاظ والشكر ،ويعلمون ان البازى العتيق لا يصبر على الاضاعة ، ولا يقيم فى بيت المجاعة ،ومن اصطنع اليوم شكر غدا " ومن وجد الاحسان قيدا تقيد "

وان مقامى حيث خيمت محنة * تدل على فهم الكرام الأجاود (١)

ان رسالة الخوارزمى هذه تعبر عن شعوره بعزته واحساسه بمكانته . وقد رسم للوزراء والامراء الطريقة التى يمكن ان يستفيدوا بها منه اذ انه رجل شريف عالى الهمة لا يرضى بالهوان ولا يخدم الامراء تحت التقريع والتهديد .. فاذا كانوا يرغبون فى أدبه فليداعبون فيه بالادلال والامتهان ولكن ليطلبوه بالوفاء والتكريم واعطائه ما يستحقه من المعاملة الحسنة ويشعروه انه يستحق الاكرام . وعند ذلك يجد الاديب أنه ملزم بأن يجازى من أحسن اليه فيعطفه الحياء ويغصبه الوفاء أن يرد الجميل ويشكر النعمة ،وهل عند الاديب شئ يرد به الجميل سوى قريحته وأبيات بيانه .. يخلع بها على ممدوحه ثيابا تشبهه ويمطر ذكره فى الملأ .

وهو يمثل الاديب بما يقتنيه الوزير من الانية الزجاجية الجميلة الغالية ، ان حافظ عليها ووضعها موضعها اللائق بها أسرته وكانت جمالا يزين المحل ويسر الناظر ، وان عبث بها وكسرها جرحته وصعب على الجابر اعادتها وساءت كل من نظر اليها وهو تشبيه جميل فيه ايحاء وتهديد يترجمه ببيت الشعر الذى تمثل به . فالاديب

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٧٤

اما أن يكرم فيشكر .. وهذا يدل على كرم ونبالة المكرم أو يهان ويبخل ، فيسخط واذا سخط عرف كيف يثلب ويهجو ..

وهذا فهم أبي بكر لرسالة الاديب في عصره .. ولا نخالفه ان الاديب ممن يكرم ويشجع ويعرف فضله ولا يجحد .

ولكننا لا نوافقه على ان مهمة الاديب تقف عند مدح من يكرمه وثلب من يهينه أو لا يكرمه .. فمهمة اكبر من هذا بكثير .

فهو ليس ملكا لمن يدفع أكثر ولكنه ملك لامته .. ينتج لها من ابداعه ما يرضيها ويصيغ بأدبه ما يهذب اخلاقها ويلهمها المعاني السامية الرفيعة ويقوم ما اعوج من سلوكها ويدافع عن مبادئها .. على أنه يعجبنا من أبي بكر الخوارزمي عزة نفسه هذه التي يظهرها في رسائله وترفعه عن منازل الذلة والهوان .. في وقت لا يستطيع كل أديب أن يتشبث بمبدأه ، فوزراء ذلك الزمان لا يترفع عن خدمتهم ، أو يأنف من مجاملتهم ومداراتهم معالم أو أديب . الا من لزم بيته واستغنى عما في أيديهم .

ومما يدل على استقامة خلق الخوارزمي ورفضه للتذلل ومواقف الضعة ما قاله لصاحب ديوان الحضرة حينما طولب بالخراج : (وما أيسر دواء هذا لو طاوعتك نفسي العاصية وتابعتني رجلي الابية فدخلت الديوان ، وصانعت الزمان وفتحت جراب النطاق والرياء ، وأغلقت باب الحفاظ والوفاء)[1] . ومن مبالغته في فخره بنفسه قوله (على أني حيثما كنت متاع على خوارزم مكسود ، ومعروف لها مجحود ، ومشهد فيها مشهود ومقام من مقاماتها محمود ، وكل من رآني مدن بلدا كنت من أهله وغدا والدا أنا من نسله)[2] .

---

(١) رسائل الخوارزمي ص١٠٩

(٢) نفس المصدر ص١١٠ وانظر بقية الامثلة ٨ ، ٢٩ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٥

الوصـــف : وهو غرض من أغراض الشعر كما نعلم قصده كتاب القرن الرابع الهجـرى وقد جود فيه الخوارزمى وأفرغ فيه فنه ، كتب يصف قصيدة لأحد تلاميـذه .. وهو وصف لا يمكن أن نعده نقدا .. لأن غرضه فى هذا الوصف اطراء القصيدة واظهار فنه البديعى والبيانى فيه . يقول : " وصلت القصيدة الغراء الزهراء فكانت أرق من الهـواء ، وألذ من الصهباء ، وأسر من اللقاء بين الأحباء ومن هجوم السراء غب الضراء ، وأعذب من منازلـة النساء ، ومن مجالسة الندماء ، ومن مساعدة القضاء ... ومن استمـاع فوائـد الحكماء ، وخطب البلغاء ، وقلائد الشعراء ، ومن أخذ جوائـز الأمراء وتحصيل مراتب الخلفاء ، فكانت معانيها أبدع من الوفـاء ، وأعز من السـخاء ، وأغرب من النصفة فى الأصدقاء ، وألفاظها أحسن من البدر فى الظلماء وأطيب من وصال الحسناء ... وفتحتها عن وشـى الوشـاء وعن الروضة الغناء . لا بل نشـرتها عن الزهرة الزهراء ، وعن الغـرة الغراء ... ورأيتك نطقت بها وعن يمينك التأييد ، وعن يسارك التسديد ، ومن وراءك الجد / السعيد .. "(١)

وهو كما نرى وصف معنوى ، أظهر لنا فيه الخوارزمى مقدرته على التـزام روى واحد لكل سجعه هو حرف الهمزة ، مما أضعف روعة الرسالة وأخفـى عاطفته فيها .. وفيها كثير من التشبيهات الدالة على كثرة تحصيله وسـعة ثقافته . وقال يصف مسجدا :

" أحق الأماكن بأن يصان ولا يهان ، وأولاها بأن ينحى عن مدرجـة الاختلال ويرفع عن أن تتناوله يد الابتذال ، مكان بني ليجمع شمل التعبد ، ويضم نشـر التهجد ، وترفع منه الحوائج الى من لا يضجر من السـؤال ،

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٢٣ .

ولا يتبرم بكثرة السؤال ، وهو الكبير المتعال ، فان صيانة هذا المكان صيانة الدين ، بل صيانة الاسلام والمسلمين ، وكبت الكفر والكافرين ، وماظنك بموضع هو بيت من بيوت الله ، ومظلة لقراءة وحي الله ، تصف فيه الاقدام بين يدى الله ، يتميز فيه أولياء الله من أعداء الله ، وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وهو مسكن من مساكن الابرار ، ومجلس من مجالس الاخيار ، وحصن من حصون المسلمين على الكفار ، وجسر بين الجنة والنار ، لدخوله عبادة والمقام به سعادة ، والاعتكاف فيه سنة مستحسنة ، لايخترقه كافر ، ولا يقربه الا طاهر ، من عمره عمر طريق الآخرة ، ومن بناه بنى له بيت فى الجنة (١) ... وهذه القطعة كأنها خطبة منبرية نرى فيها الخوارزمى يحث على بناء المساجد وتعمدها وصيانتها . كما يبين لنا مكانة المسجد عند المسلمين .. وهو شعور طيب مفعم فى خضم الرغائب الدنيوية التى غرقوا فيها فى ذلك الوقت.

ويصف بستانا له فيخلط الجد بالهزل حتى يدعنا نتساءل أهو حقيقة يصف بستانا أم أنه خيال شاعر يتصور الاشياء التى لا وجود لها؟. يقول الخوارزمى " البستان قد وعدتنى ، ياسيدى اقامة وظيفته بالشجر والنور والزهر ، وأنت ياسيدى بالانجاز قمين ، ووفاؤك به ضمين ، وذلك المكان مرتع ناظرى ومتنفس خاطرى ومجال بصرى ، ومدار فكرى ، ومنهلى اذا شربت ومحدثى اذا خلوت ، وسلاتى اذا غممت ، وشمامتى اذا اشتممت ، وما ظنك بمكان ليست فيه زاوية الا وقد صبّ على فيها كأس . بل طاس وشرب عليها انسان بل أناس ، ونام فى حافاتها وجه صبيح ، وتقلب فى أطرافها قدّ مليح .. وكأنى بك قد عرضت هذا الفصل على الناس فظنوا أنى أصف بستان الزاهر ، أودار ابن طاهر ، أوأذكر الجعفرية أو البركة المتوكلية ، أوأعنى سفد خراسان ، أوشعب بوّان ، أوأنعت نهر الابلة ، أو منتزة الفوطة ، أوشعب أنطاكية .. ولا يعلمون أنى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٩٦ .

انما أذكر بقمة طولها باع وعرضها ذراع ، أعنى باع البقـــة وذراع الذرة ، وأقل من " لا " وأصغر من الجزء الذى لا يتجزأ ، لو طارت عليها ذبابة لخطتهـــا ، أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالسمط صباحا ، وتنكث بالخلال مســـاء ، أشجارها مائة الا تسعة وتسعين ، وأنهارها خمسون الا تسعة وأربعين .. "(١) .

وهو وصف الأديب الذى يحس بالطبيعة وان كان الخوارزمى يلجأ الـــى ذاكرته ليسرد علينا أشهر الأنهار والبقاع الخصبة فى العالم حين لا يستطيـــع الاستمرار فى الوصـــف .(٢)

شكوى الزمـــان :

من يقرأ رسائل الخوارزمى يشعر بأنّة الحزن التى تظهر فى أدبـــه ، فتارة يشكو سوء حظه وأخرى يشكو سوء سيرة رؤساء عصره أو يذم أدعياء الأدب ، وهذه نماذج قصيرة استنبطتها من خلال بعض رسائله .

" حيث انتهت بى المحنة بعد فراق الشيخ الى غاية ليس بينهـــا وبـــين الموت مجاز ، ولا وراءها للبلاء مجاز حتى لقد ركبت غير دابتى وأكلت غير نفقتى ، ونزلت بيتا بكراء ، وأكلت خبزا بشـــراء ، ولبست الصوف فى المصيف والتـــوزى فى الخريف ، وكوتبت مواجهة ، وخوطبت بالكاف مشافهة ، وجلست فى صـــف النعال أعنى أخريات الرجال ، وناظرنى من كان يدرس عليّ ، وخالفنى من كـــان يختلف الـــيّ ، وحتى لقد نشـــزت عليّ جاريتى وحرنت عليّ دابتى وتقدمنى فـــى المســـير رفيقى الذى جمعنى واياه طريقى ، وحتى أنى أخذت الدرهم الجيـــد

---

(١) رسائل الخوارزمى ٧ ، ٨ .

(٢) انظر باقى الأمثلة ص ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٧٤ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٥ ، من الرسائـل .

فصار في يدى ستوقا ، وقطعت الثوب المشترى فصار على بدنى مسروقا ..[١]

أو يقول في أهل زمانه : ولقد رأيت الاخوان غير شيخى ، ومودتهم خلق يبيعونه ممن اشتراه ، ويعرضونه على كل من رآه مع أنه في زمان قد مرجت فيه عهود الاخوان ، وأعطوا وأخذوا أموالهم بالميزان ، ومالوا مع الرجحان على النقصان ، ورضوا من القلب باللسان ومن الغيب بالعيان ... "[٢]

ويقول في أدباء زمانه : " فأما أدباء زماننا فتطرقوا بالأدب الى الجهل فحصدوا النقص من زرع الفضل .. لا نعدم في كل زاوية منهم صغيرا يتكبر ، ولا قليلا يتكثر ، لا يفيد ممن دونه بخلا ولا يستفيد ممن فوقه جهلا ، ولو تعلم لعلم جهله ، ولو علم لحفظ عمله ... "[٣]

وهي نظرات في الحياة والناس والأدباء الأدعياء تلتمس من خلال أدبه ولا تحتاج الى شرح ...

الغرض العلمي (الطب) :

وهذا الغرض غريب على فن النثر . ولا ندرى عما اذا كان سبق الخوارزمى اليه بجعله من المواضيع التي يعالجها النثر الفنى أم أنه أول من ابتدعه ؟ فلمعاصره الصاحب بن عباد محاولة في هذا الموضوع[٤] ، ويصعب تحديد الأول منهما لكونهما متعاصرين . وزكى مبارك يرجح أن الخوارزمى هو السابق[٥] .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٨
(٢) نفس المصدر ص ٧٦
(٣) نفس المصدر ص ٨٩ .
(٤) أنظر اليتيمة ٣/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .
(٥) أنظر النثر الفنى ٢ /٣٠٦ .

والطريف فى هذا الغرض هو أنه من الاغراض العلمية البحتة التى استطاع كتاب القرن الرابع أن يطوعوها لنثرهم الادبى ، ويلبسوها ثوب الجمال الفنى وهذا يعطينا صورة واضحة تدلنا الى أى حد بلغ ولع هؤلاء الكتاب باستعمال أساليبهم الادبية المصنوعة والمحلاة بالبديع . . قال فى وصف الجرب وطريقة علاجه : " الجرب حكة مادتها يبوسة ، وحرارة ، ووقود والتهاب زنداهما الذى يقتبسان منه طعام وشراب ، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن ، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة وتهزمه الطهارة ، وتنقص منه البرودة والرطوبة ، كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه ، فانما يبل حائطا وراءه النار الموقدة ، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبثوثة ، ويقعد تحت قول الاول :

خليلىّ داويتما ظاهرا * فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد وهي تتوقد فى باطن الكبد ؟ وكيف يزول داء سمه مكايله ، وترياقه موازنه ، وكيف يصح جسم حميته دواؤه وغذاؤه داؤه ، وكيف يقوم قليل الترياق بكثير السم أو يفى صغر البناء بكبير الهدم؟ وكيف يرجو الشفاء من لا يضبط شهوته ، ولا يملك يده ، ولا يهجر حبيبه ، طعامه وشرابه ، حتى لا يراهما الا خلسة ، ولا يذوق منهما الا بلفة . . أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته ، وعلى العطش مع حرارته ، وأن . . يقتصر من الطعام على مايكون فى أوسط طبقات الرطوبة ، وفى أعدل موازين البرودة ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ، ولا سبيل الى الحرافة ، فأما البقول فيجب ألا ترى ولو فى المنام ، ولا تمس ولو بالأوهام ، والسمك وماناسبه بليئة ، واللبن وماخرج منه منية حتى اذا أحس فى معدته بالخلاء ، ووقف من طبيعته على الصفاء ، ومن اخلاطه على الاعتدال والاستواء ، استخار الله تعالى ، وشرب

شربة قوية تكنس فضول السوداء ، وتخرج خبايا الصفراء ، وتقمع سلطان البلغم ، وتصفى كدورة الدم ، فاذا انجلى عنه خمار ضعفها ، وتقشعت غيابة سكرها أمدها بفصاد يخص به الأكحل فانه نهر العروق ، والطريق الذى يفضى منه الى كل طريق .. فاذا فرغ منه وخرج باذن الله سليما عليه .. يعالج حينئذ باللطوخ الذى يغسل ظاهر الجسم ويجلو صدأ السقم ، ولا ينسيّن الاستكثار من الغسل والاغتسال ومباشرة الماء على كل حال ، فان الجرب فى حيز الحرارة ، كما أن الماء فى حيز البرودة .. وملاك الأمر الحمية فانه لا يكون قوى الحمية الا من كان قوى الحمية ، ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية .. فكم من لقمة أتلفت نفس حر ، وكم من أكله منعت أكلات دهر وكم من حلاوة تحتها مرارة الموت .. والعلل كلها وان كان يشملها اسم ، وجمعها حكم فهي متباينة الأقدار متمايزة المقدار .. فعلة العشق دليل على لطف الغريزة والمترجم عن الرقة الروحانية .. وعلة النخرس دليل على أن صاحبها مخدوم مكفى .. وعلة الجرب دليل على تضييع واجب النفس من التعهد وعلى التفريط فى العلاج والتفقد ، تنطق بأن صاحبها ضعيف المنة فى التوقي ، أسير فى يد الحرص والتشهي ، غاش لنفسه قليل البقاء على روحه ، وكيف يحفظ أصدقاءه من لا يحفظ أعضاءه ... وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياء ، وتورثه خجلا واسترخاء ، ينظر الى الناس بعين المريب ، ويتستر عنهم كتستر العيب ، تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس ، وتنبو عن مؤاكلته العيون ... فتنفر منه نفسه وتهرب من فراشه عرسه ، وتباعد عنه أقرب الناس منه ... ثم هي ربع من أرباع الخذلان ، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر:

أعاذك الله من أشياء أربعة ** الموت ، والعشق والافلاس والجرب

ماظن سيدى بداء سارت به الأمثال ، وقيلت فيه دون سائر الأدواء الأقوال ؟ ... وانما ذكرت فيه ماذكرت لأزيد سيدى فى الهرب منه رغبة وفى الصبر عليه

زهادة ... من الله على سيدنا بالشفاء" (١) .

فالخوارزمى هنا يصف لنا داء الجرب وصفا دقيقا كما يصف لنا علاجه هذا الوصف العلمى الأدبى الذى لا ندرى أيوافقه عليه الأطباء أم لا . كما أجاد فى ذكر أسبابه والتنفير منه ومن مسبباته اجادة قد لا يستطيعها الطبيب ... ولا يعيب معالجته لهذا المرض الصبغة الفنية التى كساها أسلوبه بل لعله فى شرح أسبابه والتحذير من مسبباته والتحكم فى النفس والتمسك بالحمية ... أقوى بكثير من الأسلوب العلمى المجرد .. لما استعمله من أساليب بلاغية وماتخلل كلامه من أمثال وأبيات شعر سائرة . وما أجمل بيانه لآثار هذا المرض النفسية على صاحبه ، وكيف أنه يصيبه بعدم الثقة بنفسه ، ويورثه عقدة نقص تخجله من الناس لاستقذارهم اياه ولخوفهم من عدواه وهو وصف بليغ لنفسية من يعانى من مرض معد .

ب) رسائله التى لم يحوها ديوان رسائله :

على أن هذه النماذج التى سوف أوردها مما يرجح ظننا فى أنه ضاع من رسائل الخوارزمى شيء كثير .. وهذه النماذج يقوى فيها أسلوبه عن أسلوبه فى رسائله المعروفة .

فهو فى هذه الرسائل - كما سنرى - أنضج فكرا وأحكم أسلوبا وأصدق لهجة .. وهى من اختيار تلميذه الثعالبى .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٦٨ ، ٦٩ .

والسؤال الوارد هنا : لماذا كان اختيار الثعالبي من غير رسائل الخوارزمي التي يحويها الديوان ؟

وهل معنى هذا أن له ديوان رسائل آخر لم يصلنا . . أم أن له رسائل مبعثرة لم يحوها الديوان ؟ ومنها تلك الرسائل التي دارت بينه وبين بديع الزمان كما سنرى في المناظرة .

وهذه بعض تلك الرسائل التي لم نجدها في ديوان رسائله :

(١) كتب الى بعض اخوانه جوابا عن كتاب - وقد أوردها الثعالبي تحت عنوان : نبذ من لطائف الوزراء ومحاسن ألفاظهم - كتب يقول : قرأت كتابك المذ بالموارد والمصادر ، والحلو الأوّل والآخر ، الذي نثره غرر ، ونظمه درر ، ونشره مسك وعنبر يقطر منه ماء الكتابة ، وتشم منه روائح البلاغة وتهب من ألفاظه رياح الخطابة ، وينطق عنه لسان الفصاحة .

وقد شكرتني أعزك الله على قضاء حق لم يسعني الا أن أقضيه وعلى أداء دين لم يجز الا أن أوفيه ، وزعمت أني عرفتك من جهلك ، ونبهت لذكرك من لم يكن انتبه لك .

لا وحق الحق ، فانه الواجب على الخلق ، ما رأيت أحدا لا يعرفك الا من لا يعرف القمر طالعا ، والفجر ساطعا ، والبرق لامعا ، والبحر زاخرا ، والفلك دائرا ، وهل يخفى على الناس النهار أو هل يستتر علم على رأسه نار وقد شكرتك على هذا الشكر ، فلاتعد لغيره آخر الدهر "(١) .

وهذه القطعة تعد نموذجا لنثره الجيد الجميل . . لما بناها عليه من سبك قوي في العبارات . . وما تحويه من صور موحية واستعارات بعيدة بديعة

---

(١) تحفة الوزراء " مخطوط " ورقة رقم ١٧ .

رغم طريقته فى رص العبـــارات وكثرة المترادفات .

٢) وله قطعة أخرى يعتذر فيها من تأخر المكاتبة :

" أتانى مع الركبان ظن ظننتـــــه * لفقت له رأسى حياء من المجـد

كتابى الى مولاى أطال الله على الزمان بقاءه ، وأدام عزه وعلاءه ، وأراه فى أوليائه ماشاءه ، وجعل الايام الى مطالبه سفراءه ، والصعود لحاجاته كفلاءه والاقران غرماءه .

وأنا من الحياء عليل ومن الشربة التى سقانيها ثقيل وخمارى منهـــا عريض طويـــل . ذكر سيدى أنى قطعت مكاتبته تناسيا له ، وتهاونا بـــه ، واعراضا عنه ، وزهدا بما كان فى يدى منه ، وقد صدقت فى الاولى ولـــم أســلم له فى الاخرى . . أما الكتابة فقد انقطعت ، والمودة ماضيّعـــت والعهد بمائه على صفائه ، لكن الايام فى قطع علائق الحبال وأســـباب الوصل . . أسباب بعضها من ذنوب الزمان ، وبعضها من ذنوب الانسان ، وقد أقررت بالتقصير ، والتزمت تبعة الذنب بالمعاذير . فان كنـــت أسأت حين قصرت فقد أحسنت حين أقررت ، وان عققت لما لم أقم بمسودة سيدى بعنايتها ، ولم أرعها حق رعايتها ، فقد أجملت لما وفرت عليـــه سهد الفضـــل ، وخليت له فى السبق الخطل ، وبسطت لسانه بالعذل ، فوضع قلمه حيث شاء من الملام ، وركبه على ما أراد من حلبة الكلام ، ولـــولا أنه وجد بجنابى ترابا لما تمرغ ، ولولا أنى أجررته لسان البلاغة لمـــا أبلـــغ "(١)

---

(١) نفس المصدر السابق ورقة ١٧ ، ١٨ .

٣) ولـــه من أخـــرى :

يا أطيب الناس ريقا غير مختـــبر * الا شهادة أطراف المســـــاويك
قد زرتنا مرة فى الدهر واحـــدة * " ثنى ولا تجمليها بيضة الديـــك "

زرتنى - أيدك الله - نصف زورة ، هجرتنى مدة فترة ، فليت شعـــرى مالذى أنكرت من أعمالى ، وما الذى عظمت من أفعالى وأقوالى فأقلـــع عنه ، وأتوب منه .

ما أحب لسيدى أن يكون خفيف ركاب الملال ، قصير خطوة الوصـــال .. لايدوم لاخوانه على حال . هذا وهو بالأمس يعلم اخوانه كيف يـــرب الود وكيف يحفظ العهد ، وكيف يرعى المغيب ، وكيف تراض على الوفـــاء القلوب ، وما اتهم عليه غير عينى فانى قد أصبته بها ، فأبعدته بسببهـــا ، فمن ألوم وأنا المشـــكى الشاكى ؟ ، وهم أتداوى وأنـــا المرمى الرامـــى ؟ سقى الله ليلة لقيت سيدى فيها ، فلقد كانت قليلة الا أنها كانت جليلـــة وقصيرة لكن حســـرات فقدها طويلة ، وأظننى لم أشكر عليها الدهـــــر فسلمنيها ، ولم أعرف قدر النعمة على مائدتها .

وقد قلبت لها ظهر الجن وبطنه فلم ألق من أيامه عوضا بعد .وانى لأخشى أن أتعلم من سيدى السلوة ، وأن أقارضه الجفوة ، فيعديـــنى ويغرينى بقلة وفائه . فيجمع علي أليم الفراق ، ويسلبنى كريم التـــلاق ، وانما القلوب عيون تترآى ، ووجوه تتلالأ ، وتجارتتابيـــع وتتشـــارى "(١)

---

(١) نفس المصدر الورقة ١٨ .

ج) المقـــــال :

وبعد كل هذا التطواف فى ثنايا رسائل الخوارزمى يهمنى أن أورد .. مقدمة كتابه " الامثال " ذلك أن أسلوبه فيها يختلف عن أسلوبه فى رسائله الاخوانية ، كما سنرى يقول فى مقدمته : " الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه أجمعين .

اللهم انا نسألك قولا بالحق وعملا به ، وطلبا للرشـــد وانتهاء اليـــه ونعوذ بك من أن يشغلنا الهزل عن الجد أو أن يستحوذ علينا الباطـــل دون الحـــق أو أن نهرب الى دعة الجهل وحلاوته عن تكلف العلم ومرارته ، وأن يغرنا ثناء الناس علينا عن أنفسنا ، وأن يغلبنا حسن ظنونهم علـــى يقيننا ، وأن نقنـــع من العلم بالتظرف ، ونرضى من الأدب بالاسم ، ومن الفهم بالرسم ، فقد كثر المدعون وقل المتحققون وتراضى الناس بأن يقـــر بعضهم بما هم عارون عنه ، وقنعوا بأن يتسموا بما هم خالون منه ، فصـــار العلم بالمجادلة ، وأصبح الأدب بالشغب ، والمصايحة وجلس فى كل زاوية عالم لم يعلم ، ومفهم لم يفهم ، يتسلل من العلم لواذا ، ويداخل أهـــل الحقائق بالمخاريق ويسبح فى أوديـــة الدعوى بكف الباطل ، فان طولـــب ببرهان تترس بالمعهدة ، وان سئل عن شـــىء حاج (١) وتشاغـــل بالمعارضة ، وما أخوفنى أن أذم الزمان وأنا آلته وأقـــع فى المدلســـين وأنا منهم ، وأشكو من الزمان وأنا عيبه ، وما أبرىء نفسى ان النفس لأمـــارة بالســـوء .

ثم ان هذا كتاب صنفناه نداوى به الزمان ، ونجانس بتأليفه الوقت ولكل زمان تصنيف يحكيه ، وفى كل وقت علم يقتضيه ، وربما ضاق الوقت عن صـــرف

---

(١) فى الأصل : حأجـــر .

الجـد ، وجل عن الهزل ، فاحتيج الى سلوك طريقة بينهما ، ولكل مقـــام مقال .

ونحن نخرج من عهدة هذا الكتاب ونبرأ الى الناظر فيه من عيبه عنده ، . . ونكشف له عن صورته ليكون نظره فيه عن بصيرة ، وتركه له عن معرفة . فانه ان طلبه غير عارف بفضله كان مقلدا ، وان رفضـه دون اقامة الحجة فى رفضـه كان متحاملا متعصبـا .

هذا كتاب ألتقط من أفواه الشطار والعيارين ،(١) وجمع فى مجالس المغنين والمضحكين ، وروى من البم والزير ،(٢) وحصل فى أثناء البرابط(٣) والمزامـير وجمع أكثر مافيه من السؤال والسائلة ، وتلقف من بين كلام الظرفاء والصوفية فـان طالبتنا فى أسانيده باسم الحسن البصرى ، وبالرواية عن بكر بن عبد الله المزنـى والسماع عن محمد بن كعب القرظى ، وقتادة بن دعامة السدوسى ، أو حدثنـا فى أبياته برواية الأصمعى وأختيار المفضل الضبى ، وتصحيح أبى عثمان المازنـى ، واجازة محمد بن المستنير النحوى أو ابن عبد الله الاعرابى أو أردت منّا فى أمثالـه أن يكون من حكم أكثم بن صيفى أو أمثال بهمس الفزارى ، ونوادر عامر بن المضـرب العدوانى وعمرو بن عمسة الدوسى كنت قد طالبتنا بما نحيا به ، وتحكمت علينـا بما نعجز عنه وكل من مجلبه يطلب ، وكل متاع فى قرارته يطلب ، ونحن نعتذر اليـك من الحاجة الى جمع هذا الكتاب ماعليه جل أهل الزمان وخدم السلطان من الميـل الى الأدب الرطب لسهولته والنفور عن الأدب اليابس لوعورته حتى أن أحدهـم يتطير من شعر أهل الجاهلية ويتبرم بفهم النحو واللغة ، ويضرب " قفا نبـك "

---

(١) الشطار : مفردها : شاطر وهو من أعيا أهله ، خبثا : والعيارين جمـع عيار : الذكى كثير التطواف .

(٢) البم : العود ، أو الوتر الغليظ من أوتار المزهر والزير : هو الدّن : التصويت والطنين .

(٣) جمع بربط : العود " معرب " (القاموس المحيط) .

مثلا لكل مبتذل ، ويجعل "عفت الديار" معيارا لكل متروك مهمل . قال بعضهم :

خلقنا على باب الأمير كأننـــــــا * "تقانبك من ذكرى حبيب ومـــــنزل"

. . . وانما الأدب أرشدك الله لسان ، واللسان آلة والآلة تنفق بطلب الطالـــب لها ورغبته فيها ، كما تكسد برغبته عنها وأنزوائه منها ، والمهمل اذا احتيج اليه مستعمل والمستعمل اذا استغنى عنه مهمل .

ولذلك من الشأن ترك الناس ذكر الشيح والقيصوم ، وأقبلوا على ذكر النرجس والورد ، وطووا ذكر الاثافي والرماد والوقوف على الاطلال والأوتاد ، الى ذكـــر البساتين والأنهار والتغلل بالأنوار والأزهار ، وأغبوا ذكر زينب وعثمـه وأكثروا ذكر تحية ونزهة . اذ كان هذا أجرى على لسانهم وأشبه بحكم زمانهم ، وقد قـــال أمير المؤمنين : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فبالجملة أن الناس بالزمـــان والزمان بالسلطان والسلطان منصرف على حكم حاشيته وبطانته ، وناظر بأعين كتابه وكفاتـه ، وجلهم بل كلهم مائل عن موارد الجدّ الى حلاوة الهزل ، يستبشـــع الاعراب ويلمن الأعراب . .

ولما كان الشأن هذا الشأن ، والزمان هذا الزمان ، وضمت هذا الكتاب وجمعت فيه أمثالا استحدثها مولد والعصـــر وانشاء الزمان ، وأبناء الدولـــة العباســية من أهل بغداد وغيرها من العراق ودمشـق وذواتها من الحجـــاز وهي قريبة الفهم عذبة على اللسان مقبولة في القلب ، لا يجهلها العامة ولا يتكـــبر عنها الخاصة وأكثرها مرسلة لا يعرف أصحابها لاتيان الزمان على ذلك . ولأن كلام العرب لا تقيده الأفهام ولا تشغل بتخليده الأقلام ولا يجرى في الضبط والروايـــة مجرى كلام العرب الذين حفظوا أنسابهم وقيدوا آدابهم وعلموا أن الأمثال حكمتهـم فوعوها وأيقنوا أن الأشعار وا وينهم فرووها ". (١) الى آخر المقدمـــــة .

---

(١) المقدمة من الورقة ١ - ٥ .

والخوارزمى فى هذه المقدمة يكشف لنا عن أحوال زمانه وأهل وقته فهو يشكو من أولئك المتخذلقين الذين يتعالمون وينسبون أنفسهم للأدب وهم خالون منه ... وأن القوم تواضعوا على النفاق والمجاملة بحيث يقر بعضهم لبعض بما هم عارون عنه .

كما يكشف لنا عن تفشى الجدل والمناظرة بين أدباء عصره وهو مايسميه " بالشغب والمصايحة " ويشكو من أولئك الجهال الذين نصبوا أنفسهم للتعليم وهم لا يعلمون ، فاذا جالس أحدهم أهل العلم أخذ يشاغب ويجادل بالباطل فان دلولب بالحجة راح يعربد .. وكأنه يشير الى ماجرى بينه وبين بديع الزمان .

كما يشكو من ضعف الحكام واتكالهم على كتابهم ووكلائهم وحاشيتهم فما استحسنوه فهو حسن ومارأوه قبيحا استقبحوه .على أن هؤلاء قد تخيرنوقهم وفضلوا حلاوة الجهل على مرارة الجد ومالوا عن الأدب الجاد الى الأدب السهل البسيط .

يتظرفون به ، فلم يعد يستهويهم القول الرصين ولا الفكرة العميقة ، ولذلك كرهوا اللغة الفصيحة .. وتبرموا من شعر الأعراب .. لا بل كرهوهم وكرهوا لغتهم وأدبهم . حتى أنهم أخذوا يستهجنون الأدب الجاهلى .. وهذا التحول أعظم من تحول بعض شعراء القرن الثالث ، فأولئك أبوا أن يقولوا على طريقة أمرىء القيس والأعشى من البدء بالغزل والوقوف على الأطلال .. أما هؤلاء فلم يرفضوا أن يقولوا على طريقتهم فحسب ولكنهم رفضوا حتى أدبهم ، وهو أبعد مايتصور فى البعد عنهم . وكأن الخوارزمى يرميهم بالتعصب والشعوبية .

وان كان يرى أن بعدهم هذا ماهو الا بسبب تحضرهم وليونة عيشهم وقصر همهم . ثم يبين لنا أخيرا مايحويه كتابه من أمثال ونوعية تلك الأمثال وهو على

طريقته فى التواضع يزهد القارىء فيها .. والحق أنه كتاب ثمين لا ينقصه تواضع كاتبه ولا ماقاله عنه من أنه من أمثال المولدين .. فالمقدمة تحوى الكثير من الأمثال والقصص القديمة .. وفى نهاية الكتاب يورد أنصاف أبيات أو أبيات من الرجز. هي أمثال أو حكم من شعر القدماء فى نحو من أربعين صفحة.

مع أن أمثال المولدين هي بالنسبة لنا أمثال لها قيمتها لا من حيث مافيها من الحكمة والقول البليغ بل لأنها تكشف لنا عن أحوال العصر .. وهي مع ذلك أمثال عربية فصيحة فيها الحكمة والبلاغة والايجاز.

ونلاحظ كيف سهل أسلوب الخوارزمى ومال الى الترسل .. مع أنه لا يخلو من السجع والازدواج ، ولكن ما جاء منه جاء عفوا لخاطر دون أن يطلبه .. وما جاء به الا تمرس الكاتب فى هذه الصنعة البديعية .. حتى أصبحت تظهر فى أسلوبه دون أن يجتلبها ، فقد جعل المعنى هو الأصل ، والالفاظ والتراكيب فى خدمته ولذلك نجد اختلافا فى أسلوبه هنا وأسلوبه فى رسائله . سوف نشير اليه عند بيان خصائص نثره الفنية .

د) مناظرة لبديع الزمان الهمذانى (١)

عرف العرب المنافرات والمناظرات والمحاورات ، ومايجرى مجراها منذ قديم الزمان - كما سبق أن ذكرنا - ولعل نصيبهم من هذا الفن أكثر من نصيب غيرهم من الأمم - لفرافهم وعصبيتهم وعزة أنفسهم ، ولم يقتصر العرب على النثر فى هذا المجال وحده .. بل نقلوه الى ميدان الشعر أيضا فى فن " النقائض " وهو الفن الذى بلغوا به أقصى غايته .. منذ كانت العداوة بين الأوس والخزرج ، (٢) ثم ماكان بين شعراء المسلمين من جهة وشعراء اليهود والكفار من قريش من جهة ثانية وبلغ قمته على يدى جرير والفرزدق .

على أن النثر أرحب ميدان للسباق فى هذا اللون من الأدب وقد هيأت .. الأحزاب السياسية من أموية وعلوية وخوارج ، والمذاهب الدينية لهذا الفن جوا ملائما نمت فيه وازدهرت .

والمناظرات لون من ألوان الجدل والمحاورات التى بدأت بالأمور السياسية والدينية ، ثم بالعلوم والفنون ، كالنحو واللغة ، وانتهت بالفنون الأدبية ، ولعل المناظرات هي المرحلة الناضجة لتلك المنافرات والمفاخرات التى كانت تدور .. بين بلغاء العرب ولعل أشهر تلك المناظرات الأدبية مناظرة الخوارزمى مع بديع الزمان الهمذانى .

---

(١) المناظرة مأخوذة من النظير : أى الند والكفؤ لأن الذى يناظر يجب أن يكون كفؤا لمن يناظره رسائل البديع ص ٣٣ .

(٢) أنظر النقائض فى الشعر العربى ص ٧٤ - ٧٥ .

وهذه المناظرة وان لم تبحث فى صميم الموضوعات الأدبية ولم تمس جوهر الأدب ، ولا قضاياه الهامة ، الا أنها تكشف عن ثقافة أدباء القرن الرابع واتجاهاتهم الأدبية ، كما أن فيها طرافة وجوانب مسلية ، ولكي نعيش جو هذه المناظرة المثيرة يحسن بنا أن نلقى الضوء على شخصيتى هذين المتناظرين وعن مكانتيهما وظروفهما .

أما الخوارزمى - وقد سبقت ترجمته - فهو شيخ خراسان وأديبها وأستاذ أبنائها ، ضرب بسهم فى جميع العلوم من أدب وأنساب ولغة وأخبار .. شيخ قد حنكته الليالى وفطمته الأيام ، واسع الثقافة كثير الأسفار وكانت له المكانة الاولى بين ولاة المشرق الاسلامى ، مقدما على غيره لفضله وغزارة علمه ، مما كان سببا فى حسد بعض وجوه خراسان له .. وقد أدركه بديع الزمان بعد أن تقدمت به السن وضعف ".(١)

وأما بديع الزمان فقد كان فتى ذكيا يتفجر شبابا وحماسة واندفاعا الى ... الشهرة والمال ، يحب التحدى ويعشق الشجار . وقد أعد نفسه لمثل هذه المواقف . وهو وان لم يكن - فى هذا السن - فى مستوى الخوارزمى ، سعة ثقافة وغزارة علم فانه يمتاز عليه بالحيوية وسرعة البديهة وقوة المعارضة وطلاقة اللسان مع حلاوة المنطق مما مكنه من الاستيلاء على عواطف مستمعيه ، وكسب أصواتهم ، اذ أن أقوى سلاح المناظرة ، قوة المجادلة وسرعة المعارضة .

كما أنه لم يكن من الشهرة وذيوع الصيت فى مستوى خصمه الخوارزمى .. ولذلك أراد أن يستفيد من شهرة الخوارزمى ومكانته اما بملاحاته وعداوته واما بمصاحبته وصداقته ، فلم تحصل له الثانية ، وحصلت له الاولى ،أولعله أرادها وقصدها .

---

(١) قد بلغ من العمر فى ذلك الوقت حوالى ٦٠ سنة فى حين كان الهمذانى فى حدود ٢٥ سنة .

فقد أقدم على المناظرة وهو ضامن احدى الحسنيين ، فان غلب فيكفيه فخرا أنه وقف أمام هذا العملاق ندا ونظيرا ومتحديا ، وهو الذى لم يكن فى الحسبان أن أحدا من الأدباء والشعراء ينبرى لمباراته ويجترىء على مجاراته (١) .

وليس بغريب أن يغلب شاب ناشيء أمام أديب كبير - حلب الدهر أشطره وملأ سمع الدنيا ، وطبق الآفاق ذكره .. فهزيمته أمامه مغفورة وغلطته صغيرة ، ولو كانت كبيرة . وان قدر لهذا الشاب الناشيء الفوز على هذا العملاق فذلك ماكان يبغى وفوق الذى يبغى .

أما الخوارزمى فقد عرّض مركزه وسمعته للخطر بمجرد قبوله للمناظرة ، سواء أكانت المناظرة بناء على طلبه كما يدعى البديع حيث يقول : " وأفضت الحال به وبنا معه الى أن قال : لو أن بهذا البلد رجلا تأخذه أريحية الكرم وتملكه هزة لهم يجمع بينى وبين فلان يمتحننى " (٢) . أو كانت بناء على الحاح بديع الزمان وتحرشه واثارته للخوارزمى ، لأن فوز الخوارزمى على شاب ناشيء لا يزيده فخرا ، وهو من هو شهرة وذيوع صيت ، وهفوته ولو كانت صغيرة فهي " بلقاء مشهورة " وان قدر لهذا الشاب الفوز عليه .. فقد هدم مجده وفضح نفسه أمام جمهوره ومريديه وتلامذته .

ولذلك كان البديع يستعجلها ، ويتلهف لها حيث يقول : " واتفق أن .. السيد أبا على نشط للجمع بينى وبينه فدعانى فأجبت ثم عرض علي حضور أبى بكر فطلبت ذلك وقلت : هذه عدة كنت استنجزها وفرصة لا أزال أنتهزها (٣) ، فالبديع أحرى أن يكون هو الطالب ليرد اعتباره لما لحقه من ازدراء . وقبل أن ندخل هذه المناظرة لابد أن نستعرض تلك الرسائل التى دارت بين الخصمين قبلها والتى

---

(١) اليتيمة ٤ / ٢٤٠ .

(٢) رسائل بديع الزمان ص ١١٧ ، ١٨ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٠

تكشف عن سبب هذه المناظرة وتعد تمهيدا لها ومن جهة ثانية تكشف لنا عن الحق والى أى جانب هو ..

وقد كانت أول رسالة لبديع الزمان ، وذلك قبل لقائها بالخوارزمى يطلب فيها منه أن يبعث له بغلامه ليمضى اليه بما عنده من لواعج الشوق . وهذه هي الرسالة : " أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه ، كما طرب النشوان مالت به الخمر - ومن الارتياح للقائه .. كما انتفض العصفور بلله القطر ... ومن الامتزاج بولائه .. كما التقت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج لمزاره " كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب ..

فكيف نشاط (١) الأستاذ سيدى لصديق طرأ اليه (٢) مما بين قصبتى العراق وخراسان بل عتبتى نيسابور وجرجان (٣) وكيف اهتزازه لضيف (٤) ..

رث الشمائل مخلق الاثواب * بكرت عليه مغيرة الاعراب (٥)

وهو أيده الله ولى انعامه بانفاذ غلامه الى مستقرى لأقضى بما عندى ان شاء الله " (٦) وكان جواب الخوارزمى أن أرسل له واستقدمه ..

ولكن استقبال الخوارزمى للبديع لم يكن بالدرجة التى يصور البديع نفسه فيها من الظمأ والتهلف .. ورسالة البديع كما هو واضح ، فيها من طلب الاستجداء أكثر مما فيها من طلب اللقاء والفرحة له .

---

(١) فى معجم الأدباء " فكيف ارتياح " ٢/١٨٥ .

(٢) فى معجم الأدباء " طوى اليه " ٢/١٨٥ .

(٣) فى معجم الأدباء " مابين قصبتى العراق وخراسان بل عتبتى الجبل ونيسابور ٢/١٨٥ .

(٤) فى معجم الأدباء " فى بردة حمال وجلدة جمال " ٢/١٨٥ .

(٥) فى معجم الأدباء " رق الشمائل منهج الاثواب .

(٦) انظر زهر الآداب ١/٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ومعجم الأدباء ٢/١٨٥ ، ١٨٦ علما أنها محذوفة من رسائل البديع .

فلقاء الخوارزمى لبديع الزمان أشبه مايكون بلقاء الأستاذ للطالب أو لقاء أديب كبير لصحفى مبتدئ طلب مقابلته .

ولذلك لم يحمد البديع هذا اللقاء بل رأى فيه ازدراء واهانة .. فكانت هذه الشرارة الأولى لتلك العداوة ، فقد اتخذ البديع هذا الموقف ذريعة للتحرش بالخوارزمى ..

ولعل من أسباب فتور مقابلة الخوارزمى للبديع أنه قابله فى جمع من وجهاء القوم وبحضرة الشريف العلوى أبى القاسم .. فلم يرد أن يبالغ فى الترحيب به لئلا يظن الحاضرون - ومنهم أبو القاسم - أنه يرفعه عليهم ، ولعله لو قابله منفردا لم يحدث ما حدث ، ثم أن الخوارزمى الى ذلك الوقت لا يعرف البديع الا بذكره ، وقد جاء على غير موعد ، فهو كما يقول الخوارزمى : " وكيف استقبل من انقض علينا انقضاض العقاب الكاسر ووقع بيننا وقوع السهم العائر .. وسيدى كلف الجاهل علم الغيب مع الاستحالة منه ". (١)

وبعد اللقاء الذى أغاظ بديع الزمان كتب للخوارزمى :

" الأستاذ أبو بكر - والله يطيل بقاءه - أزرى بضيفه ان وجده يضرب اليه آباط القلة فى أطمار الغربة ، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة وفى الاهتزاز له أنواع المضايقة من ايماء بنصف الطرف واشارة بشطر الكف ودفع فى صدر القيام عن التمام ومضغ الكلام ، وتكلف لرد السلام ، وقد قبلت تربيته صغرا واحتملته وزرا ، واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ، ولم آله عذرا ، فان المرء بالمال وثياب الجمال ، ولست مع هذا الحال وفى هذه الأسمال أتقزز صف النعال ، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب (٢) لقلت : ان بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح ، وناسا يجرون المطارف ولا يمنعون .. المصارف .

---

(١) انظر معجم الأدباء ٢/١٩٢ .

(٢) فى معجم الأدباء " وصدقته السماح " زائد ٢/١٨٧ .

وفيهم مقامات حسـان وجوههم * وأندية ينتابها القول والفعـل

ولو طوحت بأبى بكر - أيده الله - طوائح الغربة لوجد منال البشر قريبا ومحـط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ورأي الأستاذ أبو بكر أيده الله فى الوقوف علـى هذا المتاب(١) الذى معناه ودّ والمر الذى يتلوه شهد .. موفق ان شاء الله تعالى(٢).

فذنب الخوارزمى اذا عند البديع هو أنه لم يستقبله استقبالا حارا يليق به ، ولم يحتف به الاحتفاء الذى يتناسب ونفس البديع الشابة ، المتوثبة ، الطمـوح والآمال الواسعة التى يرنو اليها ، ويقدر أن كل الناس سوف تعينه على تحقيقهـا ، وتقدر له مايتمتع به من مواهب وقدرات خارقة - ان كانت على مايدعى البديع - وأظن الخوارزمى لو كان يعلم مايتمتع به هذا البديع من مواهب ومقدرة لاختلفت نظرته اليـه ولكان له معه لقاء أحسن من لقائه .

ولا شك أن هذا الخطاب فاجأ الخوارزمى ،اذ لم يكن ينتظر من ضيفه الطالب لمساعدته ، أن يهز يده فى وجهه احتجاجا على سوء مقابلته ، بل ويتهمه بالتقصـير فى حق ضيفه وازدرائه به بل ويفاخره بما وراءه من نعم وابل ، وقوم ساده كرماء ، وكأنه يعرض ببخل أبى بكر وبقومه ثم يطلب أبا بكر ، أو يأمره بأن يوليه عنايته الا تزدريـه عينـه .

ثم يعترف أن عتابه هذا له ، مرّ ولكنه يعده فى صورة التهديد أن وراء هذا المرشـهدا . ولو أدرك أبو بكر ما وراء هذا الشاب الذى يتحرش به لأمسك قلمـه ، ولكان ذلك أسلم له ، واحفظ لمكانته وسمعته ، ولكنه لم يطق صبرا على هذا الاتهام والفخر والتعريض الذى يسيء الى سمعته .

---

(١) فى معجم الأدباء " ورأى .. فى أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينيه ويوسع أعطاف ظنه ويجيبه بموقع هذا المتاب " ٢/١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) رسائل البديع ص ١٥ .

فأجابه بهذه الرسالة :

انك ان كلفتني مالم أطـــــــــــق * سأبك ماسـرك مني من خلـــــــق

فهمت ماتناوله سيدى من حسن خطابه ومؤلم عتبه وعتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لايخلو منه من نابه دهر وسه من الايام ضر ، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه ، ومظنة مشتكى مافى نفسه ، أما ما شكاه سيدى من مضايقتى اياه رغم فى القيام ، وتكلفى لرد السلام ، فقد وفيته حقه كلاما وسلاما وقياما على قدر ماقدرت عليه ، ووصلت اليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبى القاسم ، وما كنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه البتول وشاهداه التوراة والانجيل ، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل ، وأما عدم الجمال ورثاثة الحال فما يضعان عندى قدرا ولا يضران نجرا (١) ، وانما اللباس جلدة ، والزى حلية . بل قشرة ، وانما يشتغل بالجل (٢) من لا يعرف قيمة الخيل - ونحن بحمد الله نعرف الخيل عارية من جلالها ، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأموالها ، وأما القوم الذين صدر سيدى عنهم وانتمى اليهم ففيهم - لعمرى - فوق ماوصف ، حسن عشرة وسداد طريقة ، وجمال تفصيل وجملة ، ولقد جاورتهم فنلت المراد وأحمدت المراد .

فان أك قد فارقت نجدا وأهلـــه * فما عهد نجد عندنا بذميم

والله يعلم نيتى للاحرار عامة ولسيدى من بينهم خاصة ، فان أعاننى على مرادى له ونيتى فيه بحسن المشرة ، بلغت له بعض مافى المنية وجاوزت مسافة القدرة ، وان قطع علي طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار .

---

(١) النجر : الاصل . (٢) الجل : السرج .

فما النفس الا نطفة بقـــــــرارة * اذا لم تكدر كان صفوا غديرهـــا

وعلى هذا فحبذا عتاب سيدى اذا صادف ذنبا واستوجب عتبا فأما أن يسلفنا الصديدة ويستكثر المعتبة والموجدة فتلك حالة نصونه عنهـــا ، ونصون أنفســـنا عن احتمال مثلها ، فليرجع بنا الى ماهو أشبه به ، وأجمل له ، ولست أسومه أن يقول : " استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين " ، ولكن أسأله أن يقول : " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " (١)

وبعد هذا أوماكتب الخوارزمى للبديع واذا كانت رسالة البديع تشف عن نفـــوس ثائرة ، واندفاع نحو المشادة والمناقشة ، بما تحمله من اتهامات وتصريض واثارة للشعور فان رد الخوارزمى يتسم بالتواضع والهدوء واللين ، وفيه من الاعتذار ما يطفىء ثائـــرة البديع حتى لو كانت اتهاماته للخوارزمى صحيحة كلها ، وكنا نتوقع قبل قراءة رده أن يثور لكرامته من اتهامات هذا الشاب الذى جاء طالبا العون والقرب فأصبح يريد التشنيع والنيل مـــن السمعة ، ولكن الخوارزمى بدلا من ذلك نراه يحاول أن يعتذر لما بدر من البديع مـــن نـــزق وضجر وينسبها الى صروف الدهر غير المواتية ، ولبعده عن أهله ووطنه ، ثـــم يعتذر له أنه وفاه حقه من السلام والكلام والقيام ، ولم يرفع عليه سوى أبى القاسم ، ذلك أنـــه شريف علوى ، واحترام الخوارزمى له لا يعد اهانة للبديع خاصة وأنه يعلم مدى حب الشيعة لابناء على ، ويعتز بقصده له وبعمله مشتكى مافى نفسه ، ويؤكد له أنه لا يغتر بالمظاهـــر ولا تهمه ، فلم تكن رثاثة حاله لتنقص من قدره عنده كما أنه يوافقه على ما افتخر به من عـــزة قومه .

ويعلن عن استعداده لمساعدته ، ولكنه يطلب منه الا يفسد ما بينهما بنزقه وكثـــرة لومه وتقريعه ، فهو رحب الصدر ولعمرى أنه لا يرى ما يستحق عليه كل هذا العتب ، ومع ذلك

---

(١) انظر معجم الادباء ٢ / ١٨٨ ـ ١٩٠ وهى تختلف فى بعض الالفاظ عن مافى رسائـــل البديع وفيها زيادات ونقص ولكن أثبت مافى معجم الادباء لانها أكمل . انظر رسائل البديع ١٥ ، ١٦ .

فهو لا يطلب منه أن يجشم نفسه مشقة الاعتذار له ، ولكنه يطلب منه أن يغفر له تلك الاساءة غير المقصودة ، أو ما ظنها البديع اساءة .

ولكن ماذا كان رد البديع على اعتذار الخوارزمي ؟ .. لنقرأ ماذا يقول :

« أنا أرد من الاستاذ سيدي أطال الله بقاءه شرعة وده ، وان لم تصف ، والبحر خلعة برده وان لم تضف ، وقصارى أن أنيله صاعا عن مد ، وان كنت في الادب دعي النسب ضعيف السبب ، ضيق المضطرب ، سيء المنقلب ، أمت الى عشرة أهله بنبقة وأنتمي الى خدمة أصحابه بطريقة ، ولكن يقي أن يكون الخليط منصفا في الوداد ، ان زرت زاره ، وان عدت عاد وسيدي - أطال الله بقاءه - ناقشني في القبول أولا ، وصارفني في الاقبال ثانيا ، فأما حديث الاستقبال وأمر الانزال والانزال ، فنطاق الطمع ضيق عنه وغير متسع لتوقعه منه .

وبعد : فكلفة الفضل بينة وفروع الود متمينة وأرض العشرة لينة ، وطرقها هينة فلم اختار قعود التعالي مركبا ، وصعود التغالي مذهبا ؟ وهل ذاد الطير عن شجرة العشرة وذاق الحلو من ثمرها ، فقد علم الله أن شوقي اليه قد كد الفؤاد برحا ، الى بسرح ونكاه قرحا على قرح ، ولكنها مرة مرة ونفس حسرة ، لم تقد الا بالاعظام ، ولم تلن الا بالاجلال واذا استعفاني من معاتبته ، وأعفى نفسه من كلف الفضل يتجشمها ، فليس الا غصص الشوق أتجرعها وحلل الصبر أتذرعها ، ولم أعره من نفسي ، فأنا لو أعرت جناح طائر لما طرت الا اليه ولا وقعت الا عليه » (١)

لم يطفىء اعتذار الخوارزمي ثائرة البديع ، بل لا زال يضرب على نفس الوتر المشدود - وان ذا يدعي أنه انما كتب له هذه الرسالة بعد أن نقل له الناس أنه ينال منه - فهو

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٦ ، ١٧ وفي معجم الادباء زيادات انظر ٢ / ١٩٠ - ١٩٢ وفي آخرها ورد هذان البيتان :

أحبك يا شمس النهار وبدره ... وان لامني فيك المشيب والفراقد

وذا كلان الفضل عندك باهر ... وليس لان العيب عندك بارد

يتهمه فى هذه الرسالة بأنه غير صافى الود .. ولا كريم معه من رغبته فى ودّه وكرمه ، ولا ينبغى أن يلوح له بالتهديد فى صورة الرغبة والاقبال عليه - وقصارى أن أكيله صاعا بصاع عن مد " .

ويوحى للخوارزمى بتضلعه فى الادب فى صورة المتواضع ، ثم يطلب منه أن يعامله معاملة الندية ، لا معاملة الاستاذ لتلميذه ، اذ أنه يريد الاخاء والود مناصفة بحيث لا يزيد أحدهما على الاخر .

ثم يعود للجرح القديم ينكيه بالحديث عن الاستقبال والانزال .. وما كان عليه الخوارزمى من التكبر والاستعلاء والازدراء له . ثم يعود مرة ثانية يطلبوده وصداقته ويظهر له من الشوق ما يجعل الانسان يحتار ما بين أول رسالته وآخرها !! ؟

فالشوق يدفعه الى مقاربة فضل الخوارزمى وتجذبه الرغبة للمزود من علمه ، ولكنه يشترط أن يعظم ويكرم ويطلب منه أن يستمر فى هذا العتاب والمؤاخذة ، وكأنه شعر أن الخوارزمى ربما زم قلمه ، وقصر خطوه عن التمادى فى هذه المشادة .

وللخوارزمى أن يتساءل : ماذا يريد هذا الصديق الذى يطلب قبول صداقته بل يفرضها عليه ، ثم يطلب منه أن يعظمه ويجله ، ولم عاد بعد الاعتذار له الى المؤاخذة والتأنيب ؟ وهل هذا الصديق يهدد ويتوعد أم يتقرب ويمنى ؟ وهل هو يطلب الفائدة والعلم كما يدعى أم يتحدى ويباهى ؟ .. وأهم من هذا وذاك .. هل هو صادق فيما يدعيه من الحب والرغبة فى الود وما يجده نحوه من الشوق والوجد ، أم انه يستعمل هذه الالفاظ غطاء للهجوم ولما يضمره من نوايا ؟ ..

ان رسائل البديع للخوارزمى هذه ، نوع من الكتابة لم يعهده الخوارزمى وما تعوده هو أن يتقبل تلاميذه الذين يحفظون له الود ويعترفون له بالفضل ، أو للوزراء والولاة فهؤلاء لا يخاطبهم بعبارات الاعظام والمجاملة .. أما هذا الاديب الذى

طرأ عليه وانقض عليه انقضاض العقاب الكاسر ووقع عليه وقوع السهم الصائر " فقد حيره فتارة يجذبه اليه وتارة يدفعه عنه بخطاباته التى ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب "

ولا شك أن ماجمع الخوارزمى يستعرض هذه المجاذبة والملاحاة هو غرابة أسلوب خصمه وحسن سبكه واختيار عبارته . والخوارزمى أديب يتذوق الادب ويعرف جيده ولهذا كتب له الرد التالى :

" شريعة ودى لسيدى ـ أدام الله عزه ..

اذا وردها صافية ، وعياب برى اذا قبلها صافية ، هذا مالم يكدر الشريعة بتعنته ، وتعصبه ، ولم تحترق الشهاب بتجنبه وتسحبه ، فأما الانصاف والاخاء فهو غالى عند الاصدقاء ، ولا أقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يرى ويصفو ان كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان اخوان ، وحسن العشرة سلطان ولكنى أقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازن المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان

فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كان الناس يقترحون الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل والى الله المشتكى لا منه .

ذكر الشيخ سيدى ـ أيده الله ـ حديث الاستقبال ، وكيف يستقبل من انقض علينا انقضاض العقاب الناسر ووقع بيننا وقوع السهم الصائر ، وتكليف المرء مالا يطيق يجوز على مذهبنا الاشعرى وقد زاد سيدنا على استاذه الاشعرى فان استاذه كلف العاجز مالا يطيق مع عجزه عنه ، وسيدى كلف الجاهل علم الغيب مع الاستحالة منه ، والمنزل بما فيه قد عرضته عليه ولو اطاقت حمله لحملته اليه ، والشوق الذى ذكره سيدنا فعندى منه الكثير الكبير وعنده منه الصغير اليسير . وأكثرنا شوقا أقلنا عتابا وألينا خطابا ، ولو أراد سيدى

ان أصدق دعواه في شوقه إليّ من حجم عتبه علي فانما اللفظ زائد ، واللحظ وارد ، فاذا رق اللفظ دق اللحظ ، واذا صدق الحبضاق العتاب والعتب .

وبالخير لا بالشر فارج مودتـــي وأي امرئ يعتاد منه الترهـــب ؟

عتاب سيدي قبيح ولكنه حسن ، وكلمه لين ولكنه خشن ، أما قبحه فلانه عاتب بريئا ونسب الى الاساءة مالم يكن مسيئا ، وأما حسنه فلألفاظه الغرر ، ومعانيه التي هي كالدرر ، فهي كالدنيا ظاهرها يضر وباطنها يضر وكالمرعى على الدمن الثرى منظره بهيّ ومخبره ويّ . ولو شاء سيدي نظم الحسن والاحسان وجمع بين صواب الفعل واللسان ..

يا بديـــع القول حاشـــــا لك من هجـــو بديـــــع

وحسن القـــــول عـــوذ تك من سوء الصنيـــــع

لا يعب بعضنه مضـــــا كن مليحا في الجميـــــع (١)

ويظهر أن هذه الرسالة هي الرد الاخير من الخوارزمي للبديع ويعتبر في نفـــس الوقت الرد الاسف وموضوع الصداقة الذي يتستر به بديع الزمان .

اذ أنه بالرغم من اخفاء عداوته للخوارزمي وراء هذه الالفاظ البراقة فانه قد حسزم أمره على أن يتخذ منه موقفا غير موقف الصداقة والاخاء وقد كشف ذلك الخوارزمي ولنسمع مايقوله البديع وهو يترجم نواياه : " وعمدنا لذكره فسحوناه عن صحيفتنا ، ومحونـــاه ، وصرنا الى اسمه فأخذناه ونبذناه ، وتركنا خلطته وتجنبنا خطته " (٢)

ثم يعود بعد هذا ويكتبله الرسالة السابقة ويدعي فيها الشوق والود . فهـــو يخفي غير مايظهر ليوهم الخوارزمي أنه لا زال يوده ويرجو صداقته ، ليبقى بين الطامـــع في وده والخائف من شـــره .

---

(١) انظر معجم الادباء ٧/ ١٩٢ ـ ١٩٥ .. وترد هذه الرسالة ضمن رسائل البديع .

(٢) رسائل البديع ص ١٦

غير أن الخوارزمي قدم للبديع في هذا الرد كشف الحساب ،وقطع عليه السير في هذه اللعبة الذكية ،حيث صارحه أن رسائله هذه لا تنم عن حبوود ،وكيف يكثر الشوق من المتاب وخشن الخطاب لمن يحب ؟ واذا كان ما يدعيه من الشوق صحيحا فليطلبه عن طريق الخير لا عن طريق الشر ، ثم يختم رسالته اليه بأربعة أبيات خفيفة فيها العتب والعجب والرجاء ، والاعتراف له بحسن القول والاجادة في الكتابة ،وفيها أيضا كشف حقيقة الموقف .

ولما علم البديع أن صاحبه كشف لعبته لم يعاود الكتابة اليه ، خاصة وان الموضوع استنفد حقه من الاخذ والرد .

أما الخوارزمي فيظهر أنه رضي بسكوت البديع عنه ،وأما البديع فبقي في نفسه شيء يريد أن يقوله له . فهو لم يشف غلته منه ولا بد من التفكير في وسيلة أخرى فكانت تلك الوسيلة هي المناظرة .

وقبل أن أدخل في هذه المناظرة أحب أن أشير الى أنني وجدت لها مخطوطة في مكتبة عاطف بتركيا (١) ، وعند مقارنتها بالمناظرة المثبتة في رسائل البديع وجدت في المخطوطة زيادات أغفلها من شعر البديع في رده على الخوارزمي ولطرافتها ولان هذا المحذوف يعطينا فكرة عما حصل بينهما من تحريف أثبتها هنا .

فبعد قول البديع : " وجعلت عواصفه تهب وعقاربه تدب وهو لا يرضى بالتمريس حتى يصرح ولا يقنع بالنفاق حتى يعلن " (٢) ورد في المخطوطة مانصه :

" وشكا الى بعض اخواني أني خاطبته مخاطبة مجحفة وانزلته منزلة متحيفة ،وأني أوشر المربدة ، وأسلف الموجدة — يرميني في ذلك بداهة وينسل — فكتبت اليه :

---

(١) تحت رقم ٢٢٧٢ وهي تقع في ١٩ صفحة تم نسخها عام ١١٤٢ هـ .

(٢) رسائل البديع الزمان ص ١٧

بعلت فداءك من فاضـــــل بلغت المراقى من جـــــوره
وفى الغيب أكثر مما رأيـــت وأين البلوغ الى غـــــوره
اتتنى الرواة بما قلتـــــه بهيئتهوعلى كـــــوره
وقولك أني طوع الشجـــا ر أغم ضلوعى على فـــوره
فقلتنصيحا لمن كان قـــد تجاوز منامدى طـــوره
فيا من بذلت وداد ى لـــه فما كنت حوذرا على كـــوره
بود تبلج عن نـــــوره وقصد تفـــرج عن نـــوره
فهس كماليس يخفى عليـــه بصدر النهام الـــى زو ره
ومابيحته بيمـــين الزمـــى وفى الجفون على صـــوره
وقلت لحنظل أخلا قـــه أياجبذ الاوى . فى شـــو ره
ولوكان ذلك من غـــير ه طممت بنجد على غـــيره
ولاعبته بكعاب الرجـــوع فقا مرنى بيد ى جـــو ره
وكان حديثى لما رجعـــت حديث الفتى مع سنـــوره
فلم أدر فيما جفا نيفـــه ولم سكن البر من فـــوره
أ للزمن التى فى حكمـــه أم الفلك الفت فى دوره (١)
وكاتبته أستمـــد الـــود اد كملتمـــس الدر من ثـــوره
فقابل عرفى بمزوجـــه وواجـــه درى ببلـــوره
وزار وزرناه فى قصـــره بما ليس يخجل فى خـــوره
فأما الخطاب فأنت ابتـــدأت ودونك زند المـــنى أوره

فلما وردت عليه الابيات أبرزت باطنه وحركت ساكنه واخرجت دفائن صدره ورفعت أذيال سره وملأ فكيه وعيدا ولحييه تهديدا فكتبت اليـــه :

---

(١) هكذا فى المخطوطة .

أعنى يا أبا بكـــــــــــــــــر على نفشـــة مصـــــــــــدور

على ودك مطـــــــــــــــــوى وعن عتـــــبك منشـــــــــور

الى سلمك مشتـــــــــــــــاق على حربـــــك مقهـــــــور

ولا تمد الى الظلمـــــــــــــــــــــــة من ناحية النـــــــور

ولا تهوى الى الوهـــــــــــــد ة من ناحيـة الســـــــور

ولا تتهـــــم الى الانميـــــا ف الا سبل الخـــــــــير

ولا تحفـــر لهم بئـــــــــرا تقع فى هـــــــوة البـــــئر

ولا تفتل الى الفتنـــــــــــــــــــــة أسباب التنابـــــر

فما أكثر ما عنـــــــــــــــد ك من شـــــر المقاقـــــير

ولا تعـــزف على الاحـــــوال من هـــــذى الابازيـــــر

فكـــم أطوى لـــك السمـــــــــــع على سود المناكـــــــير

وكـــم ألقى عليها الرفـــــق حلمـــــــى وتذكـــــــيرى

وان تعد الى مـــــــاء التصافى يد تكديـــــــــــــرى

تعد عـــن جهـــتى والله محـــــذوف الشوابـــــير

ولا مروان فى الكوفـــــــــة فى غـــــــدوة عاشـــــور

ولا الكلـــــب أتى الجامـــــــــع فى فروة ممطـــــــــور

وان أحببـــت أن تعلـــم فانهـ غير مأمـــــــــــــور

ولا تبطل فدتك النفـــس فـــى ودك تدبـــــــــــيرى

ولا تخلف بأخلاقـــك فى المشـــــــرة تقديـــــــرى

فلما وردت عليه الابيات قال : لو أن بهذا البلد رجلا تأخذه أريحية الكرم ..(١)

---

(١) مخطوطة المناظرة بصاطف ص ٤٠٦ وفى الرسائل " وافضت الحال به وبنا معه الى أن قال لو أن بهذا البلد ـ ص ١٧

وكان أول لقاء بين المتناظرين في دار أبي الطيب بناء على دعوة وجهت لابي بكر ٠٠ يقول البديع : " فلما وردت عليه الرقعة حشد تلامذته وخدمه ، وزم عن الجواب قلمه ، وجشم الا يجاب قدمه ، وطلع مع الفجر علينا طلوعه ، ونظمتنا حاشيتا دار الامام أبـــي الطيب ٠٠٠ " (١) ٠٠ غير أن هذه الجولة ليست سوى تمهيد ومناوشات واستمرار ٠٠٠ ولم يورد البديع فيها من كلام الخوارزمي شيئا ٠ وكل ما أورده هو من كلامه ٠ وقد وصف خصمه بقوله : " كان خلها شمناه وآلا وردناه " (٢) ولا نستطيع أن نحكم للبديع بالفوز على منافسه في هذه الجولة الاولى رغم بلاغة ما رواه وحسن تمثله في تهديده ووعيده بتلك الابيات المختارة ، اذ كيف نحكم على خصم لم نسمع دعواه ؟ وحديث البديع في هذه الجولة يشبه حديث المتكلمين والمصارعين قبل البدء في الاشتباك من توجيه الوعيد والتهديد لمحاولة تثبيط الهمم وزعزعة الثقة وهز الاعصاب ٠٠ كقوله :

" انا نقتحم الخطب ونتوسط الحرب فنردها مفحمين ونصدرها بلفاء ٠

وألسننا قبل النزال قصيرة ولكنها بعد النزال طوال
فارضك أرضك ان تأتنا تنم نومة ليس فيها حلم
ومن ظن أن سيلاقي الحرو ب والا يصاب فقد ظن عجزا
فانك متى شئت لقيت منا خصما ضخما وياكلك خضما ٠٠٠ " (٣)

أما الجولة الثانية من هذه المناظرة فقد سمى في عقدها أبو علي حيث نشط للجمع بين الخصمين ٠٠ فكاتب الخوارزمي يستدعيه ، فاعتذر وتهاطأ في القبول ، وكأنه يعلم أن القوم يأتمرون به ، في حين لبى البديع هذه الدعوة جذلان فرحا حسب ما يرويه ويصف البديع مجيء الخوارزمي في جماعة من أصحابه وتلاميذه بهذا الوصف المقذع " فجاءنا في طبقة أف وعدة تف ، كل بغيض قدره اصبع وأنفه خمسة أشبار ٠٠ لا تنال العين

---

(١) رسائل البديع ص ١٨ (٢) نفس المرجع ص ١٨
(٣) نفس المرجع ص ١٩

منهم الا جبســـا ... ثم رأينا رجالا جوفا قد حلقوا صفوفا ، فأمنا المعرة ، ولـــم نخش الخســـرة " . (١)

ويأخذ البديع على الخوارزمي تمثله قبل البدء بشطر بيت لا تقتضيه الحال ، حيث قال قبل البدء : " مرانا في الحبالة نستبق " . (١)

فتكلم الخوارزمي كثيرا - كما يقول البديع - ولكنه لم يثبت من كلامه شيئا ، فهو يقول وتركنا على غلوائه حتى اذا نفض ما في رأسه وفرغ ما في جعبته عطفنا عليه " (٢)

وفي مقابل اغفال البديع لما قاله الخوارزمي نراه يسهب فيما قاله في مقدمة هـــذا المقام من كلمات وجمل يحسن سبكها ويختار لفظها ، ولا ندري أهو نفس الكلام الـــذي قاله في أثناء المناظرة أم أنه صاغه بأسلوب جميل في هدوء حينما كتب هذه المناظرة ، بعيدا عن جو التوتر والقلق ؟ .. فطلب البديع أن يكون موضوع المناقشة .. الحفظ والنظـــم والنثـــر ، والبديهة وهي الابواب التي بز فيها الخوارزمي كما يقول البديع : " ولنهـــد أ بالفـــن الذي ملكت به زمانك وفقت به أقرانك وملكت به عنانك وأخذت منه مكانك .. وأفحمت به الرجال حتى أذعن العالم وقلد الجاهل " . (٣) وهي شهادة من البديع للخوارزمـــي وان وردت على شكل التهكم .

فطلب الخوارزمي أن يتسابقا في البديهة .. كما يقول البديع - مع أنه أقـــوى في الابواب الاخرى ، وطلب من أبي الحسين أن يقول بيتا لجيزه .. ولكن البديع لم يوافق واقترح ان يأخذ قصيدة للخوارزمي من ديوانه مكونة من ثلاثين بيتا وادعى أنه يستطيـــع أن " يقرن كل بيت بوفقه وينظم كل معنى الى لفقه بحيث يصيب أغراضه ولا يعمد الفاظـــه بشرط ألا يخطئ النفس " (٤) ، فان استطاع ناقد ان يميز قول الخوارزمي من قوله أو يرجح

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠
(٢) نفس المرجع ٢٠
(٣) نفس المرجع ص ٢١
(٤) نفس المصدر ص ٢١

أحدهما على الاخر فللخوارزمي يد السبق ، فاعترف الخوارزمي محتجا أنه لا يأمن أن يكون قد أعد هذا النظم من قبل ، ثم اقترح أيضا أن يختار الخوارزمي لقصيدته قوافي غير ما بناها عليه .. ولكن الخوارزمي رفض هذا أيضا ، ولا أدري ما سر تشبث البديع بقصيدة الخوارزمي تلك لينسج على منوالها ؟

وأخيرا وافق الخصمان على أن يجيزا بيتا لابي الحسين كتابة .. فكتب البديع :

هذا الاديب على تعسف فتكه ... وبروكه عند القريض ببركه

متسرع في كل ما يعتاده ... من نظمه متباطئ عن تركه

والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا ... من أن يكون مطيعه في فكه

والنظم بحر والخواطر معبر ... فانظر الى بحر القريض وفلكه

فمتى توانى في القريض مقصر ... عرفت اذن الامتحان بمركه

هذا الشريف على تقدم بيته ... في المكرمات ورفعة سمكه

قد رام مني أن أقارن مثله ... وأنا القرين السوء ان لم أنكه

واذا نظمت قصمت ظهر مناظري ... وحطمت جارحة القرين بدكه

ودبغت منه أديمه وتركته ... نهب الاديم بدبغة وبدلكه

أصغوا الى الشعر الذي نظمته ... كالدر رصع في مجرة سلكه

فمتى عجزت عن القرين بديهة ... فدمي الحرام له اراقة سفكه (١)

وهذه أبيات كما نرى متوسطة الحس عموما ولكنها جيدة اذا كانت حقيقة مما جرى الموقف وعلى البديهة .. وبديع الزمان معروف بسرعة البديهة وقوة المعارضة ، أما الخوارزمي فلم يجرؤ على اظهار ما كنه رغم محاولة البديع ، ولكنه اقترح أن يقولا مشافهة من غير كتابة ، مجاراة لقول المتنبي :

---

(١) رسائل البديع ص ٢٢

أرق على أرق ومثلي يـــــــأرق وجوى يزيد وعـــبرة تترقـــرق

فبدأ الخوارزمي فقال :

واذا ابتدهـــت بديهة ياسيـــــدي فأراك عند بديهتي تتلقلـــــــق
واذا قرعـــت الشعر في ميدانـــــه لاشـــك أنك يا أخي تتشقـــــــق
اني اذا قلت البديهة قلتهـــــــا عجلا وطبعك عند طبعي يرفـــق
مالي أراك ولست مثلي عندهـــــا متموهـــا بالترهات تمخـــــرق
اني أجيز على البديهة مثلمـــــا تريانه واذا نطقت أصـــــــدق
لو كنت من سحر أصم لهالـــــــه مني البديهة واغتدى يتقلـــــــق
أو كنت ليثا في البديهة خـــــاد را لرويت يا مسكين مني تغـــــــرق
بديهة قد قلتهـــــــا متنفســـــــا فعس الذي قد قلت ياذا الاخـــرق (١)

والحقيقة أن أبيات الخوارزمي - ركيكة مهلهلة فقد أكثر فيها من تكـــــرار " البديهة" حتى ملت ، كما أتى بقوافي مكرهة ، وأجرى غير جاريه على القياس اللغوي كقوله " يتقلق " ولكنها على أية حال قبلت ارتجالا فرد بديع الزمان :

مهلا أبا بكر نزندك أغيـــــــق فاخرس فان أخاك حيي يرزق
دعني أعرت اذا سكت سلا مســـــة فالقول ينجد في ذويك ويصـــــرع
ولفاتك فتكات سوء فيكـــــــــم فدع الستور وراءها لا تخـــــرق
وانظر لاشفع ما أقول وادعـــــــى انى الى أعراضكم متسلـــــــــق
يا أحمقا وكفاك ذا تخزيـــــــــة جربت نار معرتي هل تحـــرق ؟ (١)

واذا كان البديع التزم الامانة فيما قال ، فأبياته على قلتها تعلو أبيات الخوارزمي وتفوقها حسن سبك ، واتساق معنى ، واختيار الفاظ ولا يعيبها أنه صرف " أحمق "

---

(١) رسائل البديع ص ٢٣

وهو لا ينصرف فهي من ضرورات الشعر . وقد أخذه الخوارزمي في هذا لا جهلا منه وهو أحد علماء اللغة ولكنه أراد ارباكه ورجاء ألا يستطيع خصمه تخريجه .

وقد أخذ البديع على الخوارزمي قوافيه المكرهة والتباس معنى بيته الاول فلا يدري أهو مدح أو ذم ، مع ضعف نسجه . وصحيح أن كلمة ياسيدي في هذا البيت نشاز ومثلها كلمة "يا أخي" في البيت الثاني .

ولما كان الخوارزمي قد قطع قصيدة بديع الزمان باعتراضه عليه في كلمة "يا أحمق" اقترن البديع أن يمهل كل منهما الآخر حتى يكمل انشاده ، ويحفظ انتقاداته حتى يفرغ من القصيدة ثم يسردها ، ويحرص بضعف ذاكرة الخوارزمي فيقول له :

" فان عجزت عن اختلافها حفظتها لك فسلني عنها بعد ذلك " (١) .. وطبيعي ألا يوافي الخوارزمي على ما يرغبه خصمه فما دامت المقاطعة تضايقه فليحرص عليها ليربكه ويثير أعصابه . ولذلك لم يمهله حتى يبدأ بيته الثاني حين أخذا يقولان على منوال بيت أبي الطيب :

أحلا بدار سباك أفيدها ... أبعد ما بان عنك خردها

اذ لم ينته البديع من قوله :

بانعمة لا تزال تجحدها ... ومنة لا تزال تكندها

حتى قاطعه الخوارزمي بسؤاله عن معنى " تكندها " منكرا عليه ، فقال البديع ان الكنود معناه الجحود ، فانكر الخوارزمي أن يكون الكنود بمعنى الجحود ، انما هو بمعنى : القليل الخير ، شهد عليه الجماعة أن الحق مع البديع .

ولا أصدق أن مثل الخوارزمي وهو الضليع في علوم اللغة وآدابها أن يغيب عنه

---

(١) رسائل البديع ص ٢٤

معنى "الكنود" خاصة وأن الكلمة وردت في القرآن الكريم . الا اذا كان غرضه المغالطة وافحام خصمه . ولو كان غرضه النقد الموضوعي لنقد خصمه في تكرار معنى الشطر الاول في الشطر الثاني من البيت ، وتكرار كلمة " تزال" مرتين . ويحتمل أنه أدرك أنه لا يستطيع مجاراة البديع في هذا المجال فأراد أن يقاطعه ويضايقه ويثير أعصابه لئلا يعطيه مجالا لكشف عجزه . ولهذا وحسب ما يرويه البديع استطاع الخوارزمي أن يغير مجرى الحديث من المناظرة للمنافرة بعد مشادة كلامية فالبديع يقول :

" فنبذ الادب وراء ظهره وصار الى السخف يغرف علينا غرفا ويستقي من جرفه جرفا ، فقلت يا هذا : ان الادب بغير سوء الادب وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة " (١) واستمر الخوارزمي كما يقول البديع " في هذائه وهزائه واستندت الى المسند ووضعت اليد على اليد (١) ليرى الجالسين أنه أملك لاعصابه وأقدر على كبح جماح عواطفه ثم عطف عليه كما يقول .. فقال : " ان تكلفي للسفه أشد استمرارا من طبعك وغريزي في السخف أمتن عودا من نبعك وسنقرع باب السخ فنفترع من ظهر السفه مفترعك فتكل الان " (١)

فقال الخوارزمي يفاخره بماله : " أناقد كسبت بهذا المقل دية أهل همذان مع قلته فما أفدت أنت بعقلك مع غزارته " (١)

فرد عليه البديع أنه انما استفاد هذا المال من الكدية والسؤال " ولان يقال : يافاعل يا صانع أحب اليه من أن يقال : يا شحاذ يامكدي ... فأما مالك فعندنا يهودي يماثلك في مذهبه ويزيدك بمذهبه ومع ذلك لا يطرقني الا بعين الرهبة ولا يمد الى الا يد الرغبة " . (١)

ثم يتحول البديع من الدفاع الى الهجوم حيث أخذ يكيل لمنافسه الشيخ ، التهم

---

(١) رسائل البديع ص ٢٥

الجارحقمن مثل قوله : " ولكن عرني هل نلت فيما سلف من زمانك ونهت من أسنانك الا عاريا بدمائك مضرجا بدمائك مرتهنا بقولك ، بين وينة موشومة وجوارح مهشومة ودار مهدومة وخدود ملطومة " (١) وقبل أن يجيب الخوارزمي عن هذه التهم المميتة يطلب البديع من المغني أن يغني أبياتا منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الخد الرقيق

فقال الخوارزمي : " أحسن ما في الامر أني احفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها ، فقلت : يا عافاك الله أعرفها وان نشدتكها سألك مسموعها ... فقال : انشد ، فقلت : ولكن روايتي تخالف هذه الرواية ، وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه العقيق (١)

" وكان الخوارزمي هجا بعض الملوك فظفر به فوسمه في جبهته سطرين فيهما شطران بأقبح هجاء ، فكان يشد العمامة على حاجبيه سترا عليهما " (٢) فهو يعرف بهذا وللدارس أن يتساءل : هل اختيار البديع هذه القصيدة للمغني مقصود ومعد ، ليوقع الخوارزمي فيما يكره ؟ حيث يعرف أن فيها هذا البيت الذي يفضح ما يستر عليه ؟

وهذا التساؤل يقودنا الى شك أبد من هذا ، يتصل بالمناظرة ككل ، فكما يمكن أن يتفق مع المغني ليغني أبياتا تؤذي خصمه ، فلماذا لا يكون قد اتفق مع حكام المناظرة والوجهاء الذين حضروها مادام بهذا المكر والدهاء ، أم تراه حرف في البيت واستغل ذلك ليشغل السامعين عن عجزه عن القاء القصيدة التي تحداه الخوارزمي أن يرويها حفظا ؟ .. واذا كان الامر غير معد ، بل هو وليد الصدفة ، وأنه فطن لهذا البيت الذي يخجل الخوارزمي أمام القوم بما كشفه من عيبه ، فهو دليل على ذكاء وفطنة وقوة عارضة غير عادية .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٦ (٢) جمع الجواهر ص ٢٥٤

ولهذا ، وحسب ما يرويه البديع ، بهت الخوارزمي وفقد أعصابه وراح يهدد .. البديع بالضرب بقوله : " والله لاضربنك وان صوت " [1] فرد عليه البديع .. ساخرا " مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك ، وانت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك متعد في تهديدك ، لانك كهل وانت شاعر ، وكنت شابا وانت مقامر ، وكنت صبيا وانت مؤاجر ، فنطاق القدرة في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد " [1] فقال الخوارزمي : " والله لو دخلت الجنة واتخذت السندس والاستبرق جنة لصفعت " [2] .

ورد عليه البديع وزاد ـ على هذا الخيال ـ وتمثل بأبيات .. وكانت هذه المنافسة ختام الجولة الثانية ، والتي حكم فيها البديع لنفسه بالغلبة ووصف منافسه بقوله : " فقمنا عن الليل وهو يحسره ، مائل الذقن الى ما ولى ، وظني أن هذا الفاضل يأكل يده ندما ، ويبكي على ما جرى دمعا ودما فانه اذا سمع بحديث همذان ، قال : الهاء : هم ، والميم : موت والذال : ذل ، والالف : آفة ، والنون : ندامة .. وانه اذا نام هاله مناطيف واذا انتبه راعه مناسيف .. وأخذ الناس يترامزون بما جرى ويتغامزون " [2] وراح الخوارزمي يدافع عن مركزه وسمعته التي اهتزت في أذهان الناس ويؤكد أنه هو الغالب .. وقبل أن نسمع رأي الحكام في المناظرة يسعى وجوه من القوم بالصلح بين الخصمين ويتم الصلح في دار أبي بكر الخوارزمي ، بعد أن اعتذر له البديع عما بدر منه .. وقد أقام البديع في ضيافته ذلك اليوم .. مع أن الخوارزمي كان متثاقلا في السعي للمصالحة كما اعتذر البديع عن مشاركة الخوارزمي في ـ الزاد والملح ـ الا أن المصالحة تمت وبقيت حزازات النفوس كما هي .. كما يقول الشاعر :

وقد تنبت الخضراء في دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

---

(١) رسائل البديع ص ٢٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٧

وهناك رسالة بعث بها البديع للخوارزمي في فترة الصلح أورد ها ياقوت في معجمه ، يعتذر للخوارزمي عن غيابه عن مجلسه يقول فيها :

" أنا وان كنت مقصرا في موجبات الفضل من حضور مجلس الاستاذ سيدي فما أفرى الا جلدي ولا أبرئ الا قدمي ، ولا أبخس الا حظي وان يكن ذلك جرما فلقي هذا عقابا ، ومع ذلك فما أعمر أوقاتي الا بمدحه ولا اطرز ساعاتي الا بذكره ، ولا أركس الا في حلبة وصفه - حرس الله فضله - نعم ، وقد رددت كتابا ورائي للصولي ، وتطاولت لكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وللاستاذ سيدي في الفضل والتفضل به رأيه " (١)

وهذا يدلنا على أن الخوارزمي كان له مجلس يؤمه أهل العلم والفضل وان له مكتبة كبيرة يستعير منها أصدقاؤه وتلاميذه ، ويدل على حاجة البديع له واعترافه بفضله .

ولم يدم ذلك الصلح طويلا ذلك أنه صلح غير مكتمل فلم يغسل ما في نفسيهما ، فاشتعلت الفتنة بينهما من جديد ، بسبب ما يرويه السماة لابي بكر من افتخار البديع واشاعته بين الناس انه هزمه وقد انتشر حديث هذه المناظرة بين الناس . ولعل البديع أخذ يفاخر فعلا ويتباهى بفوزه على الخوارزمي فضاق الخوارزمي من هذا التباهي فأراد أن يعيد هذا بدرا ليؤكد للناس أنه فارس الحلبة وزعيم الادب ، في حين أن البديع يدعي أن نفسه صفت للخوارزمي وانه قد رضي عنه وصار لا يتململ الا بمدحه ولا ينتقل الا بذكره ولا يعتمد الا بوده وقد ملأ البلد شكرا والاسماع نشرا . (٢)

ولكن الخوارزمي يرسل للبديع ، يقول : " قد تواترت الاخبار وتظاهرت الاثار في أنك قهرت وأني قهرت ، ولا أشك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله والخبراذ

---

(١) معجم الادباء ٢ / ١٩٥ - ١٩٦

(٢) انظر رسائل البديع ص ٢٨

اذا تواتر به النقل قبله العقل ، ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة ، فانك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى ، أو تقصر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى ، وما أبدى (١) .

فيرد بديع الزمان بقوله : " ان أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موفقا (٢) كما يشير الى تهديد الخوارزمى له بتلاميذه بقوله :

" أما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى كلها فم تنشد الا بيت القائل :

وعيد تخرج الآرام منه ... وتكره نية الضغم الذئاب

فان كان الله قضى أن القتل بأخس السلاح فلا مفر من القدر المتاح (٢) وهو تهكم بالخوارزمى وبتلاميذه .. فيرد الخوارزمى مغتاظا من هذا التهكم : " قد بلغ السيل الزبا وعلت الوهاد الربا فى أمرك ، وسترى فى يومك ، وتعرف فى قومك (٢) " .

ولعل للخوارزمى بعض الحق فى تحدى البديع وطلب مقابلته اذا كان فعلا استغل هذه المناظرة ليشنع به ويضر بسمعته ويقلل من قدره وهو عمل غير حكيم منه اذا كان الامر كما يدعى بديع الزمان من أنه بعد المصالحة لم يضمر له شرا ولم يذكره الا بالخير وأنه كان يثنى عليه امام الناس خاصة بعد أن خبر هذا الشاب وعجم عوده فوجده ذكيا مطلعا قوى المعارضة ،

وكان ميدان الجولة الثالثة فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير الذى أثنى عليه البديع كثيرا كما حضرها أعيان نيسابور من مثل أبى الطيب الذى يصفه البديع بأنه أمة وحده (١) ، والسيد أبو الحسين أحد أعيان الشيعة ، وكان فى صف الخوارزمى الا أن البديع استطاع استمالته باظهاره التشيع ، اذ قال له : " أيها السيد أنا

---

(١) أنظر نفس المرجع ص ٢٨

(٢) نفس المرجع ص ٢٩ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٩ .

اذا سار غيرى فى التشيع برجلين طرت بجناحين ، واذا مت غيرى فى موالاة أهل البيت بلحمة دالة ، توسلت بغرة لا ئحة ... ثم ان لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر ... وللآخرة قلتها لا للحاضرة وللدين ادخرتها لا للدنيا فقال انشدنى بعضها ؟ (١) فأنشده قصيدة طويلة فى ، مدح آل البيت .

" فلما أنشدت ما أنشدت وسرّت ما سرّت انحلت العقدة وصار سلما يوسعنا حلما (٢) وليس السيد أبو الحسين وحده الذى استطاع البديع حل عقدته باظهار التشيع بل يظهر أنه حل عقد الكثير ممن حضر هذا المجلس ، فالقوم شيعة والبيئة كلها شيعية ولا شك أن كلام البديع قد أرضاهم .. خاصة وأن كل هذا حصل قبل مجىء الخوارزمى .

وقبل حضور الخوارزمى أخذ الحاضرون يختبرون سرعة بديهته باقتراح القوافى وما شاكلها فاقترحوا عليه أن يعينوا القوافى والمعانى والبحر .. فان استطاع أن يقول شهدوا له بالاحسان وأنه لافتى الا هو ...

ويقول البديع : " وما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى أرتفعت الاصوات بالهيللة من جانب والحوقلة من آخر وتعجبوا اذ أرتهم الايام ما لم ترهم الاحلام وجادهم الميان بما بخل به السماع ، وأنجزهم لفهم ما أخلفهم الوهم (١)" . ولم يحضر الخوارزمى الا بعد أن استولى البديع على اعجاب الحاضرين وسهرهم بفنه واستمالهم الى جانبه .

ولما دخل قصد صدر المجلس ليدل على أنه من وجوه القوم ، ولما أخذ مجلسه طلب منه البديع أن يتزحزح منه ، ليقابله فرد عليه الخوارزمى بقوله : " لست برب الدار فتأمر على الزوار (٣) فقال البديع : " حضرت لتناظرنى والمناظرة اشتقت اما من النظر

---

(١) انظر نفس المرجع ص ٣٠
(٢) نفس المرجع ص ٣١
(٣) نفس المرجع ص ٣٢

أو من النظير ، فان كان اشتقاقها من النظرفمن حسن النظر أن يكون مقصدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول . . . فقضت الجماعة بما قضيت [١] .

وواضح أن هذه أول اهانة للخوارزمى سددها خصمه له بعد أن هيأ النفوس لمناصرته وأرضاها بحسن بيانه وحلاوة منطقه وحدة ذكائه و وحرى بالخوارزمى أن تثور أعصابه وأن يرتبك لسانه بعد أن استطاع خصمه اجباره بالحجة على القيام من مجلسه . . .

فطلب منه البديع أن يختار أى علم ليتناظرا فيه ، فأومأ الخوارزمى الى النحو ، فاعترض البديع بحجة أن النهار قد انقطع والنحو ميدان واسع والناس الحاضرون ، يريدون أن يخرجوا بفائدة . . . ومرة أخرى ينال البديع تأييد الحضور . . ولو قبل البديع التناظر فى النحو لظهر علم الخوارزمى لتبحره فيه ولأن النحو علم وليس أدبا يحسنه البديع بحسن أسلوبه وحلاوة منطقه . . ولكنه تخلص من هذا المأزق بذكاء .

ومن الاساليب الملتوية أن يطلب من الخوارزمى اذا كان يريد أن يناظره فى النحو أن يسلم له الحفظ والبديهة والترسل . . وكان الاجدر بالخوارزمى أن يقول للبديع : سلم لى بالنحو حتى نفرغ لما تريد من هذه الابواب . ولكنه بقي مصرا ألا يناظر الا فى النحو . . غير أن أحد الحاضرين قال للخوارزمى : " ان تثاقلك عن هذه الابواب التى عدها هذا الشابمما يتهم ويوهم ، فاضطره اما للمنازلة أو النزول عنها " ثم سلم الخوارزمى لخصمه الحفظ كما يروى البديع - مع أنه من

---

١ - نفس المرجع ص ٣٣

أعلامه وممن يضرب به المثل فيه فقال له البديع " خفف الله عنك كما خففت عنا فـــى الحفظ ... فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه كبير واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجرأ والاشـــال التى لك فيها السبق والقدم ، والاشعار التى أنت فيها تقدم (١) ". فيغضـــب هذا الكلام الخوارزمى فيتراجع عن تنازله عن الحفظ " ويستفيد البديع من تراجـــع الخوارزمى عن الحفظ وقبله عن تنازله ليتناظرا فيه بدلا من النحو. فطلب منـــه البديع أن ينشده خمسين بيتا من قبله مرتين وأن ينشده هو عشرين بيتا من قبله عشرين مرة (٢)" فيعجز الخوارزمى عن ذلك وهو أمر غريب .. اذ كيف يعجز عن حفـــظ خمسين بيتا وهو الذى قال لحاجب الصاحب وقد أخبره أن مولاه اشترط ألا يدخل عليه الا من يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر - أيريدها من شعر الرجال أم مـــن شعر النساء ؟ (٣) على أن طلب البديع غامض ، فلا يدرى أيريد من خصمه أن يقول الخمسين بيتا من محفوظاته أم ارتجالا ويردد ها مرتين .. فكيف يطلب منه أن يردد ها مرتين وهو يردد ها عشرين مرة .. على أنه اذا ردد هـــا مرتين سهـــل عليه أن يردد ها .. أكثر.

ثم عادا للبديهة .. فاقترح أحد الحاضرين أن يقولا على مثل قول أبى الشـــيص :

أبقى الزمان به ندوب عضـــاض ورمى سواد قرونه ببيـــــاض

فارتجل أبو بكر هذه الأبيات :

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣

(٢) نفس المرجع ص ٣٤

(٣) وفيات الاعيان ٤ / ٤٠٢ ،

يا قاضيا ما مثله من قـــاض أنا بالذى تقضى علينا راضـــى
فلقد لبست ضفية ملومـــة من نسج ذاك البارق الفضفـاض
لاتفضحن اذا نظمت تنفسا ان الفضا فى مثل ذاك تفاضـــى
فلقد بليت بشاعر متقـــادر ولقد بليت بناب ذئب غاضـــى
فلأغلبنّ بديهة ببديهـــتى ولا أرمين سواده ببيـــاض(١)

فاخذ البديع ينتقد أبيات الخوارزمى فسأله عن معنى : " ضفية ملومة " وماذا أراد " بالبارق الفضفاض"؟ فأنكر أن يكون قالها !.! ولكن الجالسين شهدوا عليـــه أنه قالها . ثم سأله عن معنى " ذئب غاض" فقال الخوارزمى هو الذى يأكل الفضا !! فقال البديع : استنوق الجمل وصار الذئب جملا يأكل الفضا . وسأله عن معـــنى " ان الفضا فى مثل ذاك تفاضى " فان الفضا ليس بمعنى الاغضاء ؟ فأنكر الخوارزمى مرة ثانية أن يكون قال " الفضا" بل أنكر البيت جملة .. وهذا أمر مضحك . اذ ، كيف ينكر بيتين من ستة أبيات وهو الاديب الوقور الذى يحترم نفسه أمام مجلس فيه وجوه القوم من أدباء ورؤساء .. الا أن يكون الموقف افقده توازنه ثم كيـــف يغيب عن علم الخوارزمى أن الذئب من الحيوانات آكلة اللحوم وليس جملا يأكل الفضا؟ الا اذا كان لا يعرف معنى كلمة "الفضا" وكيف وهو اللغوى المشهور الذى اعتمـــد عليه الثعالبى فى تأليف كتابه " فقه اللغة(٢)"؟ وهو تلميذ ابن خالويه اللغـــوى المعروف ؟ !!

ثم سأله عن معنى " قراض" فهو ليس مصدرا قياسيا لقرضت الشعر" وقال له البديـــع: " هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافية كما سقته فقال الخوارزمى هذه طريقـــة

---

(١) رسائل البديع ص ٣٣

(٢) انظر فقه اللغه ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ .. على سبيل المثال

لم تسلكها العرب فلا أسلكها (؟)" ولا أدرى ماذا قصد البديع بقوله " هلا قلت كما قلت " وهل أراد به قصيدته الاولى أو التى سوف تأتى ؟ !

وللبديع الحق فى أن ينتقد قصيدة الخوارزمى ، ونقده موضوعى وصحيح غير أن الامر الذى يحتاج للنقد هو اجابات الخوارزمى على نقد البديع . ولعل هذا أكبر مطعن فى أمانة البديع العلمية فلا يمكن لاديب أن يصدق أن هذه هى اجابات الخوارزمى العالم الاديب المشهور ، كما لا يمكن اعتبار ذلك استهزاء منه ، اذ أن للموقف لا يحتمل ذلك . فلم يبق الا أن البديع حرف اجابات خصمه ليظهره جاهلا أحمق لا يحسن التفكير ، وأنه هو العالم وحده ! ولأجل هذه المغالطات والانكار طلب أحد الحاضرين أن يكتبا ما يقولان لئلا يتسنى لهما الانكار . فقال البديع(١) :

برز الربيع لنا برونق مائه ... فانظر لروعة مائه وسمائه

فالترب بين ممسك وممنبر ... من نوره بل مائه وروائه

والماء بين مصندل ومكفر ... فى حسن كدرته ولون صفائه

والطير مثل المحصنات صوادح ... مثل المغنى شاديا بغنائه

والورد ليس بممسك ريا ... يهدى لنا نفحاته من مائه

زمن الربيع جلبت أزكى متجر ... وجلوت للرائين خير جلائه

فكأنه هذا الرئيسى اذا بدا ... فى خلقه وصفائه وعطائه

بحمى أعز محجر وندى أغر ... محجل فى خلقه ووفائه

يعشو اليه المجتوى والمجتدى ... والمجتوى هو هاربا بذمائه (٢)

ما البحر فى تزخاره والغيث فى ... امطاره والجو فى أنوائه

بأجل منه مواهبا ورغائبا ... لا زال هذا المجد حلف فنائه

والسادة الباقون سادة عصرهم ... متمدحون بمدحه وثنائه

---

(١) رسائل البديع ص ٣٥

(٢) المجتوى : المبغض

فاتهمه الخوارزمى أنه انتحلها غير أنها غابت عن حفظه !!. ثم أخذ ينتقدها . فقال : " جمعت فيها بين اقواء واكفاء وأخطاء وأبطاء "[1] واستمر فى نقده حتى قال البديع : " انه رد عليه عشرين ردا ونقد عليه فيها كذا نقدا "[2] ولكن البديع لم يرو لنا ذلك النقد وتلك الردود !! سوى أن الخوارزمى قال له : " لا يقال نظرت لكذا ، وانما يقال : نظرت اليه "[3] .

ويقول البديع ان الجماعة كفته اجابته . كما انتقد عليه تشبيه الطير بالمحصنات وليس بينهما شبه ، وكيف شبهها بالمحصنات ثم شبهها بالمغنى ؟ فرد عليه البديع بقوله : " يارقيع اذا جاء الربيع كانت شوادى الاطيار تحت ورق الاشجار ، فيكن كأنهن المخدرات تحت الاستار . . فهن فى الخدر . . كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الاصوات "[2] . والحق أن تشبيه الطير بالمغنى وارد ، أما تشبيهها بالمحصنات فبعيد .

ثم قال له : لو قلت بدل أزكى متجر " أربح متجر " لكان أحسن ، فرد البديع : ان الربيع ليس بتاجر يجلب البضائع المربحة . ثم انتقد عليه قوله " الغيث فى امطاره اذ أن الغيث هو المطر ؟

فقال البديع : " لاسقى الله الغيث أديبا لايعرف الغيث . ان . . الغيث هو المطر ، وهو السحاب ، كما أن السماء هو المطر وهو السحاب "[2] ثم فرغا للترسل فادعا البديع أنه يجيد أربع مائة صنف من الترسل ! منها : أن يكتب كتابا يعرف منه جوابه أو يكتب فى المعنى الذى يقع له كتابا يقرأ من آخره الى أوله أو يكتب كتابا اذا قرىء من أوله كان كتابا واذا عكست سطوره كان جوابا

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٦ .

... فقال الخوارزمي هذه الابواب شعبذة [١] فقال له البديع : وهذا القول طرمذة !! والحقيقة أن هذه الابواب من التوسل أشبه ما تكون بالألغاز وإذا كان ما يقوله البديع صحيحا من أنه يجيد كل هذه الأنواع فهي للتسلية والمغالبة .. وليست من الكتابة الفنية التي يتبارى فيها الكتاب لتظهر فيها مقدرتهم الفنية ، وقد تكون تلك الفنون التي عددها البديع ، من الكتابة شائعة في زمانه رائجة ولها عشاقها ورواده .. يقضون بها أوقات فراغهم ويشتغلون بها في سمرهم .

ولما اعتذر الخوارزمي عن هذه الحذلقة والتلاعب بالأساليب ، قال له البديع : فما الأنواع التي تجيدها ؟ حتى أباحثك على مكنونها وأكاثرك بمخزونها ، واشبر فيها قلمك ، وأسبر فيها لسانك وفمك ؟ فقال الخوارزمي : " الكتابة التي يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس"

فقال له البديع : " أليس لا تحسن من الكتابة الا هذه الطريقة الساذجة؟ وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ؟ "[٢] .

فقال الخوارزمي : نعم . ثم قال البديع : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأنا ضلك بهذا النبل ثم تقاس ألفاظي بألفاظك ومعارض انشائي بانشائك [٣] .. واقترح " كتابا يكتب في النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والصناعات وانقطاعها والأسعار وغلائها "[٢] ولا أدري كيف وافق الخوارزمي على اقتراح البديع فلعله قد أعد كتابة هذا الموضوع .

ولعل ايراد البديع لتلك الأنواع من الكتابة بهتته وشغلته عن معارضته في اقتراحه ، أو لعل ثقة الخوارزمي باجادة الكتابة جعلته لا يحسب حسابا لخصمه في هذا النوع خصوصا ، ولو كان قد أعده من قبل .

---

(١) الشعبذة : خفة اليد وأخذ كالسحر (أساس البلاغة) .
(٢) أنظر رسائل البديع ص ٣٧ - ٣٨ .

فكتب الخوارزمى كما يروى البديـــع :

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل الى جنات النعـــــيم ويخلد فى نار الجحيم . قال الله تبارك وتعالى : " خذ من أموالهم صدقـــة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم " وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشـــد الاكبار وأنكرناه أعظم الانكار ، لما نراه من الصلاح للعباد وننهه من الخير للبـــلاد وتعرفنا فى ذلك مايربح للناس فى الـــــزرع والضرع ويعود اليه أمر الضر والنفـــع الى كلمات لم تعلق بحفظنـــا (١) ويظهر أن رسالة الخوارزمى لم تعلق بحفظ البديـــع كلها .. فليست هذه كتابة الخوارزمى التى نعرفها وليس هذا الأسلوب الركيك والمعنى المضطرب هو أسلوب أبى بكر الا أن يكون هاله الموقف حتى أضعف أسلوبه الى هذه الدرجـــة ..

فقال البديع : " ان الاكبار والانكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونـــــار الجحيم والزرع والضرع .. أسجاع نبتت فى المهد .. ولم تزل فى المهد "(١) .. ولا نستطيع الاعتراض على نقد البديع لأسجاع الخوارزمى مع أن السجع هو حليـــــة الكتابة فى عصره لأن سجع الخوارزمى فى هذه القطعة جاء باردا .

ثم تاول البديع الخوارزمى رسالته التى كتبها وهو نوع من أنواع الأساليـــــب التى اقترحها وادعى أنه يجيدها . اذ هي تقرأ من آخرها الى أولها .. وهـــي:

---

(١) أنظر نفس المرجع ص ٣٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

" الله شاء آن المحاضر صدور بها وتملأ المنابر ظهور لها وتفرع الدفاتر وجوه بها وتمشق المحابر بطون لها .. ترشق آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى أياديه على تأييد الله أدام الأمير جرى فاذا المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفع الدين أهل عن الكل هذا يحط أن فى اليه نتضرع ونحن واقفة والتجارات زائفة النقود وصيارفة . أجمع الناس صار فقد كريما نظرا لينظر شيمه مصاب وانتجعنا كرمه بارقة وشمنا همه على آمالنارقاب وعلقنا أحوالنا وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجميل يتدارکنا أن ونعماه تأييده أدام وبقاه الله أطال الجليل الأمير رأى ان .. "(١) وهي بهذا الشكل لا معنى لها ولكن البديع قرأها عليهم وترجمتها كالآتى :

" ان رأى الأمير الجليل أطال الله بقاه وأدام تأييده ونعماه أن يتداركنا بجميل نظره ، فقد بعثنا اليه وفود آمالنا وكشفنا له وجوه أحوالنا وعلقنا رقاب آمالنا على همه وشمنا بارقة كرمه وانتجعنا مصاب شيمه لينظر نظرا كريما ، فقد صار الناس أجمع صيارفة والنقود زائفة والتجارات واقفة ، ونحن نتضرع اليه فى أن يحط هذا الكل عن أهل الدين ، ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين فاذا جرى الأمير أدام الله تأييده على أياديه مقتضى آمالنا فيه كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر وتمشق بها وجوه الدفاتر وتفرع لها ظهور المنابر وتملأ بها صدور المحاضر ان شاء الله .. ولا أشك أن الخوارزمى قد دهش عند قراءتها ، وكذلك دهش الحاضرون ذلك أنها تختلف عن الكتابة المتعارفة بين الناس - وكذلك لم ينتقدها الخوارزمى وكيف ينتقدها وهو لا يعرف كيف يقرأها ؟

---

(١) أنظر نفس المرجع ص ٣٧ - ٣٨ .

وقد أعجب الحاضرون ببراعة البديع فلا أظن أنهم يتقبلون بعد هذا أى نقد للخوارزمى فيها .. والرسالة على العموم حتى بعد ترجمتهـــا جيدة ولا ينقصهـــا سجعها وازدواجها جمالا .. ثم مالوا الى اللغة فقال البديع : " يا أبا بكـــر .. هذه اللغة التى حدثتنا بها وحدثتنا عنها وهذه كتبها وتلك مؤلفاتهـــا فخذ : " غريب المصنف " ان شئت " واصلاح المنطق " ان أردت و " ألفاظ ابـــن السكيت " ان نشطت " و " مجمل اللغة " ان اخترت ، فهو ألف ورقة " وأدب .. الكاتب " ان أردت واقترح علي أى باب ان شئت من هذه الكتب حتى أجمله لـــك نقدا وأسرده عليك سردا " فقال : اقرأ من غريب المصنف " رجل ماس خفيف على مثال مال وما أمساه " ، فاندفعت فى الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيـــت على الباب الذى يليه ثم قلت اقترح . فقالوا : كفى ذلك .(١)

ولا أدرى كيف جعلوا الحفظ فى علم اللغة هو المقياس لاجادتها ، وانمـــا المقياس فهم قواعدها وأصولها وغريبها ودخيلها ... الخ .

ثم طلب البديع من الخوارزمى أن يسرد عليه باب المصادر غيبا من " أخبـــار فصيح ثعلب " فعجز عن ذلك وسلم اللغة كما يقول البديع . ثم عرّج على العروض وسرد خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافاتهـــا " كما يقول .. وعجز .. الخوارزمى عن اعادة ماسرد البديع فضجر الناس وقاموا عن المجلس .. على أن عجز الخوارزمى عن حفظ العروض واللغة اذا صح لا يقدح فى علمه وأدبه فاللغـــــة والعروض لا تحفظ كما يحفظ الشعر .. ويصور لنا البديع انفضاض المجلس تصويـــرا يرفعه فوق النجوم وينزل بالخوارزمى تحت التراب فهو يقول : " وقاموا عن المجلس يفدونني بالامهات والآب ويشـــيمونه باللعن والسب ، (١) ثم يصور لنا وقع الهزيمة

---

(١) نفس المرجع ص ٣٩ .

وأثرها على الخوارزمي تصوير الشاعر . فيقول : " وقام الخوارزمي مغشيا عليه [١] ثم يصور نفسه في صورة الفتى الشهم الذي يسعف عدوه بعد أن أثخنه بالجراح وقد قهره وغلبه على أمره فيقول : " فقمت اليه فقلت :

" يعز علي في الميدان أني * قتلت منافسي جلدا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه * سواك فلم أطق يا ليث صبرا

وقبلته في عينه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له ، فهلا جئتنا يا أبا بكر من باب الغلطة وفي باب العشرة ؟ "[١] .

وهو مشهد يدعو للدهشة والحزن في آن واحد .. الدهشة من هذا الصراع العنيف الذي أنتهى بهذه النهاية الغريبة من اصابة المغلوب بالاغماء أمام الجمهور المتفرج وهو أكبر دليل على هزيمته وقيام الغالب باسعاف مغلوبه ليؤكد شهامته وأن خصمه في حالة يشفق عليه حتى خصمه ... وهو نوع من الشماتة به .

والحزن لهذا الشيخ المجوز الذي ملأ الدنيا بذكره وقضى عمره في خدمة اللغة والأدب وتعليم الناشئين وتخريجهم وتكون نهايته أن يهزئه هذا الشاب الناشيء ويفضحه أمام الملأ حتى أفقده ذلك شعوره وأصابه بالاغماء .. وفي ذلك يقول علي الجندي : " ماذكرت تلك المصاولة قط الا غام الحزن على عيني ، وملأ الأسى شغاف قلبي وشعرت للبديع بمقت شديد يكاد يعقل لساني عن الترحم عليه "[٢] ، وبعد أن أفاق الخوارزمي أحضر الطعام فأراد البديع أن يجهز عليه ، اذ قال له : " لم غشي عليك ؟

---

(١) أنظر نفس المرجع ص ٣٩ .
(٢) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٩م عدد ٣٣٧ ص ٢٠٣٢ .

فقال الخوارزمي : " لحمى الطبع وحمى القرو " [1] فقال البديع : : " أين أنت عن السجع ؟ هلا قلت : حمى الطبع وحمى الصفع " [1] .

فقاطعهم أحد الحاضرين قائلا للبديع : " أيها السيد أنت مع الجد والهزل تغلبه [1] فرد البديع : " لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مفصا وفي عينه رمصا وفي جلده برصا وفي حلقه غصصا " فقال أبو بكر : " هذه أسجاع كنت حفظتها ، فقل كما أقوله ! يصير في عينك قذى وفي حلقك أذى وفي صدرك شجى " ، ثم رد عليه البديع بأقبح وأسفه من هذا ، فقال الخوارزمي " والله لا تركتك بين الميمات " بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومحموم ومرجوم " [1] .

فرد عليه البديع مجاريا : " وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام .. والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام ، وبين السينات .. وبين الخاءات .. وبين الباءات .. وان شئنا كلفنا بهذا الصاع وطاولنا بهذا الذراع وعرضنا عليك من هذا المتاع ، وكاثرناك بهذه الأنواع " . [2] وأخذ يمدد من هذا السجع البديع حتى استنفد طاقته .

ويختم هذه المناظرة بتصوير نهاية انتصاره وخذلان خصمه واستتاره من الناس خجلا بقوله : " ثم خرجت واحتجر .. ولما خرجت لم يلقوني الا بالشفاه تقبيلا وبالأفواه تبجيلا وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر .. حتى حضره الليل بجنوده وخلع عليه الظلام فروته " . [2]

وبعد : فهذه المناظرة المشهورة التي دارت بين فحلين من أدباء القرن الرابع كما رواها أحد الخصمين - وهو بديع الزمان الهمذاني .. وذلك أمر يتطلب

---

(١) أنظر رسائل البديع ص ٤٠ .
(٢) نفس المرجع ص ٤١ .

منا الوقوف والتحرز أمام ما أصدره البديع من أحكام وتهم ضد خصمه . وكما رأينا فان هذه المناظرة رغم طولها اقتصرت على الحفظ ، والبديهة . . وقد ظهر فيها البديع فارس الحلبة الذى لا يشمق له غبار . . فلم تفته شاردة ولا واردة ، يغرف من بحر بحيث لم يعجزه سؤال ولم يقف أمام تحد ، يشترط على نفسه فوق مايتحداه به خصمه ويأتى بالمطلوب ويزيد عليه . . فقد أفحم الحاضرين قبل أن يفحم منافسه . حتى فده وه بالأمهات والآباء وقبلوه بالشفاه ، وهتفوا له بالألسن بعد أن بهرهم بفنه وشدة ذكائه وتصرفه فى شتى فروع العلم .

أما الخوارزمى فقد أظهره البديع شيخا جاهلا ، بل عييا لا يفهم فى الشعر ولا فى النثر ، ولا يدرى ما اللغة ولا العروض ، لم يصب فى جواب واحد ، ولا استطاع أن يدافع عن نفسه دفاعا منطقيا ولو مرة واحدة . . أو ينتقد منافسه انتقادا صحيحا .

ومن هنا يجوز لى أن أشك فى أمانة بديع الزمان العلمية وأن هذا التصوير يخالف الواقع وأنه لم ينصف خصمه . . وأكاد أجزم أنه صاغ هذه المناظرة صياغة فنية بعد مضى زمن طويل على حدوثها وبعد موت منافسه ، فأثبت ما أصاب فيه وحذف أخطاءه ، وأثبت أخطاء خصمه وأعطاها حجما أكبر من حجمها . . . وقد يكون حرف الكثير مما نقل عنه واحتفظ بهيكل المناظرة فقط وأنا أشك ولا أجزم ، لأن هذه المناظرة لم ترد الا عن طريق البديع ، وحتى من اقتطف منها لا ينقل الا عنه . . ولو ورد لها نص غير ما أورده البديع لوضح الحق ولصدقنا البديع أو كذبناه بأدلة قاطعة . . غير أن اظهار الخوارزمى بهذا . . المظهر المضحك المحزن هو أكبر مطعن فى هذه المناظرة لما عرف عنه من باع طويل فى الآداب ، وعلم واسع فى شتى علوم اللغة بشهادة مؤرخي الآداب وكتاب التراجم .

من مثل قول الثعالبي " لم يزل بحسن حال من رواء وثروة واستظهار يقيم للأدب سوقا ويعيده غضا ريقا ، ويدرس ويملي ، ويشعر ويروى ، ويقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأنس [١] ، وهذا الرجل الذى يتحدث عنه البديع لا يمكن أن تنطبق عليه هذه الصفات التى ذكرها الثعالبي وغيره ..

وان قيل : لو أن البديع حرف هذه المناظرة وغيرها لم يسكت عنه أدباء عصره .. قلت : أولا أن أدباء عصره وخاصة فى بيئته كانوا حاسدين له غيرا منه لاستحواذه على اعجاب الوزراء والولاة وتقديمهم له عليهم كما سبق أن ذكرنا .

ثم أن وجوه القوم كانوا مستوحشين منه لانفته واعتزازه بعلمه وأدبه واستعلائه عليهم ، وهذا مصداق قول الثعالبي " وأعان البديع عليه قوم من الوجوه كانوا مستوحشين منه جدا ." [٢]

ولذلك فقد ابتهجوا بفوز البديع عليه واستبشروا بذلك وقد فرح الصاحب ابن عباد المهيمن على هذه النواحى بموته . [٣]

والبديع انما كتب هذه المناظرة بناء على طلب أحد الوجهاء ، وقد يكون الصاحب حيث يقول البديع : " سأل السيد أن أملى جوامع ما جرى بيننا وبين أبى بكر الخوارزمى من مناظرة ومنافرة أخرى [٤] . وطبيعى ألا يكتب البديع للصاحب الا مايرضيه ويشفى غليله من الخوارزمى ولا نتوقع من أحد من الموالين للخوارزمى أن يقوم بنقض هذه المناظرة فى حياة الصاحب ، وهو يعرف موقفه من الخوارزمى .

---

(١) أنظر اليتيمة ٤/٢٠٧
(٢) نفس المرجع ٤/٢٠٩
(٣) أنظر هذه الرسالة ص ٦٠.
(٤) رسائل البديع ص ١٤.

ولا نعلم متى أضيفت هذه المناظرة لديوان رسائل البديع .. فلعلها تأخرت حتى انقضى جيل الخوارزمى .. فأصبحت من المسلمات .

وأنا لا أشك أن البديع استطاع أن يحوز على اعجاب الحاضرين فى مناظرته مع الخوارزمى بحسن منطقه وحماسته وقوة عارضته .. وأعانه على ذلك كما سبق أن ذكرنا أعداء الخوارزمى ومنافسوه وكبر سنه ولكن .. لم تكن الغلبة فى صميم العلم والأدب وجوهرهما ، بل هي فى ظواهرهما كما رأينا وهي فذلكة ومنافرة أكثر منها مناقشة علمية فى الأصول والقضايا الأساسية .. ولم تكن الهزيمة بالصورة التى رسمها لنا بديع الزمان . وعلى افتراض أن ماذكره البديع صحيح ، وأن ما ادعاه من اجادة لتلك الأنواع من النثر كلها حقيقة ، وأنه على ماصور نفسه فيه من قوة العارضة والحفظ الخارق للعادة ، فهو بهذا رجل غير عادى بل هو عبقرى ، لا يأنف أو ينخزل من غلبه لأنه لا أحد يستطيع هزيمته .

ولست بدفاعى هذا عن الخوارزمى أغض من منزلة البديع .. فلاشك أنه خدم الأدب وأثراه أكثر مما خدمه الخوارزمى ، فقد فاقه كثرة نتاج وجوده ولا ننسى له جهده فى فن المقامات .. الا أن ذلك كله لا ينسينا فضل الخوارزمى ومنزلته ولا يجعلنا نصدق ونقبل كل ما أورده وقاله ضد الخوارزمى ..

وحتى لو كان كل ماقاله البديع فى هذه المناظرة صحيحا .. لما أنسانا فضل الخوارزمى وعلمه وجهوده فى الأدب العربى .

وعلى أى حال فهذه المناظرة أضرت بالخوارزمى وسمعته الأدبية ... ويكفى أنه مات على اثرها قهرا وكمدا .. وقد رأى تحامل القوم وتعصبهم ضده وتجاهلهم لكل صفاته المحمودة والحكم عليه بالهزيمة فى أمور لا تعد جوهرية فى العلم والأدب ، وقد عم صداها أقطار العالم الاسلامى ليس لغرابتها وندرة ..

موضوعاتها التى عالجتها ، فقد رأينا أن المصر عصر مناظرات ، وانما لشهرة الخوارزمى .. ونهايته المفجعة وانهزامه أمام خصم لم يكن فى الحسبان أنه يستطيع الوقوف أمامه .

ولهذا فقد هزت هذه المناظرة صورة الخوارزمى الأدبية فى عيون مريديه والمعجبين به وأساءت الى سمعته العلمية سواء فى جيله أو فى الأجيال التى تلته .

ولعل لهذا أثر فى ضياع بعض نتاجه الأدبى ، لأن الناس زهدوا فيه بعد أن صوره البديع فى تلك الصورة التى لا تليق بعالم أو أديب فلا يستحق من كانت هذه صورته ، وهذه أفكاره ومنطقه أن يقرى أدبه . . .

هـ) خصائص نثره ومدرسته التي ينتمي اليها :

أكثر من كتب عن أسلوب الخوارزمي من الكتاب والنقاد ، يجعلونه في الدرجة العليا من البلاغة والبيان ، ويصفونه بأنه من السحر الحلال . وقليل هم الذين عابوه ، وانتقصوه ، ولعل أسبق من نقده ، خصمه بديع الزمان الهمذاني . الذي قال فيه : " وسنأتي بعون الله تعالى على القصائد التي أدعاها وأعرفك من أين سرق مسروقها .. الى أن يقول : " ثم نفرغ لرسائله فأعرفك مايردد من أسجاعه ويكرر من ألفاظه فهو لا يتعدى فرقتين ، ولا يتخطى طبقتين ، وتلك الأسجاع هي التي يطرز بها كلامه ، ويقرر نظامه ، ويطرّف محاضراته ويوسط محاوراته ، فاذا .. خلت منها كتبه ، وقصائده كان مايبقى منها غفلا عطلا ، لا يحلو ولا يحلى " (١)

والحق أن البديع عرف من أين يطعن رسائل الخوارزمي رغم أنه خصم لدود ورغم أن هذه طريقة كتاب القرن الرابع كلهم تقريبا ومنهم البديع نفسه .. ولو وفي البديع بوعده وتناول رسائل الخوارزمي بالنقد لكان لنا منه حصيلة جيدة ، ... ولدلنا على مواطن الضعف فيها ، رغم أننا لا ننتظر منه أن يسجل له ولو حسنة واحدة لأنه يكتب كما قلت بقلم حاقد يتتبع الأخطاء ويتناسى الحسنات.

ولنعد الى خصائص نثر الخوارزمي فنقول : ان من أبرزها ماذكره بديع الزمان من :

١) التزامه بالسجع ، فرسائله تعد معرضا فنيا لهذا النوع من البديع ويشاركه فيه كل أدباء العصر تقريبا ، الا أن هذه الطريقة وهذا الكلف بالسجع تظهر جلية في كتابة الخوارزمي والصابي وابن العميد والصاحب والبديع على اختلاف بسيط بينهما . وهذا السجع هو الذي يلهي القارئ عن المعنى كما الهى الكاتب عن العناية به أيضا .

فجاء أسلوبهم متكلفا لما أغرقوه به من أنواع البديع وخاصة السجع، مما حدا بأحمد أمين أن يقول : " أنه يستسمج كتابة هؤلاء الكتاب ولا يستطيع المضي في قراءتها . (٢)

---

(١) رسائل ومقامات البديع " مخطوط ز ورقة ١٠٠

(٢) ظهر الاسلام ٢/٩٦ - ٩٧ .

ولكننا لا نستطيع الحكم على القوم بذوق عصرنا ، فنحن نعرف أن هؤلاء الذين اتبعوا مدرسة ابن العميد وهم من لا ينفك السجع عن كتابتهم يعدون أمراء النثر في القرن الرابع الهجرى . وكان القوم قد تواضعوا على هذه الطريقة واستجادوها وأصبحوا يتسابقون فيها ، وهم الذين بلغوا بها هذا المستوى الذى يعد في زمانهم الأسلوب المثالى الذى لا يجيده الا فحول الكتاب .

والحق أنهم لم يقتصروا على السجع وحده بل استخدموا كل أنواع البديع من جناس وطباق وطعموه بأساليب البلاغة البيانية من استعارة وكناية وتشبيه ، ونحن وان كنا لا نستسيغ أسلوبهم ذاك فاننا نعترف باجادتهم في هذه الصنعة واستخدامها ، فهي طريقة تحتاج لدربة وممارسة ومعرفة كاملة لفنون البلاغة والبديع . وليست القضية قضية سجع فقط .

وقد وضع نقاد ذلك العصر قواعد لذلك وشروطا . . ومع أن أبا هلال العسكرى لا يلتزم بالسجع دائما فانه يضع له قواعد تضبطه ، اذ يقول : " ويشترط في السجع البليغ أن تكون :

(١) ألفاظه حلوة حادة رنانة لا غثة ولا باردة .

(٢) وأن تتخالف السجعتان في المعنى وأفضل السجع ، القصير الفقرات المتساوى الفصول . (١)

ويعيب استخدام السجع عند الخوارزمى هو الاكثار منه على روى واحد . خاصة اذا ضعف أسلوبه وأصبح همه اصطياد السجع من ذلك قوله : " وأطوف بكتابه في اخوانه ، واخواني ، وأباهيهم به مباهاة الاخ بأخيه الذى مساعيه مساعيه ومساويه مساويه وكل شيء من فضيلة ورذيلة فهو شريكه فيه . (٢)

---

(١) الصناعتين ص ٢٠٠

(٢) رسائل الخوارزمى ص ١١ .

أو قوله : " انى أصدرتها فى حضرة من اذا رأى سيئة ستر وغفر وعـــذر وأعذر ، وان رأى حسنة نشـــر وأظهر وقرر وكرر وفكر وصور وجعل الخمسة عشـــرة والعشـــرة خمسة عشـــر . (١) على أن رأى الخوارزمى فى السجع يخالـف ذوق عصرنا فهو يمتدح من يستخدمه وجيده يقول : " قرأت الفصل المسجع فشغلـــنى الاقتباس منه عن الجواب عنه ، ولقد عمد السيد الى كل سجعة مختبئة فى زاويـة ملقاة فى ناحية ، فالجمها بلجام ، وقادها بزمام وغبّر بها فى وجه سجعـــى الملزق وكلامى الملفق . (٢)

الخاصة الثانية وهي ملاحظة بوضوح فى أسلوب الخوارزمى هي :

٢) الترادف والتكرار ، وهي ما أشار اليها البديع فى نقده لرسائل الخوارزمى كقوله : " وردت القصيدة الغراء بل الدرة العذراء بل الهدية العظيمـــة بل فريدة الدر بل غرة شمس الكرام ، وغريبة الايام ، بل الخطاب الجـزل والمنطق الفصل بل الحسن والاحسان ، بل التبيين والبيان . بل واحدة القصائد ، وخاتمة القلائد وآبدة الآوابد ، بل أميرة النظم والنثر ، بـــل ملكة الرجز والشعر ، بل حسنة الألسن ، ونزهة القلوب والاعين ، بـــل بستان الافكار وجلاء الابصار ، بل روح المعانى والمبانى ، وهيكـــل الاوزان والقوافى ، بل عقيلة الدهر ونادرة العصر ، وثمرة العمر ، وبيضة العقر ، وترياق القلب ، بل ملبسى تاج الفخر ، وموئل كنز الذخـــر ، لا بل ليلة القدر ، فانها خير من ألف شهر وهذه خير من ألف بيت شعر. (٣)

فلاشك أن القارىء لهذه القطعة قد تنفس الصعداء بعد الفراغ مـــن قراءتها لانه ظل يكرر " بل " حتى ظننا أنه لن يفلتها . . وهذه المعانى المترادفة فى وصف هذه القصيدة هي التى جعلت أحمد أمين يقـــول :

---

(١) نفس المصدر ص ١١ وانظر بقية الامثلة ص ٣٨ . (٢) نفس المصدر ص ٢١ .
(٣) رسائل الخوارزمى ص ٧٣ .

" وهكذا أقرأ هذه الرسائل كلها فينقبض صدري ولا ينطق لساني ، وأصرف في الرسالة ساعة أو ساعتين ثم لا أخرج منها بشيء في اليدين ". (١)

ويمكن أن نعتذر عن الخوارزمي وغيره ممن يهاجمهم أحمد أمين أن هؤلاء وأخص منهم الخوارزمي لا يكتبون في شرح فكرة معينة أو يدافعون عن مبدأ أو رأي في رسائلهم تلك .. بل هم يكتبونها من أجل الفن .. والخوارزمي كان معلم أبناء الجيل .. فهو يحاول بطريقته هذه أن يجمع لهم جميع صور التعبير التي يمكن استخدامها في فكرة من الأفكار وكأنه يحسب أن مهمته ليست هي أن يعبر عن معان بل أن يعبر عن أساليب يحفظها الطلاب . (٢)

ثم أن طبيعة الرسائل الاخوانية ليست كطبيعة الكتب الأخرى التي تحتاج الى التركيز على الأفكار وبيانها .. وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الرسائل الاخوانية يمكن أن نعتبرها جنسا أدبيا من أجناس النثر العربي اخترعه كتاب القرن الرابع الهجري أو طوروه ، وجعلوا غرضهم فيه ابراز مقدرتهم على التعبير الجميل المزخرف والتقيد بأفانين البديع وأساليب البلاغة المتعددة ، كما كانت المقامات فنا جديدا في هذا العصر لها طابعها وطريقتها ،

لذا لا ننكر على كتاب تلك الطريقة لأنها هي التي تميزها عن غيرها من الاجناس الأدبية ، فمن أراد أن يقرأ هذه الرسائل ليرى ما فيها من أفكار ومعان فقد أخطأ الطريق .. ومن قرأها ليستمتع بما فيها من ذخيرة لغوية ومقدرة بلاغية وتعبير جميل منمق بحيث يعجب كيف استطاع هذا الكاتب أن يوشي هذه الرسائل بكل هذه الأفانين ، فذلك هو ما أراد كتابها أن يظهروه وان بالغوا فيه الى درجة التطرف .

---

(١) ظهر الاسلام ٢/٩٨ .
(٢) الفن ومذاهبه في النثر ص ٢٣٦-٢٣٧ .

٣) المبالغة والتهويل : كما رأينا فى المثال السابق ، فقد بالغ فى مدح قصيدة تلميذه تلك الى درجة لا تحتمل ، فبالرغم من أن المبالغة تعتبر من فنون البديع التى يحلى بها الكلام فان الخوارزمى يبلغ بها أحيانا حد التهويل ، مثل قوله : " فلان قد أبطأ علي فليت شعرى الريح اقتلعته أم الارض ابتلعته ، أم الافاعى نهشته أم السباع افترسته ، أم الغول أغوته ، أم الشياطين استهوته ، أم أصابته بائقة ، أم أحرقته صاعقة أم أنهار عليه جرف شفير أم جفت يداه ، أم أقعدت رجلاه ، أم ضربه الجذام ، أم أصابه البرسام ، أم جمش فلاما فقتله الفلام ، أم تاه فى البر ، أم غرق فى البحر ، أم مات من الحر ، أم سال به سيل راعب ، أم وقع فيه سهم من سهام الاجال صائب ، أم عمل عمل آل لوط فأرسلت عليه حجارة من طين منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد "(١) .

كل هذه التهويلات والترادف والرص العجيب ليقول لنا ان فلانا تأخر علي .. وأظن أن فلانا أنهى مهمته ورجع قبل أن ينهى الخوارزمى عباراته المترادفة تلك .. وانظر الى (أم) كم مرة يكررها ؟ على أن هذه خاصية دقيقة عند الخوارزمى : اذا أمسك " بأم " أو " بهل " لم يكد يفلتهما ، فما أشبهه فى ذلك بأبى عثمان الجاحظ .

وهذا نموذج آخر لمبالغاته وتهويلاته . يقول فى احدى رسائله : " ولئن أصبحت كل أيام الزمان صائما وكل لياليه قائما شكرا لله على سلامته ثم تصدقت بعدد ذلك بعدد نخيل البصرة وآجر الكوفة بل بعدد رمل الدهناء ، ونجوم السماء ، بل بعدد العالمين ، وعدد نبات الارضين ...

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٥٣ .

لم أكن وفيت النعمة على مهرها ولا قدرتها حق قدرها .[١] ولا تظنه اكتفى من التكرار بما أثبته من نصه هذا .. وانما اختصرته خوف الاطالة .. فهو يريد أن يعبر عن فرحته بشفاء صديقه ، وكانت تكفيه الجملة الأولى أو الجملتان .

أما أن يسرد لنا صفحة كاملة يردف الجملة بالثانية فى التعبير عن معنى واحد ، فهذا أمر عجيب .. ولهذا اتهمه شوقى ضيف بأنه أدخل الى فنه ضروبا من التصنع تتسرب الى صناعته وهي صناعة كانت تقوم على التصنيع ولكنها أخذت .. تظهر فيها بعض سمات التصنع .. وهو مذهب يقوم على التعقيد فى الاسلوب والأداء[٢] . غير أن هذا الحكم لا ينجر على كل رسائل الخوارزمى فله رسائل تعد من أبلغ رسائل عصره الاخوانية - وقد مرت أمثلتها - وذلك حين يكون صادقا يكتب بروحه وعاطفته .

٤) الاكثار من الاشارات التاريخية والأدبية والعلمية .. فهو يحاول أن يجعل من رسائله عنوانا يشير الى اتساع ثقافته ومحفوظه واحاطته بشتى العلوم ، وكأنه أراد أن تكون هذه الرسائل مرجعا لطلاب العلم الذين كانوا يتوافدون عليه ، ويعجبون بعلمه وسعة ثقافته .. وأكبر مثال على ذلك رسالته الى البديهى[٣] ورسالته الى جماعة الشيعة[٤] وانظر الى قوله : " ولو كنت أحمد بن يوسف فى البلاغة وعبد الحميد بن يحيى فى اتساع الكتابة ، وجعفر بن يحيى فى الاختصار ، وأبا الربيع فى التوسع والاكثار وأبا العيناء فى المعارضة ، وأبا العتاهية فى البديهة ، وابن الممتز فى التشبيهات وأبا نواس فى الخمريات والطرديات ، والمتنبى فى المعاتبات ، والنابغة

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠ ، ٢١ وانظر بقية الأمثلة ص ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ٦٣ .
(٢) أنظر الفن ومذاهبه فى النثر ص ٢٣٨ . (٣) انظر رسائل الخوارزمى ص ١١٣-١٢٣
(٤) نفس المرجع ص ٧٦ - ٨٣ .

فى الاعتذارات ، وصريع الغوانى فى الاستعارات ، والفرزدق فى الفخريات وجرير فى المهاجاة ، وغلبت فى المخاطبة صعصعة بن صوحان ، وقمت فى الفصاحة خالد بن صفوان ، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلا وأتيت بعجوز آل رقية مبتدعا ، وبعذراء آل خارجة مقتضبا وضرب بى المثل فى المقامات لابسحبان وائل .

وحفظت حفظ الشعبى ، وحاضرت محاضرة ابن القرية النمرى ، وأبدعت ابداع أبى تمام الطائى .. وصنفت تصنيف الجاحظ فى الجد والهزل ، وهجرجت الأصمعى رواية ، وزيفت أبا عبيدة حفظا ورواية ، وأخذ عنى بطلميوس علم الهيئة وآرسطا طاليس علم الفلسفة ، وبلنياس باب الطلسم والحيلة ، واختلفت الي الهند فى تعليم الحساب ، ودرس على أبو عثمان المازنى علم التصريف والاعراب ، واقتبس منى الخليل عروض الشعر .. وضرب على قالب خطى خط ابن مقلة ، وتوارث .. الكتابة أهل بيتى كما توارثها بنو ثوابة ، وأمليت على ابن الكلبى شجرة النسب وعلى أبى عمرو بن العلاء أيام العرب ، ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضى بى فى عتاب الاخوان لسانى .. لقصر عن ذلك عنانى . (١) فهو واضح أنه يستعرض ثقافته ، ونراه ملما حتى بعلوم اليونان من فلسفة وهيئة .. وغيرهما .

٥) كثرة ضرب الأمثال فى رسائله : فهو من أقدر الكتاب فى عصره على ذلك - حتى أن الثعالبى جمع الأمثال الواردة فى رسائله فى فصل مستقل (٢) ، ولا أظنه أحاط بكل ماورد منها فى رسائله ، ولعل توسعه فى هذه الخاصة يرجع الى سعة علمه واطلاعه ، وكثرة حفظه وتأليفه فى هذا الفن .

---

(١) أنظر رسائل الخوارزمى ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) أنظر اليتيمة ٤/١٩٤ - ١٩٨ وانظر أيضا كتاب سحر البلاغة ١٩١ - ١٩٥ .

كما نجد فى رسائل الخوارزمى التضمين من الشعر ولكن لا يصل تضمينه للشعر ، استعماله للأمثال ، كما أنه أحيانا يضمن رسالته أبياتا دون الاشارة الى قائلها ، فقد تكون له وقد تكون لغيره .

كما نجد فيها الاقتباس من القرآن على أن هذا ليس خاصا به .

وهناك خاصية يمكن أن يكون الخوارزمى زاد فيها على كتاب عصره تلك هي طريقته فى حل الشعر ، فمن ذلك قوله :

" وكيف أمدح الأمير بخلق ضن به الهواء ، وامتلأت به الأرض والسماء ، وأبصره .. الأعمى بلاعين ، وسمعه الأصم بلا اذن ، فهو من قول أبى الطيب :

تنشدنا أثوابنا مدائحه * بألسن مالهن أفواه

اذا مررنا على الأصم بها * أغنته عن مسمعيه عيناه

وقوله : " ولقد تساوت الألسن حتى حسد الأبكم ، وأفسد الشعر حتى أحمد الصم " وهو من قول أبى الطيب :

ولا تبالى بشعر بعد شاعره * قد أفسد القوم حتى أحمد الصم (١)

وهذا كثير جدا فى رسائل الخوارزمى (٢) وهو ناتج عن كثرة مايحفظ من الشعر. على أنهم لا يجدون فى هذا غضاضة ، فالخوارزمى يقول فى احدى رسائله :

" وجلست بين الدواوين ، بين آل الجراح وآل ثوابة ، وبين بنى الخصيب وبنى مقلة .. وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصرى وسهل بن هارون الفارسى ، والحسين بن وهب الحارثى ، ووضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابك وعن يسارى كتاب التبيين والبيان ..

---

(١) الصبح المنبى ص ١٦٥ ، ١٦٦ وانظر المهذب " مخطوط " ورقة ٢٤ .

(٢) انظر رسائل الخوارزمى ص ٤٧ .

فما زلت أسرق من هذا كلمة وأطر من ذا فقرة ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغصب الأحياء على بيانهم ، وأنبش الموتى من أكفانهم . (١) ، وهذا دليل على احتفاله لتلك الرسائل والجهد الذى يبذله فيها ، والخوارزمى يعد من أقدر الكتاب على الوصف .. وذلك لكثرة حفظه الذى أثر فى أدبه ، فقوى أسلوبه ، وتلون خياله ، (٢) وله مقدرة على الكشف عن بواطن النفوس ومعالجتها فان أراد أن يسكنها فعل ، وان أراد أن يفزعها كان له ذلك .

كما نجد فى رسائله أنة الحزن والأسى .. ذلك أنه صارع الأيام فانتصرت عليه فى مواطن كثيرة ، وكانت آماله أكبر مما نال فى دنياه .. ولذلك نجده دائم الشكوى والتذمر يهاجم رؤساء عصره ، وينتقد ويذم أوضاع زمانه .

وهذه المعاناة لأعباء الحياة ومكابدة مصائبها أملت عليه الحكمة ، وما ضرب الأمثال فى رسائله الا نتاج ذلك .. ولعل فى تعاسة الأديب أكبر فائدة للأدب لما تجربه على لسانه من الحكم والمواعظ .. فالأديب كالشمعة تحرق نفسها لتضيء للآخرين .

ومن خصائصه .. الجد فى القول ، وقلما يطرق باب الهزل ، ولذلك عاب على أهل زمانه اشتغالهم به عن الجد .. ويمكن ملاحظة هزله فى وصفه لبستان (٣) ودخوله بعض المدن على حمار (٤) على أنه ضحك أشبه بالبكاء .

ومن خصائصه ، اقتصار رسائله على مآربه الخاصة ، من سفارة بينه وبين وجهاء عصره ، أو طلب نوال ، أو عتاب أو تعزية .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٢٢
(٢) أنظر النثر الفنى ٢/٣٢٤ .
(٣) انظر رسائل الخوارزمى ص ٧-٨
(٤) انظر نفس المصدر ص ٦٣ .

وهذا كما يقول زكى مبارك : أخطر مقتل فى تلك الرسائل التى تعد من ذخائر الأدب العربى ، اذ أنه لم يهب شطرا من منثوره للدفاع عن فكرة فلسفية ، أو نزعة وجدانية ، ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والاخلاص ، ولم يسم به الى سماء الفن الخالص الذى ينسينا أوضار المادة ، وينقلنا الى عالم الأرواح ، وكل مانجح فيه أنه أشعرنا بوجوده.(١)

ويشفع للخوارزمى فى ذلك أن هذا هو طابع الرسائل الاخوانية كما سبق أن ذكرت .. وهو حين يخرج عن هذا الطابع ، يخرج عن هذه الدائرة الضيقة كما رأينا فى مقدمته للأمثال .

كما نجده يهتم بالمعنى ، ويدافع بالحجة ويعتمد على الفكرة فى رسائله المتبادلة مع بديع الزمان الهمذانى .

---

(١) انظر النثر الفنى ٢/٣٣٥ .

=====

***

الفصل الثالث

الشعر

حظى الشعر العربى فى القرن الرابع الهجرى بأعلام الفحول من أمثال أبى الطيب المتنبى ، وأبى فراس الحمدانى والشريف الرضى وأبى العلاء المعرى غير أن الملاحظ أن البيئة الفارسية ، التى قضى فيها الخوارزمى معظم أيام عمره لم يشتهر فيها شاعر يصل الى مستوى من ذكرنا .. فأغلب الشعراء المشهورين انما كانوا من بيئات أخرى كالشام والعراق .. وغيرها .

ولعل هذا عائد الى سيطرة الروح الفارسى على الاقاليم الشرقية من العالم الاسلامى .. فأغلب سكانها من الفرس وحكامها أيضا كانوا فرسا .. وان كانوا يحكمونها باسم الخلافة العباسية .. كما أن أغلب من ظهر فيها من الشعراء والادباء هم من أصل فارسى ، وان كانت ثقافتهم عربية ولكنهم كانوا يتكلمون لغتهم فى أحاديثهم الخاصة .

فطغى بهذا الروح الفارسى وأخذ الادباء يراعون فى أدبهم الذوق والعرف ، الاعجمى ، لانحسار الذوق العربى ...

وان كنا نحفظ لهؤلاء الحكام الفرس بويهيين وغيرهم ، عدم تعصبهم لآدابهم ، آبائهم فقد بقيت الآداب واللغة فى هذه البيئات عربية رغم أن اللسان العامى فارسى ولعل الذى منعهم من التعصب ضد اللغة العربية وآدابها أنهم كانوا يحكمون شعبا مسلما يحب العرب ولغتهم وآدابهم لأنها آداب الاسلام ولغة القرآن .

مع ملاحظة أن الأدب الفارسى كان يمارس دوره فى هذه البلاد الى جانب الادب العربى (١).

---

(١) انظر الادب الفارسى فى العصر القزنوى ص ٤٢ ، ٤٣

يدل على ذلك قول الصاحب " مدحت بمائة ألف قصيدة عربيه وفارسية(١)" وقد ظهر فى بلاط السامانيين شعراء ينظمون باللغة الفارسية الى جانب الشعراء الذين ينظمون بالعربية .. أمثال الرودكى وابن قيقى (٢) . ومن هنا كان لأدب هذه البيئات(نثره وشعره) طابع خاص

يمثل ذوق سكانها من العجم ويبتعد عن الذوق والروح العربى الخالص فمال الى الليونة والصنعة والزخرف المبهرج ، حتى كأن الاديب وهو ينشئ قصيدة أو رسالة انما ينسج بقلمه قطعة سجاد مزركشة ، أو يرسم به أشكالا ورسومات على قطعة خزفية — وهى الصناعة التى عرف بها سكان هذه الاقاليم(٣) — ومن ناحية أخرى .. خضع الادباء لحكامهم حتى فى فكرهم و نتاجهم لاستعلائهم وحاجة الادباء اليهم .. وكأنهم لا زالوا يؤمنون بما كان يؤمن به حكام الاكاسرة من أن فيهم جزءا الاهيا ، ولهذا يجب أن تنظار الرعية اليهم — بما فيهم الادباء — بعين التقديس والخضوع . ومن هنا وجدنا الخوارزمى يصطدم بهم فى بدء حياته حينما كان ، يحاول التمرد على هذا العرف .. وأحيانا نجده يخضع لهذه العادة فيتملق ويقول لممدوحه ما يرضيه — كما مر معنا فى بعض رسائله .

فالاديب أمام هؤلاء الحكام من الفرس ليس له شخصية مستقلة ، وبالتالى ليس له فكر حر أو رأى مستقل فكان أغلب أدبهم أدب زخرف وصنعة ، وليس أدب فكرة وفلسفة ، وليس أدب مبدأ أو قضية فانصب اهتمامهم على الناحية الشكلية فأجادوا فيها كما أجادوا فى أساليب البلاغة وافتنوا فى استخدام الالفاظ والتلاعب بها ، حتى

---

(١) الوعاة ١/ ٤٥٠ وانظر معجم الادباء ٦/ ٢٦٣

(٢) انظر الدويلات الاسلامية فى المشرق ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٣) انظر تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٣٥ ومابعدها .

أدى بهم الأمر الى اختراع المقامات التى تعتبر صورة لاجادتهم للناحية الشكلية الفنية فى الكتابة والشعر .

والخوارزمى أحد أدباء هذه البيئة ، فرغم أنه طاف ببلدان كثيرة وعاش مدة من عمره فى بلاط سيف الدولة بالشام فانه بقى مرتبطا ببيئته التى نشأ وتعلم فيها ، وقضى حياته بين ربوعها . فكان أدبه يمثل هذه البيئة .. ، وكان من أكبر شعرائها ان لم يكن أكبرهم — لانخفاض مستوى الشعر فى هذه البيئة عن غيرها كما ذكرنا —

ومن هنا استحق أن يدرس شعره ويهتم به باعتباره أحد شعراء المشرق الاسلامى المشهورين ..

وقد أجتمع لدى منه ما يمكن أن يكون ديوانا ، اذ أن ديوانه لا يزال مفقودا أو فى حكم المفقود . وسوف أفرد لشعره دراسة خاصة — اذا قدر لى ذلك — ، وسأثبت منه ههنا بعض المقطوعات التى تعد نموذجا لاغراض شعره .. وهى المقطوعات المتناثرة التى عثرت عليها فى أمهات الكتب . وهذا احصاء تقريبى لما وجدته من شعره فى الاغراض الآتية :

١ — فى المدح = ٢٤٠ بيتا

٢ — فى الهجاء = ١١٣ بيتا

٣ — فى الرثاء = ٨٥ بيتا

٤ — فى الوصف = ٧٥ بيتا

٥ — فى الغزل = ٩٥ بيتا

٦ — فى الفخر = ١٦ بيتا

٧ — فى النصائح والحكم = ٣٠ بيتا عدا ما ورد من شعره فى الاغراض الاخرى .

المدح : استولى هذا الغرض على أكثر شعر الخوارزمى الموجود بين أيدينا . .

ذلك أنه كغيره من الشعراء انتجع بأدبه الامراء والوزراء والحكام لينال أعطياتهم وتقديرهم فكان طبيعيا أن يكثر منه ، ومن ذلك قوله فى أبى نصر الميكالى (١) :

تلك الديار فريسة الاحقاب ... صنعت بعينى صنع ساكنها بى

والى الامير ابن الامير تواهقت ... رزح الركاب برازح الركاب (٢)

لبسوا الدجى لبس الغراب لريشه ... وغدو لحاجتهم غدو غراب

والفجر يطرف فى الظلام كأنه ... فضلات عتب فى خلال عتاب

طلبوا امرأ أفعاله محسوبة ... ونواله فوضى بغير حساب

غدت المدائح وهى أسماء له ... ولغيره أصبحن كالالقاب

والمكرمات كثيرة الخطاب الـ ... لا أنها تأبى على الخطاب

متبسم الحجاب مكتئب الجدى ... شرى النديم مجازف الحساب

شيم أرق من الهوى وألذ من ... خطأ العدو ردد به بصواب

وعزائم لو كن يوما أسهما ... لنفذن فى الايام غير نواب

مائية الحركات الا أنها ... نارية الاقدام والالهاب

يخطرن بين سياسة ورئاسة ... ويتهن بين مثوبة وعقاب

قد أصبحت ألفاظه صور النهى ... وقوالب الاسماع والالباب

واذا حللت له جنابا واحدا ... حل المؤمل منك ألف جناب

---

(١) كتاب اليمينى المعروف بكتاب العتبى مخطوط ورقة ١٥٤ — ١٥٦

(٢) تواهقت الركاب : مدت أعناقها فى السير وتبارت فيه أساس البلاغه مادة "وهق"

رزح الركاب : أى الركاب التى انهكها التعب

والخوارزمى يجرى فى مدحه هذا لابى نصر مجرى فحول الشعراء القدامى فقد بدأها بذكر الديار وتذكر سكانها .. ثم أن نسجها واختيار الفاظهـــا وعمق معانيها وحسن استعاراتها يجعلنا نعترف له بالاجادة ، فمن لا يعجبه تصويره لبوادر الصباح فى الظلماء ، ببقايا العتب والمؤاخذة فى ثنايا وسالة أو ، قصيدة عتاب ؟ وهو تصوير من خبر النفوس وعرف أسرارها .. أو تصويره لشـــيم ممدوحه بافحام الخصم لخصمه حين يرده عن خطئه بالحجة .. وهو تصوير مـــن واقع البيئة التى كانت تعج بالمناظرات ، والمحاورات .. والانتصار فى هـــذه المعارك الكلامية لا يقل عند القوم عن الانتصار فى ميادين الحرب .. والأبيات كلها كنايات واستعارات وتشبيهات لطيفه ..

ويقول فيه من قصيدة أخرى (١) :ـ

زف المنام اليّ طيف خيالـــــه ... لو أن طيفا كان من إبدالـــــه

لو أن هذا الدهر يشكر لم يدع ... شكر الأمير وقد عدا من آلـــــه .

لا ينسف الالحاح نائله ولا ... سؤل أمرئ ينهاه عن إسئالـــه

الوفر عند نواله والنيل عنـــد ... سؤاله والموت عند صيالـــــــه

. . . . . .

تتجمع الآمال فى أموالـــــه ... تتفرق الأموال فى آمالـــــــه

. . . . . .

وله علوم لو قسمن على الورى ... مازاد عاقله على جهالـــــــه

وخلائق لو أنهن كواكـــــب ... أضحى السها فى الضوء مثل هلاله

---

(١) نفس المرجع ورقة ١٥٤

وفصول قول هن أعذب مسمعـا ... من راحة المشغول من اشغالـه
سمح البديهة ليس يمسك لفظه ... فكأنما الفاظه من مالـه
وكأنما عزماته وسيوفـه ... من حد هن خلقن من اقبالـه
متبسم فى الخطب تحسب أنـه ... من حسنه متلثم بفعالـه

. . . . . .

ونلاحظ أن مطلع قصيدته هذه غير لائق بالمدح اذ أن الطيف طيـف المشيق (١) الا اذا كان القوم قد تواضعوا على مثل هذه المعانى والاساليب(٢) .. ومع ذلك فالقصيدة جيدة فى بابها قوية فى سبكها وقد مدح الخوارزمـى بالصفات المحمودة التى لا تتوفر الا فى رجل حاز الفضائل كالميكالى .

وله فى المدح مقطوعات قصيرة عدت مضرب المثل كقوله (٣) :

واذا طلبت الى كريم حاجـة ... فلقاؤه يكفيك والتسلـيم
واذا رآك مسلما عرف الـذى ... حملته فكأنه ملـزوم

---

(١) انظر طيف الخيال ص ١٤ وما بعدها .

(٢) كقوله فى الصاحب يتشبب كما يقول صاحب كتاب مصارع العشاق ١/ ٩٠

يغل غدا جيش النوى عسكر اللقا ... فرأيك فى سح الدموع موفقـا
ولما رأيت الالف يعزم للنـوى ... عزمت على الاجفان أن تترقرقـا
وخذ حجتى فى ترك جسمى سالما ... وقلبى ومن حقيهما أن يخرقـا
يدى ضعفت عن أن تخرق جيبها ... وما كان قلبى حاضرا فيمزقا

وانظر اليتيمة ٤/ ٢١٠ وانظر له مثالا أوضح من هذا : أعيان الشيعه ٤٥/ ٢٦٢

(٣) الوساطه بين المتنبى وخصومه ص ٣٧٧ والتبيان ١/ ١٩٨

أو قوله (٤) :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا ... لزاما وإن أعسرت زرت لماما

فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه ... أغب وان زاد الضياء أقاما

وقوله ـ وبعد من حسن التخلص (١) :

لم يبق فى الارض من شيبى أهاب له ... فكم أهاب انكسار الجفن ذى السقم

أستغفر الله من قولى غلطت بلى ... أهاب شمس المعالى أمة الامم

ويقول من أخرى (٢) :

لغير محبك الرأى السديد ... وغير فؤاده القلب الجليد

وفى الثوبين منه مستهام ... هواك على لواحظه قيود

رمى بحزيه عن قوس وجد ... وباع فؤاده فيمن يزيد

ورأى بديع الزمان أنه سارق لمعناها وقد استغرق فى نقدها وبيان مصادرها أكثر من ثلاث صفحات .

---

(٤) زهر الآداب ١ / ٣٩٩ ، مرآة الجنان ٢ / ٤١٦ ، الوافى ٣ / ١٩٣ ، التمثيل والمحاضرة ص ٢٣٢ وأسرار البلاغة ص ١٢٤ وفيه " أراك اذا أيسرت " ويعلق الجرجانى على البيتين بقوله : إن المعنى لطيف وان كانت العبارة لم تساعده لان الاغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه .. وليس كذلك القمر اذ أنه يطلع كل ليلة .

(١) معاهد التنصيص ١ / ٢٢٧ ، وانوار الربيع ٤ / ٣٧٠

(٢) رسائل بديع الزمان ومقاماته " مخطوط " ورقة ١٠٢ ـ ١٠٤

وقوله (١) :

وكنت اذا تهدت لغزو قـــوم ... وأوجبت السياسة أن يبيـــد ١٩

تبرأت الحياة اليك منهـــم ... وجاء اليك يعتذر الحديـــد

وطلقت الجماجم كل قحـــف ... وأنكر صحبة العنق الوريـد (٢)

الهجاء :

وهو من الاغراض التى قصر فيها باع الخوارزمى ، وقد يبدو عجيبا ألا يجود فى هذا الفن تجويده فى فن المديح .. اذ كنا نتوقع أن ذلك مجاله الـــذى يصول فيه ويجول ذلك أنه كان محاطا بالاعداء من كل جانب .. لم يسلم مـــن مصادقة الوزراء .. وقد دخل السجن بسببهم مرارا .. فكان الاحرى أن تثير هذه الحوادث شاعريته بالهجاء ليرد على اعدائه ويدافع عن نفسه غير أن ما وصلنا من شعره فيه لا يتعدى مقطوعات قليلة أشبه بالدعابة .. وقد يكون فى ديوانـه غير ما وجدنا . وهذه المقطوعات سهلة بسيطة فيها بعض الاقذاع والمجون . ولعل هذه الاهاجى المقذعه والمؤذية للذوق مستملحة فى زمانه اذ أننا نجدها فى معظم شعر أدباء تلك الفترة ومن أهاجيه قوله فى ابن عباد (٣)

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت ... كفاه بالجود سحا يخجل الديمـــا

فانها خطرات من وساوســـــه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرمـــا (٤)

وهو تعليل ذكى لتشويه كثرة نوال الصاحب بن عباد وقال فيه (٥) :

---

(١) شرح الواحدى ص ٥٤٥

(٢) القحف : الجمجمه .. أساس البلاغه مادة " قحف "

(٣) مرآة الجنان ٢/ ٤١٧ ، وفيات الاعيان ٤/ ٤٠٢ ، معجم الادباء ٦/ ٥٦ أنوار الربيع ٢/ ١٦٠ ، نزهة الالباء ص ٣٢٦

(٤) يذكر صاحب وفيات الاعيان أن الخوارزمى نقل هذا المعنى من قول : أبى القاسم معاويه بن سفيان الاعمى

لا تحمدن حسنا بالجود ان مطرت ... كفاه غزرا ولا تذممه ان زرمـــا

فليس يمنع ابقاء على نشـــب ... ولا يجود بفضل الحمد مغتنمـــا

لكنها خطرات من وساوســـــه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما ٤/ ٣

(٥) اليتيمة ٣/ ٢٨٢

صاحبنا أحواله عاليـــــــــه لكنما غرفته خاليـــــــــــة
وان عرفت السر من دائـــــه لم تسأل الله سوى العافيـــــه

ويقول فى رجل اسمه " أبو سعيد "(١) :

أبو سعيد له ثوب نفيـــــــس ولكن تحت ذاك الثوب خربـــــه
فان جاوزت كسوته اليـــــــه " فليس وراء عباد ان قريـــــــه "

ويقول فى هجاء أهل بلد (٢) :

فإن أسكن ببلدة " ابن شهر " فان البدر ينزل فى الظلام
أصغرها وان عظمت ، ولكـــن لها أهلون ليسوا بالعظـــام
وفرسان ولكن فى الحشايـــا وأجواد ولكن بالكلام
صغار بالمطالب ، والسجايـــا وان كانو كبارا بالعظـــام
وليس الموت قبل الصـــوت الا قبول الاكرمين ندى اللئام
وليس الخلد قبل الخلد الا أيادى للكرام لدى الكـــرام .

وقال فى شريف (٣) :

شريف فعله فعل وضيـــــع دنى النفس عند ذوى الجدود
عوار فى شريعتنا وفتـــــح علينا للنصارى ، واليهـــود
كأن الله لم يخلقـــــه الا لتنعطف القلوب على يزيـــد

وقد حاول الخوارزمى ــ فى حداثته التحرش باللحام وهجاه ليثيره على مهاجاته ولكنه لم يجبه (٤) :

الرثاء :

وهو من أهم الاغراض التى جود فيها الخوارزمى ، وظهرت فيها مقدرتـــه الشعرية ، ولعل هذا يعود لما يتمتع به من الوفاء والحفاظ على الود ، رغم ما يصفه

---

(١) ديوان المعانى ٢ / ٢٠٩ ، وبدائع الملح " مخطوط " ورقة ٤٢ وشفاء الغليل ٤٣ .
(٢) اليتيمة ٤ / ٢٣٢ ــ ٢٣٣ وبدائع الملح ورقة ٨٩ ، وقد انفرد بالبيتين الاخيرين .
(٣) اليتيمه ٤ / ٢٣٠ ــ ٢٣١
(٤) انظر نفس المرجع السابق ٤ / ٩٦ .

به البعض من عدم رعاية الاخاء والاستقرار على المودة ، وقد يصدق قولهم هـــذا على علاقاته بالوزراء والولاة . ولكنه لا يصدق على من تربطه به رابطة أخويـــــة وصداقة مخلصة .

وله بعض المراثي تتجلى فيها حرارة العاطفة ، والصدق ، والمعاناة ، اذ أن هذا الغرض من الموضوعات التي يصدق فيها الشاعر ، لأن دافعه اليه هو الوفاء للميت وما يشعر به لفقده من الحزن والاسى .

ومن مراثيه لركن الدوله (١) :

ألست ترى السيف كيف انثلـــم ... وركن الخلافة كيف انهـــدم ؟
طوى الحسن بن بويه الـــردى ... أيدرى الردى أى جيش هـــزم ؟

ومنهـــا

طويل القناة قصير العدات ... ذميم العداة حميد الشيـــم
فصيح اللسان بديع البيان ... رفيع السنان سريع القلـــم
يكيل الرجال بأقدارهـــا ... ويرعى البيوتات رعى الحـــرم
جواد عليهم بخيل بهـــم ... اذا ساء خص وان سر عـــم
فيادهر سحقا ولا تحتشـــم ... فقد ذهب الرجل المحتشـــم
أحين جرى ملكه فى الملوك ... ورد به الله ملك العجـــم
وخط المنان على قبـــره ... بخط البلى وبنان السقـــم
اذا تم أمر دنا نقصـــه ... توقع زوالا اذا قيل تـــم .

وتظهر مقدرة الخوارزمى فى اظهار المحاسن التى يجب توفرها فى الحاكم الصالح .. كما نجده يظهر امتنان العجم واغتباطهم بعد أن رجعوا لحكم بلادهم .. ونـــراه

---

(١) نفس المرجع ٤/ ٢٢٦ وتكملة تاريخ الطبرى ١/ ٢٢٩ على اختلاف فى ترتيب الابيات وعددها

يستخدم فيها أنواع البديع ، يحلى بها أبياته ، وقد أحسن فى اختيار القافيـــة التى تناسب النغم الحزين .

وقال فى رثاء أبى سعيد الشبيبى (١) وهى من أشجى وأبلغ مراثيه ان لم تكـــن أشجاها وأبلغها .. فقد نحا فيها نحوا جديدا جمع فيه بين التهنئة والتعزية وهذا النحو قلما نرى له نظيرا فى الأدب العربى عبر العصور فقد كان أبو سعيـد هجاه وأساء اليه (٢) ، ولكنه يحترمه لعلمه وفضله فلما توفى أتاه من يهنئه بموته فكانت هذه القصيدة الجيدة نتاج هذه النفس التى تتنازعها عاطفتان .. فهـــو فى هذا الموقف أكرم من معاصره بديع الزمان الذى اظهر شماتته فى رثائه له .

وهذه قصيدة الخوارزمى (٣)

أيدرى السيف أى فتى يبيـد ؟	وأية غاية أضحى يريـــــد ؟
لقد صادت يد الايام طيـــرا	تضيق به حبالة من يصيـــــد
وأصبح فى الصعيد أبو سعيـد	ألا ان التراب به سعيـــــد
وقد كانت تضيق الأرض عنـــه	فلم وسعت لجثته اللحـــــود ؟
بلى من الثرى قلبا رحيبـــا	فأعدى الترب فاتسع الصعيـــد
فلا أدرى أأضحك أم أبكـــى	وتهدمنى المنية أم تشيـــد ؟
صديق قد فقدناه قديـــم	وشكل قد وجدناه جديـــد
مصاب وهو عند الناس نعمـــى	وتحبين وهو عند الناس عيـــد
تهنيني الأنام به ولكـــن	تعزينى المواشى والعنيـــود
وسيف قد ضربت به مـــرار	فمن ضرباته بى لى شهـــود
فلما أن تثلل ظلت أبكـــى	وعندى بعد منه دم جســـيد (٤)

---

(١) انظر ترجمته فى اليتيمة ٤/٢٤٢ وقد وصفه الثعالبى بأنه صاحب الجيشين وشيخ الدولتين (السامانية والبويهية)

(٢) فقد هجاه بقوله : أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الاخاء
مودته اذا دامت لخل فمن وقت الصباح الى المساء (اليتيمه ٤/
وصاحب كتاب نوادر الطلح ينسب البيتين للصاحب (بدائع الطلح ورقه ١٦)

(٣) اليتيمه ٤/٢٢٨ — ٢٢٩

(٤) دم جسيد : جامد يابس .

ومن عجب الليالى أن خصمى ... يبيد وأن حزنى لا يبيد

وأن النصف من عينى جمود ... وأن النصف من قلبى جليد

اذا سفحت عليه دموع عينى ... نهاها الهجر منه والصدود

وآثار له عندى قباح ... يجمش بينها الرأس الحديد (١)

فنصف من مدامعها سخين ... ونصف من مدامعها برود

فمن هذا رأى فى الناس مثلى ... أريد من المنى مالا أريد

ومن نكد المنية فقد حر ... تخالف فيه اخوانى الشهود

فذا هنا وقال : مضى عدو ... وذا عزبى وقال : مضى ودود

. . . . . .

شهدت بأن دهرا عشت فيه ... ومت عقيدا فردا صمد

وقالوا البحر جزر ثم مد ... فما لك قد جزرت ولا تعود

بكيت عليك بالعين التى لم ... تزل من سوء فعلك بى تجود

فقد أبكيتنى حيا وميتا ... فقل لى أىّ فعليك الرشيد ؟

. . . . . .

لقد غادرتنى فى كل حال ... أذم الدهر فيك وأستزيد

فلا يوم تموت به مجيد ... ولا يوم تعيش به حميد

وما أصبحت الا مثل ضرس ... تألم فهو موجود فقيد

ففى تركى له داء دوى ... وفى قلعى له ألم شديد

فلا تبعد اقامة رسم حق ... وانك أنت للشىء البعيد

وانك أنت للسيف الحديد ... وانك أنت للعلم السديد

وانك أنت للدنيا جميعا ... ولكن ليس للدنيا خلود .

---

(١) يجمش : يقرص ويغازل

فانظر كيف سما خلق الخوارزمى عن أن يشمت برجل قد مات وان كان خصمه ، وهذه سمة الأحوار من الرجال فمهما كان المتوفى عدوا للحي فإنه من سوء النيـــة وخبث الطوية أن يظهر فرحه بموته لأنه قد مات وأنتهى ، وبموته ينتهى الحقـــد والكراهية ، ويحل محلها الحزن والألم فلا يبقى فى نفس الخصم من صفات خصمه الميت سوى صفاته الجميلة ، وقد حل به ما حل .

وله فى رثاء ابن العميد (١) :

يا دهر إنك بالرجال بصـــير	فلطالما تجتاجهم وتبيـــر
يا دهر غيرى من خدعت بباطـل	وابن العميد مغيب مقبـــور
الآن نادتنا التجارب طلقـوا	دنياكم ان السرور غـــرور
يا دهر ظل لمخلبيك فريسـة	رجل لعمرى لو علمت كبـــير
رجل لو ان الكفر يحســن بعده	هجى القضاء وأنب المقـــدور
أشكو اليك النفس وهى كئيبـة	وأذم فيك الدمع وهو غزيـــر
وأقول للعين القرير بكاؤهـا	خطب لعمرى لو عميت يسيـــر
قد مت بعدك ميتة مستـــورة	قد ساقها لى موتك المشهـــور
ودفنت فى قبر الهموم وضمنـى	كفنان ضيق الصدر والتفكيـــر
ضحكت اليك الحور ضحك كلما	وافاك ضيف أو أتاك فقـــير
وضفت عليك ذيول رحمة ربنـا	والله بر بالجواد غفـــور
وسقى ضريحك مستهل عمـره	شهر ، وعمر النهت منه شهـــور
جود ككفك أو كمينى أودم	أجراه سيفك فى العدى مشهـــور
أهوى القيامة لا لشيء غير أن	ألقاك فيها والأنام حضـــور
وأحب فيك الموت علما أننـى	بعد الممات الى اللقاء نصيـــر

---

(١) اليتيمة ٤/ ٢٢٦ ، ٢٢٧ وانظر ترجمة ابن العميد ٣/ ١٥٨ وفى الوافى ٢/ ٣٨١

وهى من مراثيه الجيدة .. واضحة المعانى .. لا تحتاج الى شرح . تعبر عن نفس موجعة تبكى عزيزا عليها اخترمه الموت من موقع تعلم أنها اليه صائرة ، فعاطفته هنا لا شك صادقة .. ولم يضعفها سوى البيت الأخير ، فعبارة .. علما أننى .. تعبير علمى لا شاعرى ، وأظن أن صحتها " علما أننا " ومع ذلك فكلمة " علما " غير شاعرية .

وله قصيدة فى رثاء (أبى الحسن المحتسبى) لا تقل جودة عن رثائه فى ابن العميد يمكن مطالعتها فى يتيمة الدهر (١) :

الوصف :

وقد أجاد الخوارزمى فى هذا الغرض . فوصف لنا ما وقعت عليه عينه من مظاهر الطبيعة وان كان وصفه يميل الى التظرف والسهولة كوصفه لانواع الاكل أو بعض الكائنات الغريبة كالسلحفاة والضفدع ...

ويمكن أن نسجل له أنه تعدى فى هذا الغرض ، وصف الطبيعة الصامته الى الطبيعة المتحركة ، وان كنا نفتقد فيما وصلنا من شعره النفس الطويل الذى نجده عند البحترى أو ابن الرومى أو ابن خفاجة أو الصنوبرى ، فكل ما هنالك لا يتعدى الابيات أو المقطوعات

قال يصف ضفدع (٢) :

أرقنى والديك لما ينطق ... والليل فى سربال دجن مطبق (٣)

لم يدم كشحاه بصبغ الفلق ... صوت غريق نصفه لم يغرق

غصان بالماء ولما يشرق ... وجاحظ العين ولما يخنق

---

(١) انظر اليتيمة ٤/٢٢٩

(٢) محاضرات الادباء ٢/٤٠٥ وبدائع الملح ورقة ٨ على اختلاف فى الترتيب وعدد الأ

(٣) الدجنة : الظلمة .. أساس البلاغة مادة " دجن "

وساهر الليل ولما يمشـــــق هو الغراب فى الخطى والمنـــطق .

جلد سلحفاة وشب عقمـــــق وصوت مخنوق ونفخ أشـــــرق

يدملج الماء دملج الحنـــــق كتجديف ملاح غدافى زورق

وقد استقصى صفات الضفدع فشبه صوته تارة بصوت غريق يستنجد وهو بعد لم يفارق الحياة وتارة بصوت مخنوق ، وأخرى بصوت الغراب كما شبه مشيته بمشيتـــه ولعله أول من أكتشف التشابه بين صوت الغراب وصوت الضفدع كما يشبه جلده بجلـد السلحفاة ، وتجديفه فى الماء بتجديف الملاح فى زورقه .. ولكنه استوفى وصفـه هذا فى كثير من الابيات كما ترى .

ويقول فى وصف السلحفاة (١) :

بنت قفر بدت لنا من بعيـــــد مثلما قد طوى البخارى سفـــره

رأسها رأس حية وقـــــراها ظهر ترس وجلدها جلد صخرة (٢)

مثل فهر العطار دق به العـــط رفحلت طرائق الطيب ظهـــره (٣)

أو كما قد قلبت جفنه شـــرب نقشوها بحمرة وبصفـــــرة .

يقطع الخوف رأسها فاذا مـا أمنت قر رأسها ستقـــــره .

وما أجمل تصويره ادخال السلحفاة رأسها حين تسمع صوتا أو ترى أحدا ، بقطع الرأس .. فصور هذه الحركة من السلحفاة تصويرا متحركا جميلا .

ويقول فى وصف قثاء مرتجزا (٤) :

يارب قثاء برود المـــــورد در الحشا زمرد المجـــــرد

قد التوى فوق الثرى الرطب الندى كما تلوى أسود بأسود

---

(١) الوافى بالوفيات ٣ / ١٩٤

(٢) قراها : ظهرها . الترس ما يتوقى به من مجنات السلاح

(٣) الفهر : حجر يدق به . (٤) محاضرات الادباء ٢ / ٣٤٤

ذى زغب وفيه لين الا جـــــرد　　كا لخد بين الملثحى والأ ـــــرد

كأنه فى اللون والتـــــأود　　صوالج ركبن من زبرجـــــــد

يكاد للين وللتمقـــــــد　　تجنيه الحاظ الفتى قبل اليـــــد

ما ء كطعم السكر الطـــــــبرزد ى .

ويقول فى وصف الطيب (١) :

بخور مثل أنفاس الحبيـــــــب　　وطيب قد أخل بكل طيـــــــب

يظل الذيل يستره ولكـــــــن　　تنم عليه أزرار الجيـــــــوب

اذا ما شم أنف حن قلـــــــب　　كأن الا نف جاسوس القلـــــــوب

وما أحسن تصويره لتأثير الطيب فى النفس الآتى عن طريق حاسة الشم بجعل الا نف جاسوسا للقلب .

ويقول فى وصف الهريسة (٢) :

هل تنشطون لتورية خنقـــــــت　　من أول الليل حتى قلبها يجـــــف .

كأنها وهى فوق الجام قد غرقت　　فى د هنها قمر بالشمس ملتحـــــف

أو د رهم فوقه الد ينار منطبق　　أو لوح عاج على الزد ياب مكتتـــــف

وهو كما ترى من الوصف المتحرك . . فقد شبه تغطية القدر بالخنـــــق ، وحركة غطائه بخفقان القلب . .

ومن أجمل وصفه ، وصفه للحمى الذى ينحو فيه نحوا لمتنبى فى قوله :

وزائرتى كأن بها حيـــــاء　　فليس تزور الا فى الظـــــلام

---

(١) نفس المرجع السابق ٢١٢ ، حلبة الكميت ص ١٥٢ اليتيمة ٤/ ٢٣٩ مع اختلاف الترتيب

(٢) محاضرات الا د باء ١/ ٣٧٩

(٣) اليتيمة ٤/ ٢١٧

يقول الخوارزمى من قصيدة كتبها للصاحب (١) :

ولو أبصرت فى أرجان نفسى ... عليها من أبى يحيى ذمام (٢)

ولى من أم ملدم كل يوم ... ضجيع لا يلذ له منام (٣)

مقبلة وليس لها ثنايا ... معانقة وليس لها التزام (٤)

كأن لها ضرائر من غذائى ... فيغضبها شرابى والطعام

اذا ما صافحت صفحات وجهى ... غدا " ألفا " وأمسى وهو " لام "

اذا لرأيت عبدك والمنايا ... تصيح به " تنبه كم تنام " ؟

وما استبكاك من بعدى أسير ... يرض عظامه الحق المظام

ولا ترجيع ثكلى خلف نعش ... " أمحمول على النعش الهمام (٥)

ولا ترديد صب وهو باك ... سقيت الغيث أيتها الخيام

ولولا فقد وجهك لم أعبس ... على ضيف يقال له الحمام

فما العيش لولا أنت طيب ... ولا فى الموت لولا أنت ذام (٦)

فقد صور الحمى بامرأة تضاجعه ليلا ولكن لا يلذ له معها منام .. ومصور عدم شهيته للأكل والشرب أو للآلام التى تضنيه بعدهما .. وكأنها ضرائر لتلك المعشوقة ،

الغزل :

ما وجدت من شعر للخوارزمى فى هذا الغرض لا تجعله من المحبين المتيمين مع أن له فيه قطعا جيدة .. ولا ندرى هل جرب الخوارزمى الحب واكتوى بناره

---

(١) اليتيمة ٤/٢١٧

(٢) أبى يحيى — يطلق على الموت ، وذمام عهد ملزم : أساس البلاغه مادة "ذم"

(٣) أم ملدم : هى النعجو .

(٤) فى البلاغة : التزمه : أى عانقه . أساس البلاغه مادة " لزم "

(٥) التظمين للنابغة

(٦) ذام : من الذم

وقال شعره فيه عن تجربة ، أم أنه قاله مقلدا فحسب ، ولئلا يقال أنه قصر فى هذا الغرض ؟

وان كان لا يسلم من الحب أديب مرهف الحس راقى الذوق يعجبه الجمال ويستهويه ومن شعره فيه (١) :

وشمس ما بدا بالا أرتنـــــــا ... بأن الشمس مطلعها فضـــــــول

تزيد على السنين ضيا وحسنا ... كما رقت على العتق الشمـــــول

وليس له تجديد فى هذين البيتين سوى ما ذكره من أن هذه الجميلة تزداد حسنا مع الايام والمعروف أن المرأة كلما كبرت نقص جمالها .

ويقول من أخرى وهو وصف حسى .. يصور لنا فيه صورا رائعة من الجمال الفاتن (٢) :

جل من صور من ماء مهـــــين ... صورا تسبى قلوب العالمـــــين

وأرانا قضبا فى كثـــــــب ... تخجل الاغصان فى قد ولـــــين

وشفاها كحقاق أطبقـــــت ... من بواقيت على در ثمـــــين

بأبى من جدت بالنفس لـــــه ... وهو بالطيف على ضعفى ضنـــين

ذكره عندى مقيم راهـــــن ... وفؤادى عنده ثاو رهـــــين

ناعم ، بالوهم يدمى خـــده ... غير أن القلب صخر لا يلـــــين

ومثل قوله (٣) :

جلنار أم شقيـــــــق ... وجنتاه أم عقيـــــــق

وسيوف أم جفـــــون ... تلك أم خمر عتيـــــق

---

(١) اليتيمة ٤/ ٢٠٩ وخمس رسائل ص ٩١ ومن غاب عنه المطرب مخطوط ورقه ٩٠

(٢) بدائع الملح " مخطوط " ورقه ٤٤

(٣) نفس المصدر السابق ورقه ٦٨

برد فى الفم أم ثغـــــــــر ورىق أم رحيـــــــــــق
رشأ كلفنى فى حبـــــــــــــــه ما لا أطيـــــــق
فكأنى وهـــــــــــواه دقة الخصر الدقيـــــــق

وقوله (١)

وكم ليلة لا أعلم الدهر طيبهـــا مخافة أن يقتص منى لها الدهـــر
سهاد ولكن دونه كل رقـــدة وليل ولكن دون اشراقه الفجـــر
وسكر الهوى لو كان يحكيه لـــذة من الخمر سكر ، لم يكن حرم السكر
ولما أدارت مقلة جاهليـــــة هلاك امرىء فى ضمن ثوبى لها نذر
ومالت كأن قد سقيت خمر خدها وكيف يميل الخمر من ريقه خمـــر
حسدت عليها ناظرى اذ تحلـه كما تحسد الافلاك نعل " فناخسرو (٢)

وأغلب شعره فى الغزل ، من هذا القبيل الذى لا تشعر فيه بالعفاف والتصون ، بل نراه يهتم بالصفات الحسية للمرأة ويصورها فى صورة المتعة والجمال المحسوس ، وكأنه يصف بنات عصره اللاتى كن يحضرن مجالس اللهو والغناء .. ولا يميل الى العفاف الا حين يقلد الجاهليين فى غزلهم اسمعه يقول (٣) :

أغرك يوم البين منى تبســـمى فشيعت سهما فى فؤادى بأسهـــم
رويدك عهد القلب بالصبر بعدكم وحقك عهد الدار بالبرد فافهـــم
عذيرى من ضحك غدا سبب البكا ومن جنة قد أوقعت فى جهـــــنم
زعمت بأنى قد سلوت وهـــذه أراجيف من فى عزمه قتل مسلـــم
على ذا ، فدومى اجرمى وتجرمى وبكى وأبكى وأظلمى وتظلمـــى

---

(١) اليتيمة ٤/ ٢١١
(٢) فناخسرو : هو عضد الدولة ، انظر اليتيمة ٢/ ٢١٦
(٣) المضنون به على غير أهله ص ٢٦٥ ــ ٢٦٩ ونوادر الملح ورقة ٧٧

فانك لا ترين بيتا لشاعـــــر سوى بيت" من لم يظلم الناس يظلم"

تعلمت فعل الدهر ثم سبقتـــه فأنسانى التلميذ فعل المعلـــم

وواضح أنه يقلد بقصيدته هذه قصيدة امرئ القيس التى مطلعها

أفاطم مهلا بعض هذا التدلـــل * وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

ومعنى بيته الأول مأخوذ من قول امرئ القيس :

أغرك منى أن حبك قاتلـــى وأنك مهما تأمرى القلب يفعـــل

ولا يفوتنا ما فى هذه القصيدة من قوة السبك والالفاظ الجزلة وسمو المعـــنى .. وهكذا نجد الخوارزمى اذا قال على طريقة القدماء من الشعراء يجيد ويبـــرز لكثرة حفظه لأشعارهم ومطالعته لدواوينهم .كما نلاحظ عفته وخضوعه لمحبوبتـــه والخوارزمى يعد عفيفا فى غزله اذا ما قيس بمعاصريه من الشعراء ، واذا ما عرفنا أن عصره عصر مجون ولهو وغزل شاذ . ومن لطائفه قوله (١) وأستلحه أبو هلال وقـــال أظنه ما سبق اليه :

وقالوا أفق من سكرة اللهو والصبا فقد لاح صبح فى دجاك عجيـــب

فقلت لهم كفوا الملام وأقصـــروا فان الكرى عند الصباح يطيـــب

الفخر :

فى حياة الخوارزمى جوانب تشبه بعض جوانب حياة المتنبى ، فرغم أن البيئة التى عاش فيها وهى البيئة الفارسية ــ تضئل فيها شخصية الاديب أمام ممدوحه فان الخوارزمى حاول الخروج على هذ العرف ، ففخر بنفسه وفعاله .. وقد رأينا أمثلة ذلك فى نثره وسنرى أمثلة من شعره فى هذا الغرض .. ولعل هذا مـــن الاسباب التى جعلت كثيرا من وزراء عصره يناوئونه العداوة ، من ذلك قوله (٢) :

---

(١) ديوان المعانى ٢/ ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) حماسة الظرفاء ١/ ٥٣

وان أبصرتمونى فوق طـــــرف ... وفى يدى المهند تعرفونـــــى
تروا شيخا حرونا جاهليـــــا ... يلين جانب القرن الحـــــرون (١)

ويقول (٢)

زائركم يشكو ــ وقد جاءكـــــم ... غلظة بوابكم الخـــــادم
أنكرنى عنكم ــ على زعمـــــه ... فياله من عجب دائـــــم (٣)
لأننى بين بنى آدم ... مذ خلقوا أشهر من آدم

ويقول من أخرى (٤)

على الكف دين للأسنة واجـــب ... وللكأس طرق غيرها ومذاهـــــب
عجبت لموتور يبيت على القذى ... وفى الارض مركوب وسيف وصاحـــب

النصائح والحكم :

عاش الخوارزمى عيشة قاسية وقلما ساعدته الظروف وقرت به الاحوال فقد قضى حياته متنقلا فى البلاد ، وقد أجبرته ظروفه المادية والعائلية أن يتكسب بأدبه رغم عزة نفسه ، فمرة يلقى الاكرام والعطايا ، وأخرى يهان ويلقى به فـــى السجون .. وأحيانا تصادر أمواله .. ومرة يكون غنيا ثم لا يلبث أن يعـــود فقيرا .. كل هذا جعله كثير التجارب خبيرا بأحوال زمانه .. يعرف خبايـــا النفوس لكثرة مخالطته لطبقات الناس وقد جرب خيرهم وشرهم ، وذاق مر الحيـــاة وحلوها . فكان لهذه التجارب فى أدبه أثر تمثل فى تلك الحكم البليغة والنصائح الغالية ، منها (٥)

---

(١) الحرون : الثابت فى القتال (أساس البلاغة مادة (حرن)
(٢) مجلة الازهر مجلد ٣ ص ٣٣٨
(٣) فى المصدر أنكركم عنى .. ولا يتمشى مع معنى البيت التالى
(٤) بدائع الطلح ورقه ٨٢
(٥) كتاب الآداب "مخطوط" ورقه ٦١ تحفة الوزراء ص ١٧ ، ١٨ اليتيمة ٤/ ٢٤٠ التشبيهات والمحاضرة ص ١٢٤ على اختلاف بينها فى التقديم والتأخير أو النقص أو التغيير فى بعض الفاظها

ما أصعب الدهر على من ركبه ... حدثني عنه لسان التجربه

لا تشكر الدهر لخير سببه ... فانه لم يعتدك بالهبه

وانما أخطأ فيك مذهبه ... كالسيل اذ يسقى مكانا خربه

والسم يستشفى به من شربه ... وذا مفضل ، علا فى المرتبه

ما أهون الشوكة قبل الرطبة ... وأسهل الكد على من أكسبه

وما أجمل حكمته فى قوله (١) :

لا تفرطن فى حدة أعملتها ... فيكل ذاك الحد منك ويفشلا

أو ما ترى الصمصام والسكين ان ... زادا على حد الصقال تفللا ؟

ولـه (٢) :

لا تصحب الكسلان فى حاجاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد الى الجليد سريعة ... والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ونلاحظ أن الخوارزمى يطيل تعبيره عن المعنى الذى يريد حتى فى شعره ، فهو يريد أن يقول : لا تصحب الكسلان لانه يعديك بكسله ، ولو كنت نشيطا . والمعنى جيد ، ولكنه أطال ولم يكن ذلك لعدم ثقة بالسامع أو القارئ ليكرر المعنى ويوضحه ، ولكن ليزيده قوة ورسوخا فى الذهن خاصة وأن مهنته هى التعليم وحال المعلم مع تلاميذه الشرح والايضاح .

ويقـول (٣) :

سأقضى قضاء فى المروءة عادلا ... يساريه فى حكمة الشعر والادب

ألا خير سمار الملوك ذوو النهى ... وخير ندامى الكأس أربعة تحب

---

(١) اليتيمة ٤/ ٢٤١

(٢) نفس المصدر ٤/ ٢٤٠ وأعيان الشيعة ٥/ ٤/ ٢٦١ والتشبيهات والمحاضرة ص ١٢٤

(٣) برد الاكباد ١٣٤

ولـــــه (١) :

بقدر ما احتمل البختى قيمتـه ... ما يهسم الحرالا كثرة المـــؤن (٢)

وللمالى الى أبنائها رســـــل ... من التجارب فى طرق من المحـــن

ولـــــه (٣)

ومتى شتمت الدهر تشتم صابرا ... تبكى ويضحك ذلك المشتـــــوم

ويقـــــول (٤)

لا تغترر بالحليم تغضبـــــــه ... فربما أحرق الثرى الـــــــبرد

ويقـــــول (٥)

فتذل الرجال كذل النبـــــا ... ت لا للثمار ولا للحطـــــــــب

ويقـــــول (٦)

من أسخط الدرهم أرضى الله ... ومن أذل المال صان الجاهـــــا

وقولـــــــه (٧)

الدهر يستخدم من يخدم ... حتى يذيق الهون من يكـــــرم

كالارض لا تطعم من فوقها ... الا لكى تطعم من تحطـــــــم

---

(١) بدائع الطلح ورقة ٨٢

(٢) البختى مفرد بخت وهى الجمال الخراسانية (القاموس المحيط مادة (بخت)

(٣) اليتيمه ٤/ ٢٣٤

(٤) نفس المرجع ٤/ ٢٤١

(٥) المنتحل ١٣٦

(٦) أعيان الشيعه ٤٥/ ٢٦١

(٧) اللطائف والظرائف ص ٢٤

يقـــــــول (١) :

عليك باظهار التجلد للعدى ولا تظهرن منك الذبول فتحقـرا

ألست ترى الريحان يشتم ناضرا ويطرح فى الميضا اذا ما تغيرا .

---

(١) خاص الخاص ص ١٩٠ وانظر المرقصات والمطربات ص ٥٩

الشكوى :

وهى من الأغراض التى تعطينا فكرة عن نفسية الخوارزمى وتكشف لنا عن أخلاق أهل زمانه ، وما عاناه من أوضاع مجتمعه وتقلبات عصره .

يقـــــول (١) :

لم لا أجانس من هوى فى تقلبه ؟ لم لا أبادل انسانا بانســـــان ؟

لم لا أحاكى حبيبا فى مقالتـه ما اليوم أول تود يعى ولا الثانـــى ؟

لم لا أقارن ما قد قاله حســن وصلا بوصل وهجرانا بهجـــــران

فهو يحث نفسه على التقلب ، ويتساءل لماذا لا يجارى الناس فى نفاقهم وبناء الصداقات على المنافع وكأن نفسه تعصاه أن تعمل مثل هذا .

ويقول (٢) :

كفى حزنا أن لا صديق ولا أخا ؟ يفيد غنى الا يداخله كبـــــــر

والا التوى ، أوظن أنك دونـه وتلك التى جلت فما عندها صبر

فلا نال فوق القوت مثقال ذرة صديق ولا أوفى على عسره اليسر

وما ذاك الا رغبة فى وصالـــه والا حذارا أن يميل به الدهـــــر

وهو هنا يشكو من ظاهرة قد تكون فى المجتمعات الفارسية أظهر منها فـــى المجتمعات العربية ، تلك هى ظاهرة الكبر ، فمتى ما أغتنى الانسان شمخ بأنفه وظن أنه أعلى من غيره ، وتلك حالة لا يطيقها الخوارزمى لذلك دعا على أصدقائه واخوانه ألا يصلهم من المال الا مايكفى قوتهم ، ليس حسدا لهم ولكن خوفا من أن ، يصيبهم داء الكبر فيحول بينه وبينهم .

---

(١) تمام المتون ص ٢٥٤

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٢٩ ، ريحانة الالباء ٢ / ٣٦٦

ويقول (١):

خبت نار العلا بعد اشتعـــال ... وصاح الخير حتى على الـــزوال

عد منا الجود الا فى الامانـــى ... والا فى الصحائف والا مالـــى

فياليت الدفاتر كن قومـــــا ... فأثرى الخلق من كرم الفعـــال

ولو أنى جعلت أمير جيـــش ... لما حاربت الا بالســـؤال

لأن الناس ينهزمون منـــه ... وقد ثبتو الا طراف العوالـــى

وهى شكوى مصدرها بخل الاغنياء بأموالهم .. على أن ظاهرة السؤال فى ذلك الزمن واعتبارها أمرا لا غضاضة فيه تعد ظاهرة تكشف ما تعانيه الامـــة أو بعض فئاتها من الضيق وقلة ما فى اليد .

ويقول (٢):

تولى العيش وانقطع النظام ... وعاش اللؤم اذ عاش اللئـــام

وخلفنى الزمان على أنـاس ... اذا حكوا الكلاب فهم كـــرام

يكاد الدهر يشتمنى صراحا ... لو أن الدهر كان له كـــلام

فلولا أن أنازع حكم ربـــى ... لقلت فديت موتى والســـلام

وهى صرخة مرة ، وشكوى حزينة ، من الدهر وأبناء مجتمعه ، وما أكثر ما يشكو الخوارزمى من الدهر — ولا ندرى لماذا كل هذه الشكوى أضيق صدره وتبرمـــه من الحياة لأوهن الأسباب أم لضياع الاخلاق فى أهل زمانه ؟ أم هى ظروفه القاسية التى عاشها من قهر وفقر ؟

---

(١) نثر النظم ص٧٣ ، وبدائع الملح ورقه ٨٢ ولم يثبت صاحب بدائع الملح سوى البيتين الاخيرين وكذلك التوضيح فى شرح المقامات ص١٥٦ لم يثبت سوى البيتين الاخيرين

(٢) نثر النظم ص ٧٣

(٣) اليتيمة ٤/ ٢٣٦ ، وأعيان الشيعة ٤٥/ ٢٦١

المتاب :

لم يصلنا من عتابه الا النزر اليسير ، بعكس ما رأيناه فى نثره .. ولكنه من الاغراض التى أجاد فيها وتجلت فيها شاعريته الحقة ، من ذلك قوله لأحد تلاميذه :

هذا أبو بكر صقلت حسامه ... فغدا به صلتا علي وأقدما
أمسى يجهلنى بما علمته ... ويريش من ريشى لرميى أسهما
يا مفهضا قوسا بكفى أحكمت ... ومسددا رمحا بكفى قوما
أرقيت بى فى سلم حتى اذا ... نلت الذى تهفى كسرت السلما

ومن أرق معاتباته ـ والظن أنها موجهة للصاحب بن عباد (١) :

ألا من مبلغ الاستاذ أنى ... أنا الصمصام أغمده الحياء
أنجدب والصباخ لديك مرعى ؟ ... ونظماً والسراب لديك ماء ؟
يطرقنا الزمان وكل يوم ... لنا خطب حواشيها البكاء .
وكنت وعدتنا نظرا فأبطى ... وقد تتبلغ الا بل البطاء
فان عز القضاء لديك يوما ... فموجود لدينا الا قتضاء
ويرضى بالرجاء سواى قوم ... وما عندى لحكمهم ارتضاء
فان أخا الرجاء على يقين ... من البلوى وفى الفرج امتراء
وشر المرتجين أخو مطال ... يعمر فى جوانبه الرجاء
اذا أضحى فموعده مساء ... وان أمسى فموعده ضحاء
وهذا المتب واسطة ولكن ... لها طرفان مدح أوهجاء
وبين النجح والتعويق حد ... وقنطرة يقال لها السخاء

---

(١) نثر النظم ص ٤٠ وبعض أبياتها فى محاضرات الأدباء ١ / ٢٥١

فلا تشك القضاء فليس يشكـــو ... سيء نفسه أنت القضـــاء

أطال الله أعمار المعالـــى ... وذلك أن يطول لك البقـــاء

ولا زالت تمد اليك كف ... بضاعتها ثناء أو دعـــاء

وان رضى الزمان بمثل روحـــى ... فداء عنك فهى لك الفـــداء

الاعتذار :

حينما ترك الخوارزمى حضرة أبى نصر الميكالى وقصد طاهر بن محمـــد بسجستان وحصلت بينهما جفوة أخذه طاهر على أثرها وزج به فى غياهب السجن (١) كما مر معنا فشعر بالندم لترك حضرة الميكالى .. ولعله فارقه من غير اذنـــه أو وهو غير راض عنه .. وهذا ما توحى به هذه القصيدة الجيدة .. ونلاحظ أن شعره الذى وجهه الى أبى نصر الميكالى ، كله قوى سواء فى المدح أو الاعتذار.

يقول الخوارزمى (٢) :

كتابى أبا نصر اليك وحالـــتى ... كحال فريس فى مخالب ضميفـــم

أرق من الشكوى وأدجى من النوى ... وأضعف من قلب المحب المتيـــم

غدوت أخا جوع ولست بمائـــم ... ورحت أخا عري ولست بمحـــرم

وقمت بفخ الخوف فى يد طاهر ... وقوع سليك فى حبائل خثعم (٣)

فها أنا تحت الدهر أخلق من "قفا" ... ومن أم أوفى دمنة لم تكلـــم

وما كنت فى تركيك الا كتـــارك ... يقينا وراض بعده بالتوهـــم

وقاطن أرض الشرك يطلب توبـــة ... ويخرج من أرض الحطيم وزمـــزم

وذى علة يأتى عليلا ليشتفـــى ... بها وهو جار للمسيح ابن مريـــم

---

(١) أنظر اليتيمة ٤/ ٢٠٥ – ٢٠٦

(٢) نفس المرجع السابق ٤/ ٢٠٥ – ٢٠٦

(٣) يعنى سليك بن سلكه السعدى حين أسره أنس بن مالك الخثعمى

وراوى كلام منقض اثر (باقـل) ... ويترك قسا خائبا وابن أهـــتم

جناب تجنبناه ليس بمجـــــدب ... وبحر تخطيناه ليس بمـــرزم (١)

وماء زلال قد تركنا وروده ... زلالا وبعناه بشربة علقـــــم

ليست ثياب الصبر حتى تمزقـت ... جوانبها بين الجوى والتنـــدم

أظل اذا عاتبت نفسى منشـــدا ... " فهلا تلاحا ميم قبل التقدم " (٢)

وأنشد فى ذكرى لدارك باكيـا ... " ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم "

ولم أر مثلى من يحارب بختـــة ... ويشكو الى البؤسى افتقاد التنعم

ولا أحد يحوى مفاتيح جنـــة ... ويقرع بالتطفيل باب جهنـــــم

وقد كان رأسا للتدابير " بلعم " ... وقد صرت فى الدنيا خليفة بلعم (٣)

وقد عاش بعد الخلد فى الارض آدم ... فان شئت فاعذرنى فانى ابن آدم

فياليتنى أمسيت دهرى راقـدا ... فانى متى أرقد بذكراك أحلـــم

لغيرك دردي الوصال وشيب الـــ ... مقال وممزوج المودة فاعلـــــم

وأنت الذى صورت لى صورة المنى ... وأركبتنى ظهر الزمان المذمـــم .

وصيرت عندى أنحس الدهر أسعدا ... وكذبت عندى قول كل منجـــم

وصغرت قدر الناس عندى وطالمـا ... لحظت صغيرا عن حمالق معظم .

معارضات الخوارزمى :

يقول الثعالبى " حدثنى الخوارزمى قال :

حضرت مع الشيخ أبى الحسن النمرى دعوة .. فغنى القوالون بهذه الابيات :

---

(١) رزم الماء : اذا انقطع .

(٢) الشطر الاخير لقاتل طلحة رضى الله عنه يوم الجمل وصدره :
يذكرنى حاميم والرمح شاجر .

(٣) يعنى بلعم بن باعورا .. لأنه كفر بالله بعد تعلمه الاسم الاعظم وجحد نعم الله عليـــــه .

قم يا غلام الى المـــــدام　　قم دوانى منها بجـــــام

قم فاسقنى برق الثقـــــو　　رفقد مضى برق الغمـــــام

بادر الى صرف الحميـــــا　　سابقا صرف الحمـــــام

وتغنم الفلتات مـــــن　　دهر يجور على الكـــــرام

فاستلحها أبو الحسن وسألنى عن قائلها فأخبرته أنها لأبى الفرج الوأواء ،فأقترح علي معارضتها فارتجلت أبياتا :

لما بدت روح الضيـــــا　　* تدب فى جسم الظـــــلام

وغدت نجوم الليل وهـــــى تفر من حدق الانام

والديك يتلو دائمـــــا　　هجوا لنيام على القيـــــام

. . . . . .

لما رأيت الهم يطرق مـــــن أتاه بلا ســـــلام

نمت يزور فليـــس يـــأ　　كل غير لحمى أو عظـــــام

والدهر قد حمل السـلا　　ح على الكرام عن اللئـــام

داويته بالراح ان الـــــراح ترياق الكـــــرام(١)

وفى مناظرته للبديع معارضة له ولكنها لا ترقى الى الشعر الجيد (٢)

وأهم معارضاته معارضته للرستمى فى وصف دار الصاحب ، ومطلع قصيدة الرستمى :

نصبن لحبات القلوب حبائـــلا　　عشية حل الحاجبات حبائـــلا

ومنها : هى الدار أبناء الندى من حجيجها

نوازل فى ساحاتها وقوافـــــلا

---

(١) انظر اليتيمة ١/ ٢٩٦ — ٢٩٧

(٢) انظر رسائل البديع ص ٣٤

وقصيدة الرستمى هى أجود القصائد " الداريات" كما سماها الثعالبى وقد بلغ ما أورده الثعالبى منها ٤٦ بيتا . (١)

يقول الخوارزمى فى معارضته : (٢)

أكل بناء أنت بانيه معجز ... بنيت المعالى أم بنيت المنازلا ؟

فلا الانس تبنى مثلهن معالما ... ولا الجن تبنى مثلهن معاقلا

كنائس أضحت للغمام معائما ... علوا ، وأمست فى الظلام قناديلا

رحاب كأن قد شاكلت صدر ربها ... وبيض كأن قد نازعته الشمائلا

وبهو تباهى الارض منه سماءها ... بأوسع منها آخرا وأوائلا

وصحن يسير الطرف فيه ولم يكن ... ليقطعه بالسير الا مراحلا

تلوح نقوش الجص فى جدرانه ... كما زين الوشم الدقيق الأناملا

وماء اذا أبصرت منه صفاءه ... حسبت نجوم الليل ذابت سوائلا

رأيت سيوفا قد سللن على الثرى ... وصارت لها أيدى الرياح صياقلا

ورونق كعيش السائليك نضارة ... ووجهك بشرا حين تلحظ آملا

أصائله للنور أضحت هواجرا ... هو اجره للطيب أضحت أصائلا

هى الدار أضحت مطرح العالم فاغتدى ... لها ناهل الامال ريان ناهلا

اذا ما انتحاها المركب لم يتطلبوا ... اليها دليلا غير من كان قافلا

وأنت امرؤ أعطيت مالو سألته ... اليك قال الناس أسرفت سائلا

وانى والزامك بالشعر بعد ما ... تعلمته منك ، الندى والفواضلا

كملزم رب الدار أجرة داره ... ومثلك أعطى من طريقين نائلا

---

(١) انظر اليتيمة ٣/ ٢٠٩ — ٢١١ وانظر ترجمة الرستمى ٣ / ٣٠٤ وما بعدها من اليتيمة .

(٢) نفس المرجع ٤/ ٢١٧ ، ٢١٨

والقصيدة كما ترى فى الوصف ولكنى أخرتها لغرض المعارضـــــــــــة ، وقد أجاد فى وصف الدار وأصاب المعنى .. وفيها خيال جميـــــــــــــل وألفاظ مختارة ونرى فيها تعلق الخوارزمى بالبديع حتى فى شعـــــــــــره .. على أنها لا تفضل قصيدة الرستمى .

خصائص شعره الفنية :

أهم ما يلاحظه الدارس لشعر الخوارزمى كثرة تضميناته من الشعـــر ..

فأحيانا يضمن بيتا كاملا كقوله :

وقائع لو مرت بسمع ابن غالـــب لما قال ما بين المصلى وراقـــم

" أتتنى ورحلى بالمدينة وقعـــة لآل تميم أقعدت كل قائـــم"

فالبيت الاخير للفرزدق قاله حين سمعوهو بالمدينة مقتل قتيبة بن مسلم على يـــد ى وكيع بن أبى الاسود (١) :

وأحيانا يضمن شطر بيت وزيادة كقوله : (٢)

وتقول للخطاب غيرك ليس ذا وقت الزيارة فارجعى بســـلام

وهو من بيت جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بســـلام

وكثيرا ما يضمن نصف بيت وهو كثير جدا كقوله (٣) :

والتارك الترك والخذلان ينشـــد هم

يا بؤس للجهل ضـــرارا لأقـــوام

فالشطر الأخير للنابغة الذبيانى .

ويطول بنا الكلام لو تقصينا كل تضميناته وقد أورد الثعالبى كثيرا منها (٤) ولكثرة ما يضمن الخوارزمى شعره أبيات غيره قال فيه القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى !

---

(١) انظر اليتيمة ٤/ ٢١٧

(٢) نفس المرجع ٤/ ٢١٩

(٣) نفس المرجع ٤/ ٢١٦

(٤) انظر اليتيمه ٤/ ٢١٢ ــ ٢٢٢ وقصيدته فى وصف دار الصاحب كلها شواهد

لو نفضت أشعاره نفضـــــة لا نتشرت تطلب أصحابهـــا (١)

وهذا يرجع الى كثرة ما يحفظه من الشعر ، والى كثرة مطالعاته فى دواوين الشعر ، بما يقع فى شعره البيت أو الشطر من شعر غيـــــره دون أن يعمل فكـره فى استجلابه ، وانما طلبه المعنى .. ولا شك أن له حسن ذوق فى ايقاع تلك التضمينات مواقعها .

ورغم كثرة اطلاعه والمامه بشتى فروع علم اللغة العربية .. فان شعره ليس شعر الطبع والقريحة .. واجادته فى بعض قصائده آتية من فهمه للشعر وحفظه ولنضجـــه الثقافى ، ولتمييزه الجيد من الردىء من الاشعار ، كما سنرى ذلك فى نقده .

وأمر آخر جعل شعر الخوارزمى مقبولا وجيدا هو تزيينه اياه بالحكمة والمثل والتضمين والاقتباس الذى يأتى فى موضعه . وللخوارزمى شعر بارد لا يدل على شاعرية وذلك حين تخونه عاطفته ويخالف الصدق الفنى ،

كقوله فى الغزل (٢) :

ويامن لست أرضى قـــــط بما لبحر له قطـــــــــره

ولا أرضى له البـــــــدر على اشراقه غـــــــــره

ولا أرضى له الارض على فسحتها حجـــــــــره

ولا أرضى برزق الانـــــــــــــــس والجن له سفـــــــره

ولا أرضى له السعـــــــد غلاما والمنى ســـــــــخره

والا أرضى لـــــــــه الا بنفسى أمة حـــــــــــره

---

(١) تتمة اليتيمة ص ١٠

(٢) اليتيمة ٤/ ٢٣٧ — ٢٣٨

فهو كما ترى غزل بارد وكأنه تلك الرسائل المتكلفه التى يرادف فيها الجمل ويرصها رصا ، ولا يهمه منها الا أن تجيء على روى واحد .

وكقوله فى الحكم (١)

الملك عندى متعة الشبـــاب والعزل عندى فرقة الاحبـــاب

والفقر عندى عدم الشـــراب والشيب عندى كذب الخضاب

والقبح عندى عدم الآداب والعرس عندى ليلة الكتـــاب

وهو يستمر على هذا النحو فى أربعة عشر بيتا يكرر " عندى " مرتين فى كل بيت . ورغم ما فيها من حكم وبعض قيم عصره .. ورؤيته للحياة فانها لا يمكـــن أن تصدق عليها كلمة شعر ، ولو كانت موزونة ومقفاة .

وقد سجل عليه تلميذه الثعالبى بعض سقطات فى معانية كقوله من قصيدة فى الصاحب وقد أعتل (٢) :

نعوا لى نفسى المجد ساعة أخبروا بما يشتكى من سقمه وبمـــارس

قال الثعالبى : فان فى لفظة " النعى " ما فيها من الطيرة : اذ هى مما يقع فى المرثية لا فى العيادة " كما انتقده فى قوله فى الصاحب أيضا (٣)

ومهيب كأنما أذنب النـــا س اليه فهم مغشـــون ذلا

وظريف كأن فى كل فعـــل من أفاعيله عرائس تجلـــى

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر المرجع نفس ٤/٢٢٢

ويقول : " فان الكبراء والمحتشمين لا يوصفون بالظرف ، اذ هو من أوصاف الاحداث والقيان والشبان فلو مدح مغنثا لما زاد "(٢) .

كما أنتقد الجرجانى فى قوله : " والبغض عندى كثرة الاعراب " .

ذلك أن الاعراب لا يوصف بالكثرة والقلة . (٢)

ولكن كما يقولون : لكل جواد كبوة .. فلا يخلو شعر شاعر من هنات وعيوب ..

واذا قومنا شعر الخوارزمى وجدناه طبقتين :

جيدا وان لم يبلغ شعر الفحول .

ورديئا أو باردا وهو أقرب الى النظم منه الى الشعر وان كان قليلا . وقد أثبت فى رسالتى من شعره ما يشهد له بالاجادة ، خاصة فى الاغراض التى يتناولها وهو ملتهب العاطفة .. يقول عن معاناة وصدق ، كالرثاء والعتاب والاعتذار والوصف والشكوى .. فشعره فى جملته لا يقل عن مستوى شعر الكتاب المعاصرين له كالبديع والصاحب .. وغيرهم . بل يمكن أن نقول انه لا يقل عن شعر من عرف فى هذه الاقاليم فى هذا القرن . اذ أن هذه الاقاليم لم تحظ بشاعر مشهور كما حظيت باقى الاقاليم الاسلامية ولعل شعر الكتاب من المواضيع الجديرة بالدراسة

---

(١) ويمكن أن يكون الخوارزمى قصد أن يسيء الى الصاحب بعد أن تغير عليه فهو يعبر عما فى نفسه تجاهه . ويتمنى فى قرارة نفسه أن يكون كذلك . ويمكن أن يكون قصد فعلا أن الناس من خوفه يخشون ذلا .

(٢) انظر أسرار البلاغة ص ٦٦

الفصل الرابـــــع

الخوارزمى والنقـــــد

كان النقد فى القرن الرابع الهجـرى ، قد نضج ، وتخطى مرحلـــة التأثر الذاتى والنظرات السطحية العابرة ، والأحكام المجلى ، والحكم علـــى القصيـدة ببيت منها .. الى مرحلة التقعيـد ، والنظر المتأنى الدقيـــق ، وفى هذا القرن ، لابد لمن أراد مزاحمة فحول الأدباء على الشهرة والمكانـــة فى مجالس الوزراء ، من الالمام بقواعده وقضاياه .. وقد رأينا الخوارزمى يبـــذل فى سبيل ذلك أقصـى غايته ، يترك الأهل والوطن ويتكبد مشاق السفر ليتزود .. بشـتى علوم العربية ، وليحظى - لدى الولاة - بالمنزلة الرفيعة .. وقد نالهـا فلابد أنه دخل حلبة النقد ، وأسهم فيه بنصيب ، خاصة وهو أستاذ أبنـــاء الأمراء والرؤساء وأعيان البلاد . (١)

وقد جمعت بعض أقواله فى النقد ، ومع أنها لا تمثل النقد المنهجـــى الذى يعتمد على التحليل والتفسـير ، فانها لا تخلو من ذوق سليم وفهم دقيق للأدب - على أننى لا يمكننى الحكم على الخوارزمى الناقد بهذه اللمحـــات النقدية ، فقد يكون له مساهمة فى النقد تفوق ماعثرنا عليه أو لعله ألف فيه ولكـن لم يصلنا ما ألفـــه .

ومع ذلك فان هذه الآراء واللمحات تستحق منا الوقوف عندها ، وبيـــان قيمتها ، لأنها تكشف عن ذوق قائلها ، ومذهبه الأدبى ، وفهمه للأدب .

فنراه يرسم للشاعر طريق الاجادة بمطالعة دواوين فحول الشعراء ويدله على الأغراض التى أجاد فيها كل منهم واشتهر بها . ذلك أن من كانت لديـــه موهبة الشعر وطالع تلك الأغراض ، لابد أن يتأثر بها ويتمثلها فيقوى شعـــره

---

(١) أنظر رسائل الخوارزمى ص ٣١ وص ٥٤ على سبيل المثال ..

وتصفو قريحتـــه . الا أن يكون بليد الحـــس عديم الموهبة .. وذلـــــــك هو من دعا عليه الخوارزمى بألا يشـــب الله قرنه .

فهو يقول : " من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وأهاجى الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير وخمريات أبى نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ، ومدائح البحترى ، وروضيات الصنوبرى ولطائـف كشاجم ، (وقلائد المتنبى) ولم يخرج الى الشعر فلا أشب الله قرنه "(١)

بل أنظر اليه كيف يصور .. عظمة الشعراء ورفعة مكانتهم ، وكيف أنه يغفر لهـــم مالا يغفر لغيرهم . وفيه ايحاء للولاة والحكام بأن يكرموهم ويجلوهم ان أرادوا .. السمعة الطيبة والذكر الحســـن .

" وماظنك بقوم الاقتصاد محمود الا منهم ، والكذب مذموم الا فيهم ، اذا ذمـوا ثلبوا ، واذا مدحوا سلبوا ، واذا رضوا رفعوا الوضيع ، واذا غضبوا وضعوا الرفيع اذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ولم تمتد اليهم بالعقوبة يـــد ، غنيهـــم لا يصادر ، وفقيرهم لا يحتقر ، وشيخهم يوقر وحدثهم لا يستصغر ، وسهامهم تنفذ فى الاغراض اذا نبت السهام عن الاغراض ، وتصل الى البعيد كما تصل الى القريـــب ، شهادتهم مقبولة وان لم ينطق بها سجل ولم يشهد بها عـــــدل ، وسرقتهم مغفورة وان تجاوزت ربع دينار ولو بلغت ألف قنطار ، ان باعوا المغشوش لم يرد عليهم وان صارفوا الصديق لم يستوحش منهم . بل مـــاظنك بقوم هـــــم صيارفة أخلاق الرجال ، وساسرة النقص والكمال ، بل ماظنك بقوم اسمهم ناطـق

---

(١) أنظر ثمار القلوب ص ٢١٦ ومواسم الأدب ١/ ٩ ، وأنوار الربيع ٢/ ٣٨٢ ، ومقدمة فى صناعة النظم ص ٣٤ - ٣٩ وفنون الشعر فى مجتمع الحمدانيـــين ص ٤٩١ ولم يورد (قلائد المتنبى) سوى ثمار القلوب .

بالفضـــل ، واسم صناعتهم مشتق من المقل . بل ماظنك بقوم هم أمراء الكـــلام ، يقصرون طويلة ، ويخففون ثقيلة (ويقصرون مديده ، ولم لا أقول : ماظنـــــك بقوم يتبعهم الغاوون ، وفي كل واد يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون)[١] .

وما أحسن تشبيهه موهبة الشعر بالسـيل الزاخر الذى لا يمكن ايقافـــه فهو لابد واجد له منفذا . . وكذا الموهبة الشعرية لا يستطيع صاحبها ايقافهـــا أو كتمها . . فالشعر يفيض عن الشاعر بالقوة وفيه تحذير ضمنى لولاة ووزراء عصـــره من ألسنة الشـعراء .

فهو يقول : " والشعر مع الجود حيث كان ، ويرتاد المعروف والاحســان وانما هو مال سارب . بل سيل راعب ، اذا سد عليه طريقه خرقه فى الأرض خرقـــا وجعل لنفسـه طريقا . بل طرقا ، وما أشـبه من أكره الألسنة على مدحه الا بمن أكره القلوب على محبته "[٢] .

وهو يدرك تأثير البيئة الثقافية على أسلوب الشاعر وانتاجه ، يقول عن . . الشبيبى : " كان الشبيبى فى أيام شبابه بخوارزم يقول شعرا جاسيا كاشعـــار المولدين ، فلما عاشـر الناس ولقي الأفاضل لطف شعره . . "[٣] وأخـــذ على أبى تمام سوء المطلـــع اذ يقـــول : "ما أضيـــق خاطر أبى تمـــــام حيث قال : " قدك اتئـد أفرطت فى الغلواء " حتى كأنه لم يقع علـــــى أعلى من هذا الابتداء . . "[٤] .

---

(١) أنظر رسائل الخوارزمى ص ٨ وقد انفردت بالجملة الأخيرة (بين القوسين) ومطالع البدور ١/٢١٦ - ٢١٧ ، واللطائف والظرائف ص ٢٤ وأنوار الربيع ٢/٣٨٢ ، وروضات الجنان ٣٢٣ - ٣٠/٣٢٣ .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٧ والسيل الراعب : الذى يرعب بكثرته وسعته مجاز .

(٣) انظر اليتيمة ٤/٢٤٢ . . والجاسى اليابس الخشـــن .

(٤) رسائل الخوارزمى ص ٢٩ .

ويعيب على المتنبى قوله ... فى تعزية سيف الدولة عن أخته :

يعلمن حين تحيّا حسن مبسمها * وليس يعلم الا الله ما الشنب

انه يقول : " لوعزانى انسان عن حرمة لى بمثل هذا ، لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها "(١)

كما اعترض على قوله :

سقى الله أيام الصبا ما يسرها * ويفعل البابلى المعتق

فقال : " وكأنه قال : سقى الله أيام الصبا خمرا ... والخمر انما فرحها ساعة وطيبها مجاز لا حقيقة له ، مع بشاعة طعمها أولا ، وثقل خمرها ثانيا ".(٢)

ويعيب على المتنبى حتى خلقه والتناقض بين قوله وفعله ... كما يعيب عليه أنه يهدى كرائم شعره لمن لا يستحقه .. ويذم من مدحه .

كما ينعى عليه تكالبه على المال وعدم احترام نفسه وأدبه فهو يقول فيه : " ونظرت الى أبى الطيب والى تناقض حكمته وتفاوت طرفى فعلته حيث قال فى سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريما بعد رؤيته * ان الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال فى كافور الاخشيدى :

---

(١) نفس المرجع ص ٥٠ والتتيمة ١/ ١٨٣ - ١٨٤ ، والصبح المنبى ص ٢٣٠ والمهذب من أخبار ابى الطيب مخطوط ورقة ٥٨ .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٤٦ ، ٤٧ .

قواصد كافور توارك غـــــــــــيره * ومن قصد البحر استقل الســـــواقيا

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا واعتاض من الطمع ثمنا يســـيرا ، وحال ضباب الحرص والرجـــاء بينه وبين العهد والوفاء ، وكان . . يخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة على عرض من لا يساوى بـــعرة . . لو رأى الطمع فى جحر فأرة لدخلـــــــه ، ولو أتاه الدرهم من است كلب لما غســـله . فلا جرم أن الناس كما استحســـــنوا قوله استقبحوا فعله . وكما أعجبوا بشـعره تعجبوا من غدره . . يمدح ثم يهجـــو - ويشهد ثم يجرح شهادته . . وكم من عرض كساه ثم سلبه ؟

وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها ، ولكن فى قميص أبى بكر رجلا اذا . . أعطى لم يرتجع . . واذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم ، واذا طيّب فكيـــــه بالمدح لكريم لم يلطخهما بمدح للئيم "(١) . . وقد عاقب الله أبا بكر على قولـــه هذا فى المتنبى فلقى من أمراء ووزراء عصره مالقـــى المتنبى . . ولكنه فى الحقيقة بقي ملتزما بخلقه هذا فلم يهج من مدحه سوى ذينك البيتين اللذين قالهما فـــى ابن عباد ، ان صحت .

ولم يمدح الا خطيرا . وهذا مايدل عليه أدبـــه الموجود بين أيدينـــــا . وهو يداعب عمر بن أبى ربيعـــة المخزومى فى قوله :

ياأهل بابل مانفســـت عليـــــكم * من عيشكم الا ثلاث خصـــــــــال
ماء الفرات وطيـــب ظل بـــــارد * وسماع محســـنتين لابن هـــــــلال

فيقول له : " هلا حسد أهل العراق على المنصرفين والوافدين أو على الرطـــــب السابرى والتين الوزيرى والعنب الرازقى . .

وهلا حسدهم على أن الرأى كوفي والاعتزال بصرى !! والخط أنبارى والحساب سوادى والتشيع عراقى . . وما الذى خالفوا به الى أن حسدهم على ظاهر مشترك بـــين

---

(١) أنظر رسائل الخوارزمى ص ٤ ، ٥ .

سائر البلدان أوعلى قينتين كسائر القيان "[١] . على أنها نظرة مادية من الخوارزمى بل نظرة عالم لايهمه مايشعر به العشاق ، فالمخزومى عبر عن عاطفته ووفى المعنى حقه ومايهمه ماذكره الخوارزمى .. ولكن يلطف هذا روح .. الدعابة التى تظهر من كلام الخوارزمى .

ويقول فى بيت أبى العلاء السروى فى تقبيح النرجس :

كريـة ركبت عليهـا * صفرة بيض على رقاقـة

" أراد أبو العلاء أن يهجو فمدح وقصد أن يقبح فحسّن ، ولو تحا نحو وصفه مادحا لما زاد " [٢]

وكان اذا أنشد قول الصاحب :

أما تـرى كانون ينثـر ورده * وكأنما الدنيا سبيكة فضـة

قال : هذه الثلجيات عيال على قول الصنوبرى :

ذهب كئوسك ياغـلا * م فانه يـوم مفضـض [٣]

وهذا معناه أن الصاحب سرق المعنى من الصنوبرى .. وهو دليل على جودة حفظ الخوارزمى وتمييزه بين الجيد والردىء من القول فى المعنى الواحد . ولذلك امتدح شعر أبى طالب الرقى مع قلته لاجادته فيه ، فالجودة عنده هى المقياس ، اذ قال فيه : " انه أحد المقلين المحسنين الذين يطبقون المفصل فى أغراضهم وينظمون الدر المفصل فى معانيهم وألفاظهم "[٤] .

---

(١) أنظر رسائل الخوارزمى ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) تحسين القبيح مخطوط ورقة ٣١٠ .

(٣) اليتيمة ٣/٢٦٥ .

(٤) نفس المصدر ١/٢٩٨ .

وهو لهذا السبب عاب شعر البديهي مع كثرته اذ يقول فيه :

" انه كان لا يرجع من البديهة التي انتسب اليها وتلقب بها الا الى لفظة الدعوى دون حقيقة المعنى .. قال شعرا كثيرا لمدة في زمان طويل المدة فلم يستملح له الا هذا البيت :

أتمنى على الزمان محالا * أن ترى مقلتاي طلعة حر (١)

ويدرك أثر الدربة والممارسة في جودة الشعر وقوته ، فيقول في الوأواء الدمشقي : "كان الوأواء مناديا في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه ، ومازال يشعر حتى جاد شعره ، وسار كلامه ووقع فيه مايروق ويشوق ويفوق حتى يملو الصدور" (٢)

وكان من شدة اعجابه وفهمه للشعر الجيد ، أن يحسد قائله ويتمنى لو أنه له ، إسمعه يقول : " أنشدني الصاحب نتفة له منها هذا البيت لئن هو لم يكفف عقارب صدغه * فقولا له يسمح بترياق ريقه

فاستحسنته جدا حتى حسدت من حسدني له عليه ، وودت لو أنه لي بألف بيت من شعري " (٣) .. واذا كان قول الخوارزمي هذا ليس فيه مبالغة ومجاملة للصاحب فما قيمة شعره بعد حكمه هذا ؟

ويقول عنه الثعالبي : " كان الأستاذ الطبري يطرب على قول السري :

ومن وراء سجوف الرقم شمس ضحى * تجول في جنح ليل مظلم داجي
مقدودة خرطت أيدي الشباب لها * حقين دون مجال العقد من عاج (٤)

---

(١) نفس المصدر ٣/٣٤٣.
(٢) نفس المصدر ١/٢٨٨ وأنظر " الأمير سيف الدولة الحمداني ص ٢٩٦.
(٣) أنظر اليتيمة ٣/٢٧٩.
(٤) أنوار الربيع ٤/٩٥ ، وخمس رسائل " ص ١١١.

ويبلغ به التأثر فى بعض الأحيان ، أن يستسلم للبكاء فهو يقول : " ربما أريد البكاء فى بعض مواطنه فيمتنع علي ، فما أنا الا أن أنشد أبيات أبى الطمحان القينى " فيما بينى وبين نفسى حتى ينحل عقد الدمع .

ألا عللانى قبل صدح النوائح * وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح
وقبل غد يا لهف نفسى على غد * اذا راح أصحابى ولست برائح
اذا راح أصحابى تفيض دموعهم * وغودرت فى لحد عليّ صفائحى
يقولون هل أصلحتم لأخيكم ؟ * وما اللحد فى الأرض الفضاء بصالح (١)

وله آراء فى بعض أبيات شعراء عصره .. هي أقرب الى طريقة القدماء من النقاد العرب .. ولكنها تدلنا على ذوقه ومشاربه ، وبعض مظاهر عصره .

فهو يقول : " لعلي أحفظ فى هجاء المغنين أكثر من مائتى بيت ليس فيها أبدع وأوجز من قوله : " يعنى منصور الفقيه المصرى " .

ومغن بارد النغمة مختل اليدين * ما رآه أحد فى دار قوم مرتين (٢)

ويقول : " غرر البحترى ووسائط قلائده وآيات قصائده أكثر من أن تحصى ، وعندى أن أفصح أبياته وأبلغها وأجمعها للكثير من المعانى فى القليل من الألفاظ ، قوله فيمن يرضى بعد السخط ، وفى نفسه بقية من العتب :

تبلج عن بعض الرضى وانطوى على * بقية عتب شارفت أن تصرما (٣)

أو يقول : " عجبت لمن لا يرقص اذا سمع بيتى البحترى :

---

(١) من غاب عنه المطرب : " مخطوط " ورقة ٣٨ ، وبلوغ الارب ٣/ ١٢١ وقد ا.. بالبيت الأخير .
(٢) أنظر الاعجاز والايجاز (مخطوط) ورقة ٦٨ - ٦٩ .
(٣) نفس المصدر ورقة ٦٢ .

يذكرنيك والذكرى عناء * مشابه فيك طيبة الشكول

نسيم الروض فى ريح الشمال * وصوب المزن فى راح الشمول

فهما يطربان غاية الاطراب * ويذكران غدر الشباب وغدر الاحباب (١)

ويقول : " أمير الشعراء المصريين أبو الطيب وأمير شعره قصيدته التى أولها :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى * وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وأغزل بيت للمصريين قوله :

قد كنت أشفق من دمعي على بصرى * فاليوم كل عزيز بعدكم هانا (٢)

ويقول : " أغزل المصريين السرى فى قوله :

قسمت قلبى بين الهم والكمد * ومقلتى بين فيض الدمع والسهد

ورحت فى الحسن أشكالا مقسمة * بين الهلال وبين الغصن والعقد

أريتنى مطرا ينهل ساكبه * من الجفون ورقا لاح فى برد

ووجنة ليس يروى ماؤها ظمئى * بخلا وقد لذعت نيرانها كبدى

وكيف أبقى على ماء السنين وما * أبقى الغرام على صبرى ولا جلدى (٣)

ويقول : " من أراد أن يسمع مايقطر منه الظرف فلينشد قول محمد بن محمد اليزيدى فى تحسين الفراق :

ليس عندى شحط النوى بعظيم * فيه غم وفيه كشف غموم

من يكن يكره الفراق فانى * أشتهيه لموضع التسليم

ان فيه اعتناقا للوداع * ورجاء اعتناق لقدوم (٤)

---

(١) من غاب عنه المطرب " مخطوط " ورقة ٨ .

(٢) خمس رسائل ص . ٧٤ .

(٣) من غاب عنه المطرب " مخطوط " ورقة ٢٦ - ٢٧ .

(٤) تحسين القبيح " مخطوط " ورقة ١١٣ - ١١٤ . هذا فى المخطوط

ويقول الثعالبي : " كان أبو بكر الخوارزمي أنشدني لنفسه يسيرة من شعر أبي محمد (الخازن) كقوله في وصف غبار الركب - وذكر أنه لم يسمع في معناه أملح منه وأجمع لأقسام الحسن والظرف :

ان هذا الغبار ألبس عطفي سوادا ودين التوحيد
وكساها عارضيّ ثوب مشيب ورداء الشباب غض جديد (١)

ويقول الخوارزمي : " أحسن ماقيل في مدح النساء قول الشاعر :

ونحن بنو الدنيا وهن بناتها * وعيش بني الدنيا لقاء بناتها

وأبلغ ماقيل في ذمهن :

ان النساء شياطين خلقن لنا * فكلنا يتقي شر الشياطين (٢)

ويقول : " لم يسمع في الاستهانة بالحبس والتجلد على عقوبة السلطان أحسن .. وأكذب من قول بعض الاعراب :

وما السجن الا ظل بيت سكنته * وما السوط الا جلدة وافقت جلدا (٣)

ومما يدل على فهم الخوارزمي لعلم النقد واشتغاله به ، كثرة ماروه عن غيره من العلماء أمثال : محمد بن يزيد النحوي والحسن بن علي المهدي والمبرد ، ومحمد ابن اسحاق البغوي ، ومحمد بن رستم ، وأبو الحسن الأسدي ومحمد بن السخي ، وأبي الحسن الانصاري ، وأبي أحمد محمد بن موسى البريدي ، ومحمد بن أحمد أبو العيناء .. وقد اعتمد المرزباني (ت ٣٨٤) في كتابه الموشح كثيرا على هذه الروايات في ما أخذه العلماء على الشعراء (٤) وان كان نقد المرزباني في موشحه يعد من النقد اللغوي .

---

(١) اليتيمة ٣/٣٢٩ .
(٢) ثمار القلوب ص ٢٧٠ .
(٣) تحسين القبيح " مخطوط " ورقة ١١٠ .
(٤) أنظر الصفحات ٢٠، ٣٧، ٥٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٨، ١٤٢، ١٦٤، ١٧٨، ١٧٩، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٨، ٣٠٥، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٥ . وهو يسميه بمحمد بن العباس (أبو بكر) فقط .

الفصل الخامس

(مكانته وموازنته بأدباء عصره)

احتل الخوارزمي في القرن الرابع الهجري مكانة عالية بين الأدباء ، وخاصة في شرقيّ الدولة الاسلامية ، ولم يكن عصره عصر ركود في الأدب أو قلة في الأدباء حتى يقال : انّما احتل هذا المركز لقلة المنافسين ، وعدم وجود الفحول الكبار بل كانت الفترة التي عاشها الخوارزمي من أزهى عصور الأدب العربي .. سواء من حيث التأليف والانتاج ، أو من حيث ظهور عدد كبير من أعلام الأدب نثره وشعره .

هذا ما يشهد به له معاصروه ومن بعدهم ، كالثعالبي (١) ، والصفدي (٢) وابن العماد (٣) وغيرهم .. كما سنرى .

وما بين أيدينا من نتاجه - وهو ديوان رسائله وما جمعته من شعره ، وكتاب الأمثال - لا يؤهله لكل هذا الاطراء الذي سجله له المؤرخون وكتاب التراجم ، فرسائله في جملتها - لا تعدو أن تكون رسائل اخوانية في أغراض شخصية تطغى عليها الصنعة البديعية ، وشعره الموجود بين أيدينا - رغم اجادته في بعض قصائده - لا يرقى الى مستوى شعر الفحول من الشعراء ، وكتاب الأمثال ليس له فيه سوى مقدمته الرائعة التي مرت معنا ، والباقي انما هو جمع وتنسيق ، ولكنه يدل على سعة اطلاع وقوة حافظة .. وربما يكون له انتاج غير ما وصل الينا ، أو أن هؤلاء الذين أشادوا بأدبه ومنزلته قالوا ذلك بناء على مقاييس عصرهم حيث كانت البراعة والاجادة في الافتنان في المحسنات البديعيّة (٤) ، واستخدام لغة الشعر ، وخياله في تلك الرسائل الاخوانية

---

(١) انظر اليتيمة ٤/١٩٤ (٢) انظر وفيات الأعيان ٤/٤٠١

(٣) انظر شذرات الذهب ٣/١٠٥ (٤) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٢

والميل الى الأسلوب الفكه السهل المحلى ارضاء للذوق العام الذى يغلب عليه الطابع الفارسى (١) فى تلك الأقاليم .. بالاضافة الى أن الأدب أصبح حرفة يرتزق منها الأديب وندر من شذ عن هذا النهج .

أقول لعل الخوارزمى انما أشتهر من أجل هذه الاعتبارات التى تساير أذواق وميول عصره .. على أنه قد أدرك أن هذا ليس هو الأدب الجاد الرفيع .. ولكنه أراد أن يشيع وينفق أدبه ، ولن ينفق الا اذا جارى هذا الاتجاه .. فلما أصبح هذا الأسلوب مسلما به ، يرضى أذواق الناس .. حكموا له بالاجادة والتقدم لأنه أرضاهم .. وهذا ما أشار اليه الخوارزمى فى قوله : " ونحن نتعذر اليك من الحاجة الى جمع هذا الكتاب عليه من أجل أهل الزمان ، وخدم السلطان من الميل الى الأدب الرطب لسهولته ، والنفور من الأدب اليابس لوعورته .... وانما الأدب لسان ، واللسان آلة ، والآلة تنفق بطلب الطالب لها ، ورغبته فيها ، كما تكسد برغبته عنها ، وانزوائه منها ، فالمهمل اذا احتيج اليه مستعمل والمستعمل اذا استغنى عنه مهمل .... والسلطان متصرف على حكم حاشيته وبطانته ، وناظر بأعين كفاته وكتابه ، وجلهم بل كلهم مائل عن موارد الجد الى حلاوة الهزل ، يستبشع الاعراب ويلعن الأعراب (٢) ولم ينل كل هذه المكانة بما ألفه وحسب - كما سبق أن ذكرت . ولكنه نالها - فيما يبدو - ببلاغته وبيانه وفصاحته وقوة حفظه وتبحره فى علوم العربية .. وبما يلقى من محاضرات ويعطى من دروس . وتلك المحاضرات لم تجمع وتدون . ومهنة التدريس ، وحضور مجالس الوزراء والولاة ، واشتغاله بالقاء المحاضرات هى التى شغلته عن التأليف ، واستنفدت منه طاقته .. ولو تجه للتأليف . كما فعل تلميذه الثعالبى - لكان لنا منه ذخيرة طيبة بالقياس الى ما أودعه كتابه الأمثال .. لسعة اطلاعه وتضلعه فى اللغة وآدابها .. ولما اكتسبه من رحلاته المتعددة ولاحاطته بالتراث العربى القديم ، ولمصاحبته كبار العلماء والأدباء فى عه

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٥٠٢

(٢) مقدمة كتاب الأمثال ورقة ٣

فمن ترجم له ـ اذا ـ لم يحكم له بما ألفّه فقط ، وانما حكم له بما هو عليه من الفضل والتقدم في صناعة الرسائل ، وبما يتحلّى به من أدب ، ومعرفة ظهرت لأبناء عصره من خلال تدريسه ومحاضراته ، ومناقشاته .

يقول فيه تلميذه الثعالبي : " باقعة الدهر وبحر الأدب وعيلم النثر والنظم ، عالم الفضل والظرف ، وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب وأيّامها ودواوينها ، ويدرّس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ، ويأتي بكل فقرة ودرة ، ويبلغ من محاسن الأدب كل مبلغ ، ويغلب على كل مجلس بحسن مشاهدته وملاحة عبارته ، ونفحة نفسه ، وبراعة جده وهزله "(١) .

ويقول عنه ابن خلكان : " أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير ، كان اماما في اللغة والأنساب وكان مشارا اليه في عصره "(٢) ويقول عنه الحاكم صاحب كتاب " تاريخ نيسابور " : " اجتمعت معه بنيسابور وبخارى ثم جائنا الى (نساء) وقلما اجتمع معي الا ذكرني بالأسامي والكنى والأنساب حتى يحيرني بهذه الأنواع وكان واحد عصره في حفظ اللغة والشعر وكان قريضه يقصر عن شعره "(٣) .

ويقول عنه صاحب كتاب " احكام صنعة الكلام : " ان أبا بكر من أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر . . . وسأثبت له في هذا الكتاب ما يشهد بأنه من علية العلماء والكتاب "(٤) .

ويقول عنه معاصره التوحيدي : " كان الخوارزمي من أفصح الناس ما رأينا في العجم مثله ، وكان الظاهر أن الصاحب انما يحطه لأدبه ويجيزه لشعره ويصطفيه لفضله "(٥) .

ومن آراء المحدثين فيه : ـ يقول زكي مبارك : " شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس مدة أجيال "(٦) .

---

(١) اليتيمة ٤/١٩٤ ، وانظر أعيان الشيعة ٤٥/٢٥٨ ، ٢٥٩ نقلا عن شرح تاريخ الحاكم لمحمود بن عمر النيسابوري .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٤٠١ ، وأنظر روضات الجنات ٢/٢٤ ، وشذرات الذهب ٣/١٠٥ وطبقات النحاة ٥/١٣٥ ، اللباب ص ١٧١ ومرآة الجنان ٢/٤١٦ .

(٣) نقلا عن الأنساب للسمعاني ٥/٢١٣ .

(٤) احكام صنعة الكلام ص ١٢٤ (٥) مثالب الوزيرين .

(٦) مجلة المجمع العلمي بدمشق م ٢٣ ص ٣٤٥

(٦) النثر الفني ٢/٣٥٩

ويقول محمد كرد على : " كان بما أتقن من علوم الآداب آية فى فنه ، ومع أنه جرى طلقا مع عاطفته ، فقد كانت رسائله مما يتعلم منه وقليل فى حملة الأقلام من جود تجويده "(١) .

ويقول فيه أحمد أمين " رحل كثيرا الى الأقطار ، وعدّ شيخ الأدباء واعترفت له الأقطار المختلفة بالفضل والبلاغة "(٢) .

وفيه يقول آدم متز : " كان أبوبكر الخوارزمى أشهر كتاب الرسائل الاخوانية وقد ظل زمانا طويلا أكبر كتاب العرب "(٣) .

ويقول شوقى ضيف : " كان الخوارزمى من كبار الأدباء فى عصره وكان أستاذا كبيرا أشتهر بالبلاغة والبيان "(٤) .

ويقول عباس طه فيه : " الأستاذ الكبير والعلامة الخطير . . ظهير الأدب وظهره من علق ذكره بمناط الجوزاء . . الشاعر الذى لا يطاول والناثر الذى لا يبارى ولا يجارى "(٥) .

ويقول زكى مبارك عن نبوغه الأدبى : " ان له بلاغه خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبى هو ذلك . . . . فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ ، ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ، ويحسون فقده ان حجب عنهم فيضه النمير "(٦) . .

هذا مجمل لآراء الكتاب قدماء ومحدثين — فى مكانة الخوارزمى وهى كما رأينا تجعله من الطبقة الأولى ، وتشهد له بالبراعة والتقدم ولكن الشئ الذى لم يتعرض له هؤلاء الكتاب والذى يهمنا أكثر هو موازنته بغيره من أدباء عصره . . فلم يكد معاصروه من النقاد والأدباء لموازنوا بين كتاب ذلك العصر أو يقسموهم الى طبقات ليتضح الفاضل من المفضول بل كان اهتمامهم بالشعر أكثر من اهتمامهم بالنثر . ولعل

---

(١) مجلة المجمع العلمى بدمشق م ٢٣ ص ٣٤٥ (٢) ظهر الاسلام ٢/٩٧

(٣) الحضارة الاسلامية ١/٤٥١ (٤) الفن ومذاهبه فى النثر ٢٣٢ — ٢٣٥

(٥) مجلة الأزهر جزء ٣٠ السنة الرابعة والثلاثون أكتوبر ١٩٦٢ م

(٦) النثر الفنى ٢/١٥٩ .

لنقاد العصور السابقة لعصر الخوارزمى الحق فى الاهتمام بالشعر أكثر من اهتمامهم بالنثر ، لأن الشعر فى تلك العصور مقدم على النثر وله فى نفوس القوم المكانة الأولى أما فى القرن الرابع فقد توازنا فى المنزلة والمكانة بل لقد فضلوا النثر على الشعر ، خاصة فى المشرق وجعلوا منزلة الأدباء فوق منزلة الشعراء لأنهم أدركوا الدور الذى يلعبه الكتاب فى الساحة الأدبية والسياسية والاجتماعية وهذا ما يعرب عنه الثعالبى أحد نقاد تلك الفترة بقوله :

" ولم تزل طبقة الكتاب مرتفعة على طبقات الشعراء فان الكتاب ـ وهم ألسنة الملوك ـ انما يتراسلون فى جباية خراج أو سدّ ثغرة أو عمارة بلاد أو اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء الى ألفة ، أو نهي عن فرقة أو تهنئة بعطية ، أو تعزية فى رزية ، أو ما شاكل ذلك من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشئون التى يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مغنية وقد وسمتهم خدمة الملوك شرفها ، وبوّأتهم منازل رياستها ، وأخطارهم عالية بحسب علو الحظ مما يفيضون فيه ويذهبون اليه .

والشعراء انما أغراضهم التى يرمون نحوها وغاياتهم التى يجرون اليها ، وصف الديار والآثار ، وذكر الأوطان والحنين الى الأهواء .

. . . ومعاداة الكتاب ليست من أفعال ذوى الألباب ، وان مجاراتهم (١) ندامة ، ومسالمتهم سلامة ، ومصادقتهم فائدة . . . وما ظنك بقوم يملكون أزمّة المنى والمنايا " (٢)

ومن الملاحظ أن الثعالبى خلط بين أغراض الشعر وأغراض النثر فقد نزع بعض أغراض الشعر وأعطاها للنثر وهو ما كان عليه أدباء ذلك العصر حيث استخدموا أغراض الشعر وخياله ولغته فى النثر الفنى . .

---

(١) كذا بالأصل ولعل صحتها " مماراتهم " .

(٢) نثر النظم ص ٣ ـ ٤ .

ونعود فنقول : إنه بالرغم من حكم النقاد للكتّاب على الشعراء ، فانهم لم ينالوا منهم العناية التي نالها الشعراء من دراسة وافية لنثرهم أو موازنتهم ببعضهم . ولو فعلوا لقدموا للأدب خدمات جليلة ولأفادونا فائدة عظمى ، لأنهم أعرف بهم لمعاصرتهم إياهم ، ولسبب آخر منهم هو أن انتاجهم كان بين أيديهم كاملا . بعكس من يتعرض لموازنتهم في الوقت الراهن . . فلم يصلنا انتاجهم كاملا ، وبعضهم لم يبق لنا من انتاجه سوى شواهد فقط كابن العميد (١) .

ومن يتصدى للموازنة بين أديبين أو أكثر فأهم ما يملك للحكم عليهم هو انتاجهم الأدبي .

واذا رجعنا الى ترجمة أولئك الأدباء في كتب معاصريهم ، لنوازن بينهم منها ، لا نجد ما يدلنا على هذا الغرض . . فالثعالبي اذا ترجم لأحدهم كال له من المدح والاطراء ما يظنّ معه أنه يفضّله على غيره ، فاذا انتقل الى ترجمة آخر ، أعطاه نفس الصفات أو زاده عليها . . فقد مرت بنا ترجمته للخوارزمي . . التي توحي بأنه يقدمه على غيره من أدباء عصره .

ولكننا حين نقرأ ترجمته لكاتب آخر يتغير رأينا فيما ظنناه أو نحتار فيمن هو أفضل من الآخر عنده . فهو يقول في بديع الزمان الهمذاني مثلا :

" . . معجزة هذا ان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرر النظم ونكته " (٢) .

ويقول في الصاحب : " ليست تحضرني عبارة أرضاها للافصاح عن علوّ محله في

---

(١) انظر النثر الفني ٢/٢٤٦ (٢) اليتيمة ٤/٢٥٦

العلم والأدب . . . . بلغ من البلاغة ما يعد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ونظم نا يحيتى الشرق والغرب " . (١)

ويقول عن القاضى الجرجانى على بن عبد العزيز : " حسنة جرجان وفرد الزمان وانسان حدقة العلم ودرة تاج الأدب وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة الى نثر الجاحظ ونظم البحترى ، وينظم عقد الاتقان والاحسان فى كل ما يتعاطاه " (٢) . . وكأن الثعالبى ألهاه اصطياد السجع عن تحرّى الصفات التى تميز كل كاتب عن الآخر ، أو لعله لم يقصد أن يوازن بينهم . . وانما أراد بيان فضل كل منهم . . وهم لا شك أهل فضل ومنزلة لا تنكر . فأضفى على كل منهم من هذه الصفات التى تصدق على الكل .

وكما لم يوازن النقاد والمؤرخون القدامى بين أولئك الكتاب فعل نفس الشئ كتابنا المعاصرون الذين تجنبوا الخوض فى هذا المضمار . . . فلم أجد منهم من حاول مثل هذه المحاولة . . مع قيمتها . . وحتى زكى مبارك حين درس النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى دراسة وافية ، لم يشأ أن يطرق هذا الموضوع مع أنه خير من كتب عن النثر فى هذه الفترة . . وأكتفى بأن قال فى مجال الموازنة : " الكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذى يمتاز أسلوبه ، وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه ، وكذلك كان الخوارزمى . فهو فى نثره عقل قوىّ يمتاز عن العقول التى سبقته أو عاصرته ، وليس معنى ذلك أنه يفوقها جميعا ، فهو دون ابن العميد فى سمو الغرض ، ودون بديع الزمان فى حلاوة التعبير ودون التوحيدى فى وفرة المحصول " . (٣)

وليس معنى انتقادى للمؤرخين والكتاب قدماء ومعاصرين فى عدم التعرّ

---

(١) نفس المرجع ٣ / ١٩٢ — ١٩٣ (٢) نفس المرجع ٤ / ٣

(٣) النثر الفنى ٢ / ٣١٦ .

لهذه الدراسة أننى سوف آتى بما لم تستطعه الأوائل ، فانى أدرك صعوبة هذه الدراسة وتشعبها وما تحتاجه من جهد كثير ودربة ودراية بأدب العصر وأدبائه ، ولكنى أردت أن أبين أهمية هذه الدراسة وما تستحقه من عناية الدارسين وهى محاولة رائدة وجيدة لمن أراد افرادها ببحث خاص اذ هى تصلح أن تكون رسالة بذاتها وهى تختلف عن موازنة الشعراء لوجود مقاييس للشعر يمكن موازنة الشعراء على أساسها .

وسوف أقصر القول فى موازنة الخوارزمى بغيره من أدباء عصره على ثلاثة من أعلام هذ العصر هم : ابن العميد والصاحب وبديع الزمان وماسوف أصدره من أحكام انما هى انطباع شخصى لقراءتى لبعض انتاج هؤلاء الأعلام ، وسوف أوازن بين هؤلاء من حيث .. وفرة المحصول ، والجودة الفنية ، ومن حيث المكانة الأدبية التى حققها كل منهم —

الخوارزمى وابن العميد :

لا نعرف من انتاج ابن العميد الا ديوان رسائله الذى يذكر بروكلمان أنه مخطوط فى بوهار — ٤١٢ ، وفى (أمبروزيانا) ١٢٥ — وفى مكتبة سليمان (١)

ولذلك فالخوارزمى يتقدمه من هذه الناحية الكم ، اذ أن له ديوان رسائل وديوان شعر وكتابا فى الأمثال ... بالاضافة الى الكتب التى نسبت اليه والكتب التى لا تزال مخطوطة ، ورجحنا أنها له والتى ذكرت له ولم نعثر عليها .

وأما من حيث الجودة الفنية والقيمة الأدبية والعلمية فيمكننا من خلال ما وجدنا لابن العميد من رسائل وقصائد متفرقة — أن نقول : ان نثره كان قويا محكما وقد تماثل فيه فن التصنيع لأنه احتكم الى السجع والبديع .. وهو يهتم فى كتابته بالأمور الوجدانية والعقلية ولم يجعل اهتمامه منصبا الى الضمة البديعية وحدها ولعل رسائله الديوانية

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١١٩

أقوى من رسائله الاخوانية فقد روى عن أحد الخارجين ـ وقد وجه اليه ابن العميد رسالة تهديد ـ أنه قال : " لقد ناب كتابه عن الكتائب فى عرك أديمى واستصلاحى وردى الى طاعة صاحبه "(١) ـ وكان يدعى الجاحظ الأخير(٢) .

وكان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد " .

ويصف زكى مبارك نثر ابن العميد بأنه ليس زخرفا براقا ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب(٣) .. ويقول عنه آدم متز : " انه كان من الكتاب الذين يتركون السجع ويتجنبونه "(٤) .

ولكن مابين أيدينا من نثره ليس كما قالوا فهو يلتزم الأسلوب المسجوع المحلّى بأفانين البديع .. ولذلك عدّ مؤسس مدرسة التصنيع(٥) ـ التى تخرج فيها الصاحب والخوارزمى والبديع وغيرهم .

على أن اتخاذ ابن العميد هذا الأسلوب فى كتابته قد يعد عليه لا له .. فبالرغم من أنه بدأ على يديه خفيفا الى حد ما فانه انحدر ـ فيما بعد ـ بالنثر العربى الى مهاوى الاسفاف ولم ينفك عنه الا مع بداية النهضة الحديثة ..

فنثر ابن العميد اذا مسجوع وملئ بأنواع البديع .. غير أن أسلوبه كان محكما قويا .. وأغراضه سامية رفيعة بسبب مركزه الذى كان يحتله ، ليس فى كتابته ذل ولا خضوع ولا اسفاف .. لأنه فى الموضع الذى يذل له الناس ولا يذل لهم . وهذا هو الفرق بينه وبين الخوارزمى .. الذى جعل نثره فى خدمة مصالحه الخاصة ..

---

(١) اليتيمة ٣/١٦٩ (٢) نفس المرجع ٣/١٥٨

(٣) انظر النثر الفنى ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦ (٤) انظر الحضارة الاسلامية ١/٤٤٦ نقلا عن مقدمة الخطب لابن نباته ص ١٦

(٥) انظر النثر الفنى ٢/٢٤٥ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٠٩

ونجد فى رسائله كثيرا من التضمينات الشعرية والأمثال .

غير أن الخوارزمى أكثر تضمينا منه لأطايب الشعر ومختار الأمثال والحكم ، وكان ابن العميد واسع الثقافة فى النحو والعروض والاشتقاق واللغة والغريب وتأويل القرآن واختلاف فقهاء الأمصار وقد يشاركه الخوارزمى فى هذه العلوم أويزيد عليه ولكنه يمتاز عن الخوارزمى باتقانه للهندسة وعلم المنطق والألاهيات والرياضيات.(١) فلم يعرف عن الخوارزمى أنّه يجيدها ، غير أن سعة ثقافة ابن العميد هذه لم تنتج لنا ما يدل عليها من المؤلفات . .

وقد أسهم كل من ابن العميد والخوارزمى فى النهوض بالأدب . . أما الخوارزمى فبتدريسه ومحاضراته ومؤلفاته كما مرّ بنا

وأما ابن العميد فجاهه ومنصبه وإكرامه لأهله بالاضافة الى أنه كان بعدّه اماما من أئمة الأدب فى عصره ــ ولعل الخوارزمى أصدق نفسا فى شاعريته النثر منه على أنه دونه فى فحولة اللفظ(٢) .

وشعر الخوارزمى فى جملته يفوق شعر ابن العميد وان كان ما أثر من شعره محصور فى الاخوانيات والمفاكهات(٣) .

وقد رأينا المكانة التى كان يحتلها الخوارزمى بين معاصريه وهى مكانة اكتسبها بعلمه وأدبه . .

ولابن العميد والصاحب مكانة ان لم توازِ مكانة الخوارزمى فهى تفوقها .

---

(١) انظر النثر الفنى ٢/٢٣٥ واليتيمة ٣/١٥٨

(٢) انظر المرشد الى فهم أشعار العرب ٣/٨٠٣ ــ ٨٠٤

(٣) انظر اليتيمة ٣/١٧٠ فما بعدها .

غير أن شهرة هذين الوزيرين فى الأدب كانت مرتبطة ـ الى حد ما ـ بشهرتهما فى السياسة وبما كانا يتمتعان به من مكانة اجتماعية عالية ، بفضل ما خولهما ايـــاه البويهيون ، وبفضل ما بذلا من عطاء أرضوا به الخاصة والعامة ، ولهذا فـــان فى كثير من أقوال من ترجموا لهما شيئا من المبالغة والمجاملة التى استدعاها ما كان عليه من الثروة والمنصـب .

والثعالبى يلقب الخوارزمى فى بعض كتبه بالوزير حيث يقول عنه : " وكتب الوزيـر أبو بكر الخوارزمى "(١) . ومع أن لعبارة الثعالبى مدلولها . . الا أن هذا الجانب مـن حياة الخوارزمى يعـدّ من الجوانب التى نجهلها عنه حتى الآن .

الخوارزمى والصـاحب :

أما الصاحب فيفوق الخوارزمى فى الانتاج . . فقد بلغت مؤلفاته ورسائله أربعـة عشر مؤلفا ورسالة فى شتى العلوم . . وان كان نصيب الأدب منها قليـلا . فمنهـا ديوان رسائله وديوان شعره ، والكشف عن مساوئ شعر المتنبى "(٢) .

ولكن الخوارزمى يفوقه فى الناحية الفنية والجودة الأدبية . فقد كان تكلف الصاحب واسفافه أحيانا أشد مما وصل اليه الخوارزمى بالرغم مما كان يتمتع به من شهرة ومكانـة فأدبـه أقل من شـهرته .

فقد أغرم بالسجع غراما استهلك معانيه وهوى بنثره فى الغموض والتعـقيد الـى حد الافراط ، وفى ذلك تروى له حكايات وتكتب "(٣) .

---

(١) تحفة الوزراء (مخطـوط) ورقـة ١٧

(٢) انظر " الصاحب ابن عباد حياته وأدبـه " ص ٢١٤ وما بعدها .

(٣) انظر نفس المرجع ص ٢٦٣ وما بعدها . والحضارة الاسلامية لآدم متز ١ / ٤٤٦ ، ٤٧٠ ومعجم الأدباء ٦ / ٢٠٧ ، ٢٠٨

ولعله الأستاذ الثانى فى مدرسة ابن العميد لأن كتاب عصره أخذوا يقلدونه متأثرين بجاهه ومنصبه وغناه ـ والناس على دين ملوكهم ـ ولا استطيع أن أحط من قيمة أدب الصاحب لالتزامه بالسجع ، فلم يكن وحده فى هذا الشأن ، ولكن افراطه فيه أخّره فى رأيى ـ عن منزلة ابن العميد وحتى عن منزلة الخوارزمى وبديع الزمان .

أما من حيث المكانة . . فقد كان الصاحب من أشهر الشخصيات فى القرن الرابع رفع بجاهه ونفوذه طوائف كثيرة من المتأدبين . وكان واسع الثقافة كما تصفه المراجع القديمة .

غير أن مكانته الأدبية مرتبطة بشهرته وجاهه وغناه ومنصبه . كما كان الحال مع ابن العميد .

الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى :

وهنا يمكن أن تكون الموازنة أقرب للواقع حيث كان الأديبان بعيدين عن المناصب ولم يكونا يوزّعان الأعطيات والأموال على الناس ليكسبا رضاهم .

فما كسباه من شهرة ، ومكانة ، وذكر ، انّما هو بفضل اجادتهما لفنون الأدب وعلوم العربية .

فمن حيث الانتاج فهم على السواء ـ حسب ما وصلنا من انتاجهم ـ فقد عرفنا كتب الخوارزمى ، وللبديع ، ديوان شعر ، وديوان رسائل ، وكتاب فى المقامات .

وأما من حيث الاجادة والاسهام فى خدمة الأدب فلكل فضائله ، فبديع الزمان أخفّ روحا وأسهل أسلوبا فى نثره من الخوارزمى ، ولكنه يعدّ أكثر التزاما للسجع والصنعة البديعية . . حتى وصف أحد المعاصرين نثره بأنه أقرب

للتكلف والتصنيع من نثر الخوارزمي وأنه من أهم من رشحوا لمذهب التصنع وظهوره (١) وعد آخر رسائله أكثر التواء وتكلفا من رسائل الخوارزمي (٢) ومع ذلك فاننا نجد له ذوقا في انتقاء الألفاظ الموسيقية العذبة ، الحلوة الوقع على الأذن . . . يصرف متى تمل السجعة فيغيرها ، فيخفف بذلك من ثقل الصنعة . . كما أن له خيال مبدع يولد الصور في خفة ورشاقة . . ومقاماته أكبر شاهد على ذلك .

وبينما نرى الخوارزمي يعتمد في رسائله على الطباق والسجع بين العبارات كقوله : " وقد كنت أعيب من الشعراء من مدح انسانا ثم هجاه . . . حتى بليت الآن بهجاء الدهر وطالما صالحته . . . قد تعرفت للشيخ عوارف حيرتني بين طيها ونشرها ، ورجحت بين تركها وذكرها . . .

فقد أسكت الشيخ لساني من حيث انطقه ، وحصر بناني من حيث أطلقه ، حتى لقد حسدني عليه الأقارب ، وتعرف الي فيه الأجانب ، وها هي ورجاني منذ عرفته الحاضر والغائب " (٣) . . نرى البديع يعتمد على الجناس ، كقوله : " فما ترك لي فضة الا فضها ، ولا ذهبا الا ذهب به ، ولا علقا الا علقه ولا عقارا الا عقره " (٤) ، والسجع بين الكلمات والألفاظ كقوله : " وأليفه رغيفه ، وأنيسه كيسه ، وأمنيته يمينه ودنانيره سميره " (٥) وهو كما ترى جناس غير كامل . . كما يميل الى الاغراب في مثل قوله : " ويعرف غيره من نفسه ، ويعلم أنها حب وراء القلب ، وقلب وراء الحب ، وحب وراء العظم ، وعظم وراء اللحم ، ولحم وراء الجلد ، وجلد وراء البرد ، وبرد وراء البعد " (٦) . . في حين نجد الخوارزمي يميل الى الوضوح في كل رسائله . . ولكن البديع يفضل الخوارزمي بجهوده في بروز فن المقامات ، واتجاهه نحو الحكاية والقصة . وهذا ما رفعه على أدباء عصره وليس على الخوارزمي وحده .

---

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٢ (٢) انظر الحضارة الاسلامية للآدب ج ١ ص ٧٠
(٣) رسائل الخوارزمي ص ٧٢ ، ٧٣ (٤) رسائل بديع الزمان ص ٤٩
(٥) بديع الزمان رائد القصة ص ١٧٠ (٦) رسائل بديع الزمان ص ١٧٧

أما شعره فأقل جمودة من شعر الخوارزمى بالرغم من تظرفه فيه وخفة روحه .. فيكاد شعره أن يتجرد من العاطفة الشعورية الحارة . كقوله فى رثاء صاحب له : (١)

لئن أحرزك الداعى ... لقد أحزننى الناعى
وان مت بجمجاع ... لقد بتنا بأوجاع
وقد ينقسم الموت ... الى عدة أنواع
أرب القصر والمنط ... رما بالك بالقاع
أيا من دونه الموت ... بنفسى وبأشياعى

. . . . . .

سأبكيك عن الدنيا ... وعن سبعة أسباع
وعن سائر أبيات ... وعن نادر اسجاع
ولما بكر الناعى ... وصمت اذن الداعى
لطمنا وتناوحنا ... بألحان وايقاع

وفى شعره فرط تكلف فى الألفاظ والمعانى .. وأحيانا يحاول أن يبهر مقدرته ومعرفته لعلم اللسان ، فيكتب مثلا قصيدة معراة من الواو ، وهو ما عجز عنه الصاحب بن عباد (٢) .

أما شعر الخوارزمى وقد مرت بنا أمثلته ، فلا ينزل الى هذ المستوى ولا شك أن مساهمة البديع فى خدمة الأدب تفوق ما أسهم به الخوارزمى ، ويكفيه من ذلك أن فن المقامات نضج على يديه ، وأنه يعدّ المؤسس الأول لهذا الفن .

كما أنه رسم للكتاب طريق القصة ، بما أبدعه فى مقاماته ، وان كان لطول حياة الخوارزمى وانقطاعه للتعليم ، والدرس ، والمحاضرة ، خلال تلك الحياة الطويلة

---

(١) بديع الزمان الهمذانى رائد القصة ص ٣٣٠ - ٣٣١ . نقلا عن ديوان بديع الزمان ص ٥١ - ٥٣ .
(٢) انظر الحضارة الاسلامية لآدم فنزا ١/ ٤٦١ .

فضل على أهل زمانه ولها أثرها فى النهوض بالأدب ، واستفاد منها طـــلاب العلم والأدب فى بلاده .

وقد تســاوى فى المكانة والشهرة ، وان كانت شهرة البديع ومكانته انما قامتــا على أنقاض شـــهرة ومكانة الخوارزمى ــ كما رأينا ــ فى نتيجة مناظرته له .

الخاتمـــــة

أبو بكر الخوارزمى هو الأديب المشهور والشاعر المعروف ، محمد بن .. العباس أصله فارســى من طبرستان .. ولد بخوارزم سنة ٣٢٣هـ خلافا لمن ذهب الى أنه لا تعرف سنة ولادته ، وتوفي سنة ٣٨٣ هـ كما أثبت خلافا لمن رأى أنهـا ســنة ٣٩٣هـ .

وقد نشأ الخوارزمى فى عصر عرف فى التاريخ (بعصر الدويلات) وذلـــك أن الخلافة فى القرن الرابع الهجرى تجزأت الى عدة دويلات مستقلة ، أو شـــبه مستقلة عن الخلافة العباســية ، وكان لهذا أثره على مسار الأدب وازدهـــاره ، وتعدد بيئاته .. كما كان له أثره على حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ، حيث جرّت الحروب التى قامت بين تلك الدويلات على البلاد المجاعة والدمار فى بعـــض الفترات وتولى حكمها - فى الأقاليم الشرقية - ولاة وحكام أعاجم ، مما أضعـــف الروح العربى وجعل السيطرة فيها للروح والذوق الفارسيين ، فقد وجه أولئـــك الحكام ووزراؤهم - رغم رعايتهم للآداب - الأدباء الوجهة التى تخدم مصالحهم ، وترضـــى رغباتهم ، من الاغراق فى المدح ، والاهتمام بالشكليات ، وقصد ... التســلية والهزل ، على حســاب الجد فى الفكر والقول ، وكان لتعدد البيئات الثقافيـــة الناتج عن تجزؤ الخلافة العباسية الى دويلات أثره فى ازدهـــــار الأدب ورواجه ، وفى نشاط حركة التأليف .. ذلك أن أولئك الحكام والأمـــــراء المتناحرين ، شمل تنافسهم النواحى الأدبيـــة والعلمية ، فاستكثروا من .. الأدباء وأجزلوا لهم العطايا ، وشجعوهم على التأليف باسمهم ، كما اعتنوا بالكتب وأنشأوا لها المكتبات الكبيرة .

وقد طوف الخوارزمى فى الآفاق فرحل الى الشام والعراق وفارس ، علمـــا

ان الاقاليم الفارسية كانت تنقسم الى عدة مراكز ثقافية حسب تعدد الدويلات بها فهناك حضرة الصاحب ، وحضرة عضد الدولة ، وحضرة البلعمى ، وحضرة أبى نصر العيكالى ، وحضرة طاهر بن محمد وغيرها .

ولكن حضرتى سيف الدولة بحلب ، والصاحب باصفهان ، استقطبت جل أدباء تلك الفترة غير أن الفرق واضح بين أدب بيئة الشام وما جاورها ، وبين بيئة فارس . فرغم أن حضرة الصاحب كانت توازى حضرة سيف الدولة من حيث عدد مرتاديها ، بل ان كثيرا ممن كانوا فى بلاط سيف الدولة ، انتقلوا اليها بعد موته ، فان نتاج البيئات الفارسية من الآداب لم يبلغ ما بلغته الآداب الشامية وخاصة فى الشعر ، وكان سبب ذلك هو غلبة الروح الفارسى على تلك الآداب . . خاصة وأن جل سكان تلك الاقاليم هم من الاعاجم ، وان حكامهم غير عرب . مما دعا الأدباء الى مراعاة تقاليد تلك البلاد ، وتلبية رغبات أولئك الحكام من اشباع رغبة المدح فى نفوسهم ، وقصر أدبهم على الاشادة . . . بمآثرهم ، أو صرفه للتسلية ، وكان العصر عصر مناظرات ، تلك الظاهرة التى تمتد جذورها الى العصر الجاهلى ، فيما عرف عند العرب من المفاخرات والمنافرات ، مرورا بالعصر الاسلامى الذى وجدت فيه هذه الظاهرة مجالا واسعا ، خاصة بعد ظهور المذاهب الجديدة والاحزاب السياسية كالخوارج والامويين ثم تفشت هذه المناظرات فى العصر العباسى وشملت شتى فروع المعرفة ، واتخذها المعتزلة منهجا للدفاع عن مذهبهم ، وأقاموا لها قواعد وأصولا ، تمثلت فى ظهور علم جديد هو "علم الكلام" .

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء ، الميدان الفسيح الذى كان يتبارى فيه المتناظرون فى كل فن . . فالمنطقى الفيلسوف يناظر النحوى ، ويحاول اثبات قيمة

علمه الذى اختص فيه وحاجة الناس اليه ، وفضله على غيره .. واللغوى يناظر عالما آخر فى نفس اختصاصه ليظهر مقدرته وعلمه على مناظره ، مثل ماكان بين المبرد وثعلب ، واشترك الأدباء والنقاد فى هذا المعترك . فكان ماكان بين الحاتمى والمتنبى ، ثم كانت تلك المناظرة الشرسة التى شادت بين الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى .

أما حياة الخوارزمى العامة ، فلم يكن فيما أوردته كتب التراجم من تفاصيل عن حياته مايعطى الصورة الكاملة عن كل جوانبها . فأكثرها يكتفى بذكر تاريخ ولادته ووفاته ، وان تعدى ذلك فإلى اشارة عابرة ضمن عبارات موجزة يغلب عليها الاطراء .. وعمل نفس الشيء من ترجموا له من المعاصرين .. ولكن بعبارات حديثة .. حتى أن بعضهم تشكك فى تاريخ ولادته ، وأكثرهم يتردد بين جعل وفاته سنة ٣٨٣هـ وبين سنة ٣٩٣ هـ.

ولقد تلقى ثقافته اللغوية عن ابن خالويه اللغوى المشهور وهو بحلب كما تلقى الحديث وعلومه عن أبى على اسماعيل بن محمد الصفار فى بغداد . وباقى ثقافته ذاتية . اعتمد فيها على قراءة كتب التراث ، ولذلك كانت مستمدة من التراث القديم .. ثم أنه استفاد من ارتياده لمجالس العلماء والأدباء فى عصره ، سواء فى حلب أو بغداد أوغيرها من بقية المراكز الكثيرة فى فارس .

وكان يتمتع بحافظة قوية جعلته يستوعب تلك الثقافات ويتمثلها ويودعها أدبه . فرسائله مليئة بالحكم والأمثال البليغة ، والأبيات المختارة ، والمعارف المتنوعة ، ولقد أسهم فى الأدب نثره وشعره ، وترك لنا ديوانين فيهما ، وكتابا فى الأمثال ، كما شارك فى علم الأنساب ، واللغة والنقد ، مما جعله من أكبر علماء تلك البلاد التى تباهت عليه أهلها ، لطلب العلم ، والتتلمذ عليه ،

وخاصة أولاد الأمراء والقواد ووجوه القوم . . ولهذا فقد كثر تلاميذه وبلغوا أعلا المراكز فى تلك الدويلات ، يدل على ذلك كثرة رسائله اليهم . . ولعل أهم العوامل التى أسهمت فى ثقافة الخوارزمى تلك الرحلات التى قام بها فى حداثته .

فقد انتجع بلاط سيف الدولة ، وهو غض الشباب ، بعد أن آنس من نفسه الحصافة والرشد ، فاجتمع هناك بأعلام الأدب واللغة والشعر والنقد وشتى فروع المعرفة ولكننا لم نجد له مشاركة مع أولئك الفحول ولعله أدلى بدلوه معهم فضاع ما قال فى خضم انتاج أولئك الجهابذة العظام .

ومر ببغداد وأقام بها واستفاد من علمائها . ولما اشتد عوده ، واستوت ثقافته عاد الى فارس ، وهو يشعر أنه أديب عصره على الاطلاق ، وظن أن الولاة سوف يفرشون طريقه خزا وحريرا ، ولكنه شعر بالخيبة حينما وجدهم لا يقدرون الأديب الا بقدر ما يبالغ فى مدحهم ، وتملقهم ، ومجاملتهم ، وهذا يغاير ما رآه من حكام حلب أولئك الذين يغطون على قدر الاجادة ، ويكرمون من يصدق فى مدحهم ، ويميزون جيد القول من رديئه .

فكان أول اتصال له بأبى على البلعمى الذى لم يعرف قدره ولم يحقق له آماله . ففارقه مغاضبا ، وحاول البلعمى استعطافه ، ولكنه أبى أن يعود اليه غير أن أبا نصر العيكالى عوضه عما فاته لدى البلعمى ، فلقد أكرم مثواه وتعرف فى حضرته بوجوه نيسابور وصاحبهم ، فطاب عيشه ، ولعل أبا نصر هو الوحيد الذى لم يشب كرمه للخوارزمى بالاهانة ، فقد بقي الخوارزمى يثنى عليه ويقول فيه أجود شعره . .

ولكن حبه فى الترحال دفعه الى حضرة طاهر بن محمد بسجستان حيث . . أودعه السجن ، وبعد خلاصه منه عاد ثانية الى نيسابور وبقي بها حتى جذبته

حضرة الصاحب بن عبـــاد ، وهناك طاب عيشـــه بما أغدقه عليه الصاحـــــب من عطايا جزيلة لا يعطيها الا الملوك ، وكان من فضله عليه أن أوصله بعضـــــد الدولة بشـــيراز الذى أجرى له راتبا يصله الى نيسابور كل عام .

وهكذا وصل الخوارزمى الى أكبر شخصيتين عرفتا فى ذلك الجزء من العالـم الاسلامى ، فنال أعطياتهما ، وقدماه على غيره من الأدباء . وقد كافأهمـــا بقصائد ورسائل حبرهما فى مدحهما ، وخاصة فى الصاحب ، أشادت بذكـــره ونوهت بكرمـــه . . ثم سعى به الى الوزير المتبى فأمر بسجنه وأخذ ماله ، الا أنه استطاع أن يتخلص من السجن بحيلة ، واتفق أن قتل المتبى وجاء بعده المزنى وكان أشد الناس حبا له فزاد فى اكرامه ورد ما أخذ من أموالـــــه .

ويذكر المؤرخون أن جفوة حصلت بين الخوارزمى والصاحب ولم يذكروا سببهـــا . . مع أننا لم نجد ما يثبت هذه الجفوة عند تلميذه الثعالبى ولا فى أدب . . .

الخوارزمى نفسه سوى ذينك البيتين الذين تناقلها الناس فى هجاء الصاحـــب ، وعلى كل فقد بقي الخوارزمى بخير حال ، يحاضر ويملى ، ويدرس ، ويؤلـــف ، حتى بلي فى آخر أيامه ببديع الزمان الذى تحرش به ثم لجأه الى مناظرته ، وقـد مات الخوارزمى اثر هذه المناظرة قهرا وكمدا ، كما يذكر المؤرخون .

وقد بلغت مؤلفات الخوارزمى أحد عشـــر كتابا ، ثلاثة منها نسبت لـــــه خطأ هي :

(١) رسم المعمـــور من البـــلاد .

(٢) ومفيد العلوم ومبيد الهمـــوم .

(٣) والمكارم والمفاخـــــــــر .

أما الأول فهو فى علم الجغرافيا وقد نشـــر باسم مؤلفه الحقيقى / محمد بن موسى بن شاكر الخوارزمـــى .

وأما الثانى .. فلأن مؤلفه يشتم الشيعة والروافض ، والخوارزمى يعتز برافضيته ويتعصب للشيعة[1] ثم أن هذا الكتاب قد ثبتت نسبته لجمال الدين محمد بن أحمد القزوينى وهو مخطوط باسم مؤلفه فى المتحف البريطانى .

وأما الثالث فلأن مؤلفه يحث فيه الحنفية على السخاء والكرم وقد عرفنا أن .. الخوارزمى شيعى ، ثم أن ناشره لا يملك لنسبته للخوارزمى سوى أسلوبه ، وقد اتضح لى أن أسلوبه ليس أسلوب الخوارزمى .

ومنها ماذكره بروكلمان من وجود كتاب فى المقامات مخطوط بتركيا للخوارزمى مع أن تلك المقامات هي مقامات بديع الزمان المشهورة .

ومنها " كتاب الأمثال " المنسوب للثعالبى وقد ثبت لدى أنه للخوارزمى بأدلة قاطعة لعل أهمها أن ناسخ الكتاب نفسه نسبه للخوارزمى كما وردت نسبته له فى كتب المؤرخين ومنهم العمدانى والبيهقى والخفاجى .

وله ديوان شعر بالفارسية لا يزال مخطوطا فى المغرب العربى مع أنه لم يرد فى كتب من ترجموا له . وله كتابان لا يزالان مفقودين .. هما شرح ديوان المتنبى وكتاب الأنساب .

وقد أسهم الخوارزمى فى ميدانى الشعر والنثر فهو من الشعراء الكتاب أو من الكتاب الشعراء . وقد ذهب أكثر المعاصرين أنه فى النثر أقوى منه فى الشعر ، فى حين وجدنا أن القدامى يقدمون صفة الشاعرية لديه على صفة الكتابة .

وله قصائد شعرية تثبت أنه فى الشعر أقوى منه فى النثر أو على الأقل تجعله فيهما على السواء . وقد أسهم الخوارزمى برسائله الاخوانية المعروفة فى رقي ذلك

---

(١) يقول الخوارزمى :
فيها أنارا فضي عن تـــــراث * وغيرى رافضيّ عن كلالـــــه
أعيان الشيعة ٤٥/٢٥٨ ، ٢٥٩ .

الفن الذى بالغ فيه كتاب العصر الرابع مما جعل تلك الرسائل تشكل جنسا أدبيا له خصائصه وطابعه كما كان للمقامات خصائصها وطابعها .

كما اشتهر فى الهجاء النثرى ذلك الهجاء العابث الذى نحا فيه كتاب القرن الرابع نحو الجاحظ فى رسالته التربيع والتدوير ومنه رسالته التى وجهها الى البديهى - يعبث به ويتهكم - وقد اتخذ كتاب القرن الرابع أغراض الشعر وطوعوها للنثر الفنى بل لقد طوعوا له حتى الأغراض العلمية كما فعل الخوارزمى حين كتب فى الأمراض وعلاجها . وكانت أهم خصائص رسائل الخوارزمى تلك :

الكلف بالسجع وغيره من أنواع الصنعة البديعية كما كان يعنيها على الاستعارة والتشبيه والكناية ويضمنها الحكم والأمثال والأشعار المختارة والاشارات التاريخية والعلمية كما كان يعمد الى الأشعار الجيدة فيحلها ويستعمل معناها ، فرسائل الخوارزمى شعر فى ألفاظه وخياله ، ولا ينقصها عنه الا الوزن ، كما أنه يكثر من الترادف والتكرار والمبالغة والتهويل ..

ولكنه يميل الى الترسل والاهتمام بالمعنى حين يكتب فى المواضيع الجادة كما رأينا فى مقدمة كتابه الأمثال . وقد حدثت فى نهاية حياة الخوارزمى تلك المناظرة المشهورة بينه وبين بديع الزمان أدت الى كسوف شمسه واهتزاز سمعته الأدبية فى نفوس الناس . وذلك أن البديع أخذ يتحرش به حتى ألجأه الى مناظرته .

وقد أعانه عليه وجوه القوم الذين كانوا مستوحشين منه لتعززه وتقديم الوزراء والولاة له عليهم .. وقد تحامل بديع الزمان على الخوارزمى فيما كتبه من تلك المناظرة التى لم تبحث فى صميم الأدب ولا فى قضاياه الأساسية .

فأظهره عييا جاهلا .. لا يفهم فى اللغة ولا فى الشعر ولا فى النثر فى حين يظهر نفسه فيها فى صورة المبقرى الذى لا يعجزه شىء . ولعل ذلك أكبر مطعن فى تلك المناظرة .

أما شعر الخوارزمى فهو على قلته وتناثره فى كتب التراث من أجود ماعرف من شعر فى تلك البيئات الفارسية فى تلك الفترة فله قصائد فى الرثاء والوصف والمدح تثبت مقدرته الشاعرية وترد على من رأى أنه فى النثر أقوى منه فى الشعر.

وقد أثرت سمة ثقافته وكثرة محفوظه من الشعر القديم واطلاعه على دواوين الشعراء الفحول فى تضمين شعره من شعر غيره حتى قال فيه أحدهم .

لو نفضت أشعاره نفضة لانتشرت تطلب أصحابها

وقد أسهم الخوارزمى فى علم النقد وله أقوال فيه ان لم تجعله من كبار النقاد فهي تبين لنا مدى فهمه للأدب وذوقه الفنى . ولهذا كله فقد احتل الخوارزمى مكانة عالية بين أدباء عصره وذلك ماشهد به من ترجم له من القدماء أو المحدثين الذين جعلوه من الأدباء المشاهير الكبار .. ولم يكن احتلاله لهذه المكانة وهذه الشهرة بسبب ما وصلنا من انتاجه المتمثل فى ديوان رسائله ومقطوعاته الشعرية المتناثرة فى كتب التراث وكتابه فى الأمثال فحسب ، ولكنه نالها بما كان عليه من الفضل والعلم ، وبما كان يلقى من دروس ، ومحاضرات ، وبما كان يملى ويؤلف فى شتى فروع العلم ، مما لم يصلنا .

ومع أن هذا العصر هو عصر غلبة النثر على الشعر وتقدم الكتاب على الشعراء فان نقاد ذلك العصر وما بعده لم يحاولوا أن يوازنوا بين أولئك الكتاب أو بين أدبهم . وكانت دراسة جيدة ومفيدة لو تمت .

فلو وازنا الخوارزمى بابن العميد والصاحب وبديع الزمان مثلا من حيث وفرة المحصول ، والجودة الفنية والاسهام فى خدمة الأدب وأخيرا فى المكانة التى حققها كل منهم لوجدنا أن الخوارزمى يفوق ابن العميد انتاجا وان قل عنه فى الجودة الفنية ، كما أنه يفوق الصاحب فى الجودة الفنية ويقل عنه انتاجا . ويتساوى مع البديع فى الانتاج ولكن البديع يسبقه بابداعه وحسن أسلوبه .

المقترحات :

والامانة العلمية تلزمنى أن أذكر بعض المواضيع التى تطرقت اليها فى بحثى هذا وأرى أنها لا زالت تستحق من يفرد لها بحثا شاملا مستقلا :

١ ـ كتب مفقودة مع أسماء من ينسبون اليهم

خوارزم لا زالة الخلط الذى وقع فيه المؤرخون من نسبة كتب بعضهم الى البعض الآخر .

٢ ـ وكظاهرة المناظرات منذ عرفها العرب فى صورة المنافرات والمفاخرات حتى شملت كل فروع العلم والأدب وهي لعمرى دراسة مفيدة وطريفة .

٣ ـ وجمع وتحقيق شعر الخوارزمى وتحرى الحقيقة عما ذكر من وجود مخطوطة له .

٤ ـ وظاهرة ذلك الهجاء العابث الذى بدأه الجاحظ برسالته التربيع والتدوير وأبو المطهر فى حكايته عن أبى القاسم البغدادى والخوارزمى فى رسالته الى البديهى وأخيرا ابن زيدون فى رسالته الهزلية لمقارنة تلك الرسائل ببعضها وبيان خصائصها وطابعها .

٥ ـ وأخيرا موازنة كتاب القرن الرابع الهجرى ببعضهم فقد احتلوا مكانة عالية فى تاريخ الأدب العربى ، وأضافوا اليه أجناسا جديدة يستحقون من أجلها من يوازن بينهم من خلال أدبهم ذلك .

والله من وراء القصد وهو يهدى سواء السبيل ...

عائض سعد الحارثى

المصادر والمراجع

ـ أ ـ

فهرس المراجع المطبوعة

ـ آثار البلاد وأخبار العباد / لزكريا بن محمد القزوينى (٦٨٢هـ) مطبعة دار صادر . بيروت ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩م.

ـ احكام صنعة الكلام / لذى الوزارتين ، أبى القاسم محمد بن عبد الغفور ، الكلاعى (عاش فى القرن السادس) تحقيق محمد الداية ـ دار الثقافة بيروت ١٩٦٦م.

ـ الأدب العربى فى العصور الاسلامية / لعمر كحاله . المطبعة التعاونية دمشق ـ ١٣٩٢هـ. ـ ١٩٧٢م.

ـ الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى / لعلى الشابى ـ دار النشر تونس ١٩٦٥م.

ـ أساس البلاغة لجار الله أبى القاسم الزمخشرى (٥٣٨) هـ .) دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ. ـ ١٩٦٥م.)

ـ أسرار البلاغة / لعبد القاهر (٣٩٢هـ) الجرجانى ، تحقيق . هـ ـ ريتر مطبعة المعارف استانبول ١٩٥٤م.

ـ أعتاب الكتاب / لابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى ط ١ المطبعة الهاشمية سوريا ١٩٦١م.

ـ اعجاز القرآن / لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى تحقيق / السيد صقر دار المعارف مصر (بدون تاريخ)

ـ الاعلام / لخير الدين الزركلى ط ٣

- الأمالى / لأبى على القالى (٣٥٦هـ) ، مطبعة دار الكتب مصر ١٣٤٤ هـ . - ١٩٢٦م.
- الأمثال العربية القديمة / لرودلف زلهايم ، ترجمة رمضان عبد التواب دار الأمانة بيروت (بدون تاريخ)
- الأمير سيف الدولة الحمدانى / لماريوس كانار طبع لتيبو ليو وجول كربونيل الجزائر ١٩٣٤م.
- الأنساب / لأبى سعد عبد الكريم بن محمد التميمى السمعانى (٥٦٢هـ.) ط١ ، مطبعة دائرة المعارف الهند ١٣٨٥ هـ.
- الأنساب المتفقة / لأبى الفضل محمد بن طاهر القيسرانى (٥٠٧ هـ.) ، ليدن . هولندا ١٨٦٥م.

- ب -

- بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية / لمصطفى الشكعه - طبع دار الحامى القاهرة ١٩٥٩م.
- برد الأكباد فى الأعداد (ضمن مجموعة خمس رسائل) للثعالبى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (٤٢٩هـ.) ط١ الجوائب ١٣٠١ هـ
- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطى (٩١١هـ) ج١ ط١ مطبعة عيسى الحلبى مصر ١٣٨٤هـ. - ١٩٦٤م.
- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب / لمحمود شكرى الألوسى البغدادى شرح وتصحيح محمد الأثرى ط ٣ مطابع دار الكتاب العربى مصر ١٣٤٢ هـ .

- البيان والتبيين / لأبى عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ .) تحقيق عبد السلام هارون ـ ط٣ طبع مكتبة الخانجى والمثنى القاهرة .
- تاج التراجم فى طبقات الحنفية / لأبى العدل قاسم بن قطلو بغـــا (٨٧٩هـ.) ـ مطبعة المانى بغداد ١٩٦٢م.

ـ ت ـ

- تاريخ أبى الفداء / المختصر فى أخبار البشر / لأبى الفداء اسماعيـــل ابن نور الدين على (٧٣٢هـ.) دار الفكر لبنان ١٩٥٦م.
- تاريخ آداب اللغة العربية / لجرجى زيدان طبع دار الهلال مصـــر.
- تاريخ الأدب العربى / لكارل بروكلمان طبع دار المعارف بمصـــر (بدون تاريخ) .
- تاريخ الأدب العربى لحنا الفاخورى ـ المطبعة البولسية بـــيروت.
- تاريخ الأدب العربى (الأعصر العباسية) لعمر فروخ . ط ٣ المطبعـة الحسينية مصر ١٣٥٢ هـ. ـ ١٩٣٣م.
- تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الثانى / لشوقى ضيف / طبع دار المعارف مصر ١٩٧٣م.
- تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى / للسباعى بيومى/طبـــع دار العلوم مصر ١٩٣٥
- تاريخ الأدب العربى (للمدارس الثانوية) لأحمد حسن الزيـــات ط٢٥ دار نهضة مصر (بدون تاريخ)

- تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق / لمحمد جمال الدين سـرور ط ٤ طبع دار الفكر العربى مصر ١٣٩٦ هـ. — ١٩٧٦م.
- تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى / لآدم متز / ط ٤ دار الكتاب العربى بيروت ١٣٨٧ هـ. — ١٩٦٧م.
- تاريخ بغداد / لأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ.) طبع أوفست كونرو غرافيت ، الناشر الكتاب العربى بيروت .
- تاريخ اللغة العربية فى العصر العباسى / لأحمد الاسكندرى / ط ١ مطبعة السعادة مصر ١٩١٢م.
- تاريخ النقائض فى الشعر العربى / لأحمد الشايب ط ٣ طبع دار الاتحاد العربى مصر ١٩٦٦م.
- تتمة اليتيمة / للثعالبى .. تحقيق عباس اقبال/طبع فردين ، طهران ١٣٥٣هـ.
- تكملة تاريخ الطبرى / لمحمد بن عبد الملك الهمذانى (٥٢١هـ.) تحقيق يوسف كنعان ط٢ / طبع المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦١م.
- تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون / لخليل بن ايبك الصفدى (٧٦٤هـ) تحقيق / عبد الفتاح الحلو — طبع دار الفكر العربى مصر ١٣٨٩هـ. —١٩٦٩م
- تهذيب سيرة ابن هشام / لعبد السلام هارون / تعليق محمد قلعه جى نشر وتوزيع ربيع حلب (بدون تاريخ) .

— ث —

- الثعالبى ناقدا وأديبا / لمحمود عبد الله الجادر / دار الرسالة للطباعة بغداد ١٣٩٦هـ. — ١٩٧٦م.

- ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب / للثعالبى تحقيق أبو الفضل ابراهيم مطبعة المدنى مصر ١٣٨٤ هـ. - ١٩٦٥م.

- ج -

- جمع الجواهر فى الملح والنوادر / لأبى اسحاق ابراهيم بن على الحصرى القيروانى (٤٥٣هـ.) / تحقيق على البجاوى ط ١ مطبعة عيسى البابى الحلبى / مصر ١٣٧٢هـ. - ١٩٥٣م.
- جمهرة أشعار العرب / لأحمد زكى صفوت ط ٢ مطبعة البابى الحلبى مصر ١٣٨١ هـ. - ١٩٦٢م.

- ح -

- حكاية أبى القاسم البغدادى / لأبى المطهر أحمد بن محمد الأزدى / ، مطبعة كرل ونتر هيدلبرج ١٩٠٢م.
- حلبة الكميت / لشمس الدين محمد بن الحسن النواجى (٨٥٩هـ.) ، المطبعة الأميرية ببولاق مصر ١٢٧٦هـ.
- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء / لأبى محمد عبد الله بن محمد الزوزنى (٤٣١) تحقيق محمد المعيبد . مطبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٣م.

- خ -

- خاص الخاص / للثعالبى / دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦م.
- خزائن الكتب العربية فى الخافقين / لفيليب دى طرازى / مطابع جوزف سليم بيروت ١٩٤٧م.

ـ خمس رسائل / للثعالبي .. ط ١ مطبعة الجوائب ١٣٠١هـ.

ـ د ـ

ـ دائرة المعارف / للبستاني / مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان / تهران ناصر خسرو والمطبعة الأدبية بيروت ١٨٨٧م.

ـ دائرة معارف القرن العشرين / لمحمد فريد وجدي / ط ٢ دار المعرفة للطباعة والنشر لبنان ١٩٧١م.

ـ ديوان ابن زيدون ورسائله / لابن زيدون تحقيق عبد العظيم / طبع مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧م.

ـ ديوان المعاني / لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ) / نشر مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٢ هـ.

ـ الدويلات الاسلامية في الشرق / لمحمد علي حيدر / نشر عالم الكتب القاهرة ١٩٧٤م.

ـ ر ـ

ـ رسائل بديع الزمان الهمذاني / لبديع الزمان (٣٩٨هـ.) ط ١ ، مطبعة الجوائب الاستانة ١٢٩٨م.

ـ رسائل الجاحظ / لأبي عثمان عمرو الجاحظ (٢٥٥ هـ.) طبع دار النهضة الحديثة بيروت ١٩٧٢م.

ـ رسائل الخوارزمي / لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي / المطبعة العثمانية مصر ١٣١٢هـ.

- رسالة التوابع والزوابع / لابن شهيد الأندلسى (٤٢٦هـ) / تحقيق بطرس البستانى / مطبعة المناهل بيروت .
- الرسالة الحاتمية / لأبى على الحاتمى (٣٨٨ هـ) طبع الجوائب القسطنطنية ١٣٠٢هـ .
- الرسالة الموضحة / لأبى على الحاتمى / تحقيق محمد يوسف نجم دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ . ـ ١٩٦٥م .
- روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات / للميرزا محمد باقر الاصفهانى مطبعة سهراستوار طهران ١٣٩٢هـ .
- ريحانة الأدباء وزهرة الحياة الدنيا / لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى (١٠٥٩ هـ .) تحقيق أبو ألفضل ابراهيم ط ١ مطبعة عيسى الحلبى مصر ١٣٨٦ هـ . ـ ١٩٦٧م .

ـ ز ـ

- زهر الآداب وثمر الألباب / لأبى اسحاق ابراهيم بن على الحصرى القيروانى (٤٥٣هـ) ط ٢ مطبعة عيسى الحلبى مصر (بدون تاريخ) .

ـ س ـ

- سحر البلاغة / للثعالبى ط ١ مطبعة الترقى بدمشق .

ـ ش ـ

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب / لأبى الفلاح بن العماد الحنبلى (١٠٨٩ هـ .) طبع كونرو غرافير . بيروت .
- شرح التبيان على ديوان أبى الطيب / منسوب لأبى البقاء العكبرى (٦١٦هـ) طبعة سنة ١٢٨٧هـ .

- شرح ديوان أبى الطيب / لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى (٤٦٨هـ) نشر فريد رخ .. دبيتجوبرلين ١٨٣١م.

- اشرح المضنون به على غير أهله / لعبيد الله بن عبد الكافى العبيـــدى تحقيق اسحاق الغدسى ط ١ مطبعة السعادة مصر ١٣٣١هـ ــ ١٩١٣م

- شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل / لأحمد الخفاجى المصرى (١٠٦٩ هـ.) تحقيق عبد المنعم خفاجى / المطبعة المنيرية بالأزهـــر ط ١ مصر ١٣٧١ هـ. ــ ١٩٥٢م.

ــ ص ــ

- الصاحب بن عباد . حياته وأدبه / لمحمد حسن آل ياسين ط ١ مطبعـة المعارف بغداد ١٣٧٦هـ. ــ ١٩٥٧م.

- الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / ليوسف البديعى (١٠٧٣ هـ.) ، مطبعة الاعتدال ١٣٥٠ هـ . دمشق .

- الصناعتين الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ.) تحقيق على البجاوى وزميله ط ٣ طبع عيسى الحلبى مصر (بدون تاريخ)

ــ ط ــ

- طبقات الشافعية الكبرى / للسبكى (٧٧١ هـ.) طبع البابى الحلـــبى مصر ١٩٦٥م.

- طبقات النحاة واللغويين / لابن قاضى شهبه الأسدى الشافعى (٨٥١هـ) تحقيق محسن غياض طبع النعمان العراق .

ـ طيف الخيال / لعلى بن الحسين الملقب بالشريف المرتضى (٤٣٦ هـ) تحقيق محمد كيلانى ط ١ مطبعة مصطفى الحلبى مصر ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م

ـ ظ ـ

ـ ظهر الاسلام / لأحمد أمين جـ ٢ ط ٤ النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٦م.

ـ ع ـ

ـ العقد الفريد / لأحمد بن عبد ربه (٣٢٨ هـ) ط ٢ المطبعة الأزهرية مصر ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨م.

ـ عيار الشعر / لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى (٣٢٢) تحقيق طه الحاجرى وزميله طبع شركة فن مصر ١٩٥٦م.

ـ ف ـ

ـ فقه اللغة وسر العربية / للثعالبى تحقيق مصطفى السقا وزميله / مطبعة البابى الحلبى مصر ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢م

ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى / لشوقى ضيف ط ٧ دار المعارف مصر (بدون تاريخ) .

ـ فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين / لمصطفى الشكعه / مطبعة المعرفة ١٣٧٨ هـ. ـ ١٩٥٨م.

ـ فهرس دار الكتب المصرية مطبعة دار الكتب مصر ١٣٥٧ هـ. ـ ١٩٣٨م.

ـ فى الأدب العباسى / لمحمد مهدى البصير ط ٣ مطبعة النعمان العراق ١٩٧٠م.

— ق —

- القاموس المحيط / للفيروز بادى (
ط ٣ المطبعة الحسينية مصر ١٣٥٢ هـ. — ١٩٣٣م.

- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد (٢٨٥) المكتبة التجارية - مصر.

- الكامل فى التاريخ / لأبى الحسن على بن أبى الكرم ابن الاثير (٦٣٠هـ.)
دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ. — ١٩٦٦م.

- الكشكول / بهاء الدين العاملى (١٠٣١هـ.) تحقيق طاهر الزاوى / ،
مطبعة عيسى الحلبى مصر (بدون تاريخ)

- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون / لحاجى خليفة (١٠٦٧هـ.) ،
طبع مكتبة المثنى بغداد (بدون تاريخ)

- الكشف عن مساوئ شعر المتنبى / للصاحب أبى القاسم اسماعيل بن عباد
(٣٨٥هـ.) تحقيق محمد آل ياسين مطبعة المعارف بغداد
١٣٨٥هـ. — ١٩٦٥م.

- كمال البلاغة / لشمس المعالى بن وشمكير (٤٠٣ هـ.) / المطبعة
السلفية مصر ١٣٤١هـ.

— ل —

- اللباب فى تحرير الأنساب / لابن الأثير على بن أبى الكرم الجزرى (٦٣٠)
طبع مكتبة القدسى ١٣٥٧هـ.

- لب اللباب فى تحرير الأنساب / لجلال الدين السيوطى (٩١١) طبع
مكتبة المثنى بغداد .

- اللطائف والظرائف / جمع أحمد عبد الرزاق المقدسي (جمع فيه بين كتابي اللطائف والظرائف والبواقيت في بعض المواقيت للثعالبي) / طبع سنة ١٢٩٦ م . مصر .
- لطائف المعارف / للثعالبي / طبع عيسى الحلبي مصر .

— م —

- مثالب الوزيرين / لأبي حيان التوحيد (٤١٤ هـ .) / نشر وتوزيع دار الفكر بدمشق .
- مجمع الأمثال / لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (٥١٨) تحقيق محمد عبد الحميد / مطبعة السنة المحمدية مصر ١٣٧٤ هـ . — ١٩٥٥م .
- مجاني الأدب في حدائق العرب / للأب لويس شيخو اليسوعي المطبعة الكاثولوكية بيروت ١٨٩٩م .
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء / لأبي القاسم حسين بن محمد (الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)) . مطبعة ابراهيم المويلحي مصر ١٢٨٧هـ .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان / لمحمد بن عبد الله اليافعي اليمني (٧٦٨هـ) مطبعة المعارف حيدر أباد ١٣٣٨ هـ .
- المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها / لعبد الله الطيب ط ١ مطبعة الدار السودانية - الخرطوم ١٩٧٠م .
- المرقصات والمطربات / لنور الدين علي بن الوزير أبي عمران (٦٧٣ هـ .) ط ٢ نشر دار حمدو محيو ١٩٧٣م .
- مصارع العشاق / لأبي محمد جعفر بن أحمد السراج ط ١ مطبعة الجوائب ١٣٠١ هـ .

- مطالع البدور فى منازل السرور / لعلاء الدين على بن عبد الله البهائى الغزولى / ط ١ طبع ادارة الوطن .
- المطالعة المختارة / من مطبوعات الادارة العامة للكليات والمعاهد العلمية ط ٣ الرياض ١٣٨٥هـ . — ١٩٦٥م.
- معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول / لمحمد نبيه حجاب - دار المعارف مصر ١٩٧٣م.
- معجم الأدباء / لياقوت أبى عبد الله الرومى البغدادى (٦٢٦ هـ .) ، مطبعة عيسى الحلبى الطبعة الاخيرة مصر (بدون تاريخ) / ومطبعة هندى بالموسكى ط ٢ مصر ١٩٢٤م.
- معجم البلدان / لأبى عبد الله ياقوت الحموى / دار صادر بيروت بيروت (بدون تاريخ) .
- معجم المؤلفين / لعمر كحالة / مطبعة الترقى دمشق ١٣٨٠ هـ . — ١٩٦٠م
- معجم المطبوعات العربية والمصرية / ليوسف الياس سركيس / طبع سركيس مصر ١٣٤٦ هـ . — ١٩٢٨م.
- مقامات بديع الزمان الهمذانى / لبديع الزمان / المطبعة الكاثوليكية بيروت (بدون تاريخ) .
- مقدمة ابن خلدون / لعبد الرحمن بن خلدون المغربى (٨٠٨ هـ .) / ، طبع دار التحرير مصر ١٣٨٦ هـ . — ١٩٦٦م.
- مقدمة فى صناعة النظم والنثر / لمحمد بن حسن النواجى / تحقيق محمد عبد الكريم . منشورات مكتبة الحياة بيروت .
- المكارم والمفاخر / منسوب لأبى بكر الخوارزمى (٣٨٣ هـ .) شرح عزت العطار القاهرة ١٩٣٥م.

- ملحق فهرس المخطوطات العربية بالمتحف البريطانى ، (انجليزى) ، طبع لندن ١٨٩٤م.
- مناظرات فى الأدب / جمع وشرح عزت العطار القاهرة ١٩٣٤م.
- المنتحل للثعالبى ط ١ المطبعة التجارية مصر ١٣١٩هـ.
- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم / لابن الجوزى عبد الرحمن بن على (٥٩٧ هـ) / طبع دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الهند ١٣٥٧ هـ.
- مواسم الأدب وآثار العجم والعرب / لجعفر محمد البيتى الحلوى ط ١ مطبعة السعادة مصر ١٣٢٦هـ.
- الموشح / لأبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) / تحقيق على البجاوى / طبع لجنة البيان العربى مصر ١٩٦٥م.

— ن —

- النثر الفنى / لزكى مبارك / دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة (بدون تاريخ) .
- نثر النظم / للثعالبى / ط ١ المطبعة الأدبية مصر ١٣١٧ هـ.
- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / لعبد الرحمن بن محمد الأنبارى (٥٥٧هـ) طبع مطبعة المدنى مصر .
- نشوا المحاضرة وأخبار المذاكرة / لأبى على المحسن بن على التنوخى (٣٨٤) تحقيق عبود الشالجى . ١٣٩١ — ١٩٧١ م.
- نقد النثر / لقدامة بن جعفر البغدادى (٣٣٧هـ.) / تحقيق طه حسين وزميلة . مطبعة مصر . مصر ١٩٣٨م.

- نفحة الريحانة / لمحمد أمين المحبى / ط ١ طبع عيسى الحلبى مصر ١٣٨٩ - ١٩٦٩م.

- هـ -

- هدية العارفين فى اسماء المؤلفين وآثار المصنفين / لاسماعيل البغدادى مكتبة المثنى بغداد ١٩٥٥م.

- و -

- الوافى بالوفيات / لصلاح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ.) / ط ٢ ، فرانز شتاير بقيس بادن ١٣٩٤ هـ. - ١٩٧٤م.

- الوساطة بين المتنبى وخصومه / لعلى بن عبد العزيز الجرجانى (٣٩٢هـ) تحقيق أبو الفضل ابراهيم وزميله . مطبعة عيسى الحلبى مصر ١٩٦٦م.

- الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى طبع دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة عشر .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / لابن خلكان (٦٨١هـ.) فى ٤ مجلدات طبع دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ)

- ى -

- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر / للثعالبى (٤٢٩ هـ.) / ، تحقيق محمد عبد الحميد .
ط ٣ مطبعة السعادة مصر ١٣٧٥ هـ. - ١٩٥٦م.

المجـــــــلات

- مجلة الأزهر الشـــــــريف

  المجلد الثالث السنة الرابعة والثلاثون

  أكتوبـــــــــر ١٩٦٢ م ٠

- مجلة الرسالـــــــــــــة

  المجلد الثانى عـــــــــدد ٣٣٧

  سنـــــــــــة ١٩٣٩ م ٠

- مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق

  المجلـــــــــــد ٢٣

  مطبعة الترقى دمشق ١٣٦٧هـ٠ — ١٩٤٨م٠

(ب)

فهرس المخطوطـــــات

- الاعجاز والايجاز / للثعالبى / مكتبة حكمت عارف المدينة المنـــــورة رقم المخطوط ٢١ / ١٤
- الأمثال / للثعالبى استانبول غزة رقم المخطوط ١١٥٠ / ٣
- الأمثال للخوارزمى استانبول فيض الله رقم المخطوط ٢١٣٣
- بدائع الملح / لقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمى (صدر الافاضل) استانبول لاله لى رقم المخطوط ١٧٥٠
- تحسين القبيح وتقبيح الحسن / للثعالبى ضمن مجموعة فيض الله ٢١٣٣
- تحفة الوزراء / للثعالبى / القاهرة دار الكتب المصرية رقم المخطـــــوط ٦٣٣٣ وانظر مجموعة فيض الله (٢١٣٣)
- التوضيح فى شرح المقامات الحريرية / للقاسم بن الحسين الخوارزمـــــى نسخة لندن (لدى الزميل عبد الرحمن العثيمين) .
- رسائل أبى بكر الخوارزمى / للخوارزمى المدينة المنورة المكتبة العامـــــة رقم المخطوط ٢٢ / ٨١١
- سر الحقيقة / للثعالبى .. استانبول فيض الله ضمن مجموعـــــــة فيض الله ٢١٣٣
- كتاب الآداب / للثعالبى المدينة المنورة مكتبة حكمت عارف رقـــــم المخطوط ٧ تم نسخه سنة ١٢٦٦هـ.
- الكتاب اليمينى فى شرح أحوال السلطان عبد الله أبى القاسم محمـــــود ابن سبكتكين / لأبى نصر العتبى ألف سنة ٤٥٨ وتم نسخه سنة ٧٠٢ هـ . بدار الكتب المصرية رقم المخطوط ٧١٥٦

مقامات بديع الزمان الهمذاني استانبول نور عثمانية رقم المخطوط ٤٢٧٠

تم نسخه ١١٢٦هـ .

مناظرة الامامين الجليلين أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني

استانبول عاطف أفندي رقم المخطوط ٢٢٧٢

نسخها ١١٤٢ عبد الله المؤذن .

المنتخب من سنن العرب (ضمن مجموعة فيض الله ٢١٣٣) .

من غاب عنه المطرب / للثعالبي المدينة المنورة مكتبة حكمت عارف رقم المخطوطة ١٧٧

المهذب من أختيار شعر أبي الطيب المتنبي وأحواله وسيرته وما جرى بينه

وبين الملوك والشعراء للثعالبي .

القاهرة مكتبة الازهر .

رقم الخطوط ١٨١٩٤ تم نسخه ١٠١٥ هـ .

========

XXXXXX

**

"فهرس الموضوعات"

رقم الصفحة

مقدمة : موضوع البحث - سبب اختياره - منهجه ومصادره أ - هـ

تمهيد : نشأة الأولان السياسية فى العصر العباسى الثانى ..... ١ - ٦

الباب الأول

(عصره الأدبى) ..... (٧ - ٣٣)

الفصل الأول : بيئات الأدب فى عصره ..... (٨ - ١٨)

أ - بيئة فارس وخراسان ..... (٨ - ١٢)

ب - بيئة العراق ..... (١٢ - ١٤)

جـ - بيئة الشام ..... (١٤ - ١٨)

الفصل الثانى : ظاهرة المناظرات الأدبية والعلمية فى العصر الثانى (٢٠ - ٣٣)

الباب الثانى

(حياته العامة) (٣٥ - ٦١)

الفصل الأول : (٣٥ - ٤٧)

أصله ونسبه ومولده ..... (٣٥ - ٣٧)

مولده ووفاته ..... (٣٧ - ٤١)

ثقافته وأساتذته وتلاميذه ..... (٤١ - ٤٧)

الفصل الثانى : رحلاته الأدبية وصلاته بالأمراء والكتاب ..... (٤٨ - ٦١)

فى حلب (سيف الدولة) ..... (٥٠ - ٥١)

فى بخارى (الملحمى) ..... (٥١ - ٥٢)

فى نيسابور (أبو نصر الميكالى) ..... (٥٢ - ٥٢)

فى سجستان (طاهر بن محمد) ..... (٥٢ - ٥٣)

فى أصفهان (الصاحب بن عباد) ..... (٥٤ - ٥٧)

فى شيراز (عضد الدولة) ..... (٥٨ - ٦١)

الباب الثالث

رقم الصفحة

(أدبه وأسلوبه) ..... (٦٣-٢٤٦)

الفصل الأول : مصادر أدبه المطبوع منها والمخطوط..... (٦٣-٧٩)

الفصل الثانى : النثر ..... (٨٠-١٨٥)

أ - رسائله الواردة فى ديوانه وأغراضها المختلفة (٨٠-١٢٦)

ب - رسائله التى لم يحوها الديوان .....(١٢٦-١٢٩)

ج - المقال .....(١٣٠-١٣٤)

د - مناظرته لبديع الزمان .....(١٣٥-١٧٥)

هـ - خصائص نثره ومدرسته التى ينتمى اليها ....(١٧٦-١٨٥)

الفصل الثالث : الشعر .....(١٨٦-٢٢١)

أغراض شعره .....(١٨٩-٢١٧)

خصائصه الفنية .....(٢١٨-٢٢١)

الفصل الرابع : الخوارزمى والنقد .....(٢٢٢-٢٣١)

الفصل الخامس : مكانته وموازنته بأدباء عصره .....(٢٣٢-٢٤٦)

الخاتمة : تلخيص البحث والمقترحات .....(٢٤٧-٢٥٥)

فهرس المراجع : .....(٢٥٦-٢٦٩)

فهرس المجلات .....(٢٧٠-٢٧٠)

فهرس المخطوطات .....(٢٧١-٢٧٢)

فهرس الموضوعات .....(٢٧٣-٢٧٤)